بسم الله الرحمن الرحيم

*** التأسي والاقتداء ***

طارق بن عبد الرازق

إنَّ الحَمْدَ للَّهِ – تعالَىٰ – نَحْمَدُهُ ، و نَسْتَعِينُ بِهِ و نَسْتَغْفِرُهُ ، ونَعُوذُ باللَّهِ العَظِيمِ مِنْ شُرُورِ أنفُسِنَا ومِنْ سَيِّئاتِ أعمالِنا ، مَنْ يَهْدِ اللَّهُ – تعالَىٰ – فَلا مُضِلَّ له ، ومَنْ يُضْلِلْ فلا هَادِيَ لَهُ ، وأشْهَدُ أنْ لا إلهَ إلا اللَّهُ وَحْدَه لا شريكَ له ، و أشْهَدُ أنَّ مُحَمَّداً عبدُهُ و رسُولُهُ

{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اتَّقُواْ اللّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلاَ تَمُوتُنَّ إِلاَّ وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ} [آل عمران/١٠٢]

{يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُواْ رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيراً وَنِسَاءً وَاتَّقُواْ اللّهَ الَّذِي تَسَاءلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ إِنَّ اللّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيباً} [النّساء/١]

{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلاً سَدِيداً {٧٠} يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعْ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزاً عَظِيماً} [الأحزاب/٧٠- ٧١]

أمَّا بعدُ : فَإنَّ أَصْدَقَ الحَدِيثِ كتابُ اللَّهِ – تَعَالَىٰ - ، و خَيْرَ الهَدْيِ هَدْيُ مُحَمَّدٍ – صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وسَلَّم - وشَرَّ الأمورِ مُحْدَثاتُها ، وكُلَّ مُحْدَثَةٍ بِدْعَةٌ ، وكُلَّ بِدْعَةٍ ضَلالَةٍ .

قال اللَّهُ – عَزَّ وجَلَّ – في أثْناءِ سُورَةِ الأحْزابِ : {لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيراً} [الأحزاب/٢١]

أيُّها الإخوةُ الكرامُ : إنَّ مِنْ أصولِ دينِ المُسْلِمينَ وقَواعِدِ مِلَّتِهم وأثبَتِ عَقَائدِهِم وأرسخِ قَواعِدِهِم : الإيمانُ بعُمومِ رسالةِ النَّبيِّ الأكْرَمِ والرَّسُولِ الأعْظَمِ مُحَمَّدٍ – صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وسَلَّم – وأنَّ رسالَتَهُ تَشْمَلُ النَّاسَ أجْمعينَ وتَلْزَمُ جَميعَ المُكَلَّفينَ ، وأنَّهُ لا يَحِلُّ لأحَدٍ أنْ يَخْرُجَ عَنْ دينِهِ وشريعتِهِ بعدَ بَعْثَتِهِ – صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْه وسلَّم – .

وقد دلَّ عَلَىٰ ذلكَ الكتابُ والسُّنَّةُ وإجْماعُ المُسْلِمينَ :

قَالَ اللَّهُ – عَزَّ وجَلَّ – : {قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعاً الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ لا إِلَـهَ إِلاَّ هُوَ يُحْيِـي وَيُمِيتُ فَآمِنُواْ بِاللّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الأُمِّيِّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللّهِ وَكَلِمَاتِهِ وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ} [الأعراف/١٥٨]

{قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعاً} : فَلَيْسَ مَبْعوثاً إلَىٰ جِنْسٍ دونَ جِنْسٍ ولا شَعْبٍ دونَ شَعْبٍ ولا قَبِيلةٍ دونَ أخْرىٰ ولا جَماعَةٍ دونَ مَنْ سِواهُم ، وإنَّما {إِنِّي رَسُولُ اللّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعاً} .

وقالَ اللَّهُ – تَعالَى – : { وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلا كَافَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيراً وَنَذِيراً وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ } [سَبَأ/٢٨] فلَم يَسْتَثْنِ جِنْسًا مِن النَّاسِ ولا شَعْبًا ولا أَهْلَ دينٍ كَانوا قَبْلَ بعثَتِهِ – صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وسَلَّم – بلْ عَمَّهم جميعًا بالخِطابِ { وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِّلنَّاسِ } .

وقالَ اللَّهُ – عَزَّ وجَلَّ – : { تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيراً } [الفرقان/١]

وقَولُهُ – تَعالَىٰ – : " العالَمينَ " : يَشْمَلُ الإنْسَ والجِنَّ جميعًا ، فإنَّ الجِنَّ كالإنْسِ مكلَّفُونَ بالشَّرْعِ فِي الجُملَةِ ، ولذلك يَدْخُلُ مُؤمِنُهم وطائعهم الجَنَّةَ ويَدْخُلُ كافِرُهُم وعَاصِيهِم النَّارَ كالإنسِ سواءً بسواءٍ عَلَىٰ القَولِ الرَّاجِحِ* .

ورَوَى البُخَارِيُّ (٣٣٥و٤٣٨و٣١٢٢) ومُسْلِم (٥٢١) وغَيْرُهُما عَنْ جَابِرِ بنِ عَبْدِ اللَّهِ الأنصاريِّ – رضِيَ اللَّهُ عنهما – أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وسَلَّمَ – قَالَ : " أُعْطِيتُ خَمْسًا لَمْ يُعْطَهُنَّ أَحَدٌ مِن الأنبِياءِ قَبْلِي : نُصِرْتُ بالرُّعْبِ مَسِيرةَ شَهْرٍ ، وجُعِلَتْ لِي الأرضُ مَسْجِداً وطَهُوراً ، فأَيُّما رَجُلٍ مِن أُمَّتي أدْرَكَتْهُ الصَّلاةُ فَلْيُصَلِّ ، وأُحِلَّتْ لِي الغَنَائِمُ ولَمْ تَحِلَّ لأَحَدٍ قَبْلِي ، وأُعْطِيتُ الشَّفَاعَةَ ، وكانَ النَّبِيُّ يُبْعَثُ إِلَى قَوْمِهِ خَاصَّةً وبُعِثْتُ إلى النَّاسِ عَامَّةً "**

وفي روايةِ مُسلمٍ قال : " وكانَ النَّبِيُّ يُبْعَثُ إِلَى قَوْمِهِ خَاصَّةً وبُعِثْتُ إلى كُلِّ أَحْمَرَ وأَسْوَدَ " .

والمَقْصودُ بالأحْمرِ الجِنُّ والمقصُودُ بالأَسْوَدِ الإنْسِ عَلَىٰ أرْجَحِ الأقْوالِ***

---

* انظر : " عالم الجن" لعبد الكريم عبيدات (١٧٥-٢٤٩) " عالم الجن والشَّياطين " للأشقر (٥١-٥٤) " الجن ووجوب الإيمان بهم " لعبد القادر الأوغندي (٢٨٠-٢٨٦)

قال ابنُ القَيِّمُ – رحمه اللَّهُ - : الصَّوابُ الذي عَلَيْهِ جُمهورُ أَهْلِ الإسْلامِ أَنَّهم – أيْ : الجِنَّ – مأمورون مَنْهِيُّونَ ، مُكَلَّفُونَ بالشَّريعَةِ الإسْلامِيَّةِ ، وأدلَّةُ القُرْآنِ والسُّنَّةِ عَلَى ذلكَ أكثرُ من أنْ تُحْصَرَ . اهـ " طريق الهجرتين " (٦١٩ - ابن القيم)

ومن أوضح الأدِلَّةِ عَلَى تكليفِهم قَوْلُ اللَّهِ – تعالَى – : { وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَراً مِّنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوا أَنْصِتُوا فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوْا إِلَى قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ {٢٩} قَالُوا يَا قَوْمَنَا إِنَّا سَمِعْنَا كِتَاباً أُنزِلَ مِن بَعْدِ مُوسَى مُصَدِّقاً لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ وَإِلَى طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ {٣٠} يَا قَوْمَنَا أَجِيبُوا دَاعِيَ اللَّهِ وَآمِنُوا بِهِ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ {٣١} وَمَن لَّا يُجِبْ دَاعِيَ اللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِي الْأَرْضِ وَلَيْسَ لَهُ مِن دُونِهِ أَولِيَاءُ أُوْلَئِكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ } [الأحقاف/٢٩-٣٢]

وقَالَ اللَّهُ – تَعالَى - : { قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِنْ الجِنِّ فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنا قُرآناً عَجَباً يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ ولَنْ نُشْرِكَ بِرَبِّنا أَحَداً } الآيات إلى آخِرِ سُورةِ الجِنِّ .

قَالَ القُرْطُبِيُّ – رحمه اللَّهُ - : هَذه السُّورةُ – أيْ : الرَّحمن - و « الأحقاف » و { قُلْ أُوحِيَ } دليلٌ عَلَى أنَّ الجِنَّ مُخَاطَبُونَ مُكَلَّفُونَ مأمورون منهيُّون مُثابون مُعاقَبون كالإنْسِ سَواءً مُؤمِنُهم كمؤمنهم وكافرهم ككافرهم ، لَا فَرْقَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ فِي شيءٍ مِنْ ذَلِكَ . اهـ " الجامع لأحكام القُرآن " (١٣٨/٢٠ الرسالة) ونَحْوُهُ في " اللُّبَاب في عُلُوم الكِتَاب " ابنُ عادلٍ (٣٣٠/١٨)

** وَنَحْوُهُ رَوَاه مُسْلِمٌ في " صَحِيحِهِ " (٥٢٣) والتِّرمِذِيُّ بإِثْر الحديث (١٥٥٣) ، وأحمد (٢/ ٤١١) وأبو يعلَى (٦٤٩١ و ٦٤٩٢) وابن حِبَّانَ (٢٣١٣ و ٦٤٠١ و ٦٤٠٣) والبَغَوِيُّ (٣٦١٧)وغَيْرُهُم عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ – رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – قَالَ : فُضِّلْتُ عَلَى الأَنْبِيَاءِ بِسِتٍّ : أُعْطِيتُ جَوَامِعَ الْكَلِمِ ، وَنُصِرْتُ بِالرُّعْبِ ، وَأُحِلَّتْ لِيَ الْغَنَائِمُ ، وَجُعِلَتْ لِيَ الأَرْضُ طَهُورًا وَمَسْجِدًا ، وَأُرْسِلْتُ إِلَى الْخَلْقِ كَافَّةً ، وَخُتِمَ بِيَ النَّبِيُّونَ " .

*** وذلك لأنَّ الإنسَ مخلوقون من طينٍ كما في قولِهِ – تَعالَى - : { هُوَ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن طِينٍ } [الأنعام/٢] وقالَ – تعالَى - : { وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ مِن سُلَالَةٍ مِّن طِينٍ } [المؤمنون/١٢] ، والغالبُ عَلَيْهِ السَّوادُ ، بيْنما الجِنُّ مخلوقونَ من نارٍ كما في قولِهِ – تَعالَى - : { وَالْجَآنَّ خَلَقْنَاهُ مِن قَبْلُ مِن نَّارِ السَّمُومِ } [الحِجْر/٢٧] وقالَ اللَّهُ – تعالَى - : { وَخَلَقَ الْجَانَّ مِن مَّارِجٍ

وعَلَىٰ ذلكَ فإنَّهُ لا يَحِلُّ لأحَدٍ أنْ يَتَدَيَّنَ بدينٍ غَيْرِ دينِهِ أو أنْ يَتَعبَّدَ بشَريعةٍ غَيرِ شريعتِهِ ، وأنَّ كُلَّ دينٍ يتديَّنُ النَّاسُ بهِ بعدَ بَعْثَتِهِ – صلَّىٰ اللَّهُ عليه وسلَّم - غَيْرِ دينِهِ فإمَّا أنْ يكونَ صحيحـًا مَنْسوخـًا وإمَّا أنْ يكونَ مُحَرَّفـًا مَمْسُوخـًا = وكِلاهُما باطِلٌ ومَردودٌ عَلَىٰ أهْلِهِ :

قالَ اللَّهُ – تعالَى – : { وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الإِسْلامِ دِيناً فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ } [آل عِمران/٨٥]

وقالَ اللَّهُ – تَعالَى – : { وَمَنْ يَكْفُرْ بِالإِيمَانِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُ وَهُوَ فِي الآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ } [المائدة/٥]*

وَرَوَى الإمامُ مُسْلِمٌ في " صحيحِهِ " (١٥٣) وأحمد في " مسنده " (٢/ ٣١٧و٣٥٠) والبَغَويُّ في " شرح السُّنَّة " (٥٦) وغَيْرُهُم عن أبي هُرَيْرةَ – رَضِيَ اللَّهُ عنه – قالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وسَلَّم – : " والذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ لا يَسْمَعُ بي أحَدٌ من هَذِهِ الأمَّةِ يَهُودِيٌّ ولا نَصْرانِيٌّ ثُمَّ يَمُوتُ ولم يُؤْمِنْ بالذِي أُرْسِلْتُ بِهِ إلَّا كانَ مِنْ أصْحَابِ النَّارِ "**

ومِنْ ذلكَ ما تَعْتَقِدُهُ جماعاتٌ من الصُّوفِيَّةِ أنَّ الوَلِيَّ عِنْدَهُم يَصِلُ إلَىٰ مَنْزِلَةٍ يَسْقُطُ عَنْهُ فيها التَّكليفُ ، ولا يَلْزَمُهُ فيها التَّشْريعُ ولا يَحتاجُ إلَىٰ الرَّسولِ ، بلْ هو يأخُذُ من نَفْسِ المَوضِعِ الذي يَتَلَقَّىٰ عَنْهُ الرَّسولُ !***

مِّن نَّارٍ } [الرحمن/١٥] والغالِبُ عليْها الحُمرة ، وجاءَ ذِكْرُهُما في سياقٍ واحدٍ في قَولِ اللَّهِ – تَعالَى - : { قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ قَالَ أَنَاْ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ } [الأعراف/١٢] ونحوهُا في [ص /٧٦]

وَرَوَى مسلمٌ (٢٩٩٦) وأحمد (٦/ ١٥٣و١٦٨) وابن حِبَّان (٦١٥٥) وغيْرُهُم عَنْ عائشةَ – رضي اللَّهُ عنها – قالت : قال رسُولُ اللَّهِ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وسَلَّم - : " خُلِقَت الملائكةُ مِن نُورٍ ، وخُلِقَت الجَانُّ مِن مارجٍ مِن نارٍ ، وخُلِقَ آدمُ – عَلَيْهِ السَّلامُ – مِمَّا وُصِفَ لَكُم " واللَّهُ أعْلَمُ .

وانظر " فتح المنَّان " لمشهور بن حسن (٩١) ومعه " تحقيق البرهان " لابن قاضي الجبل (٦٢١- ٦٥٩)

* الأصْلُ أنَّ دينَ الأنبياءِ جميعاً دينٌ واحدٌ ، وهو دينُ الإسْلام العامِ كما قالَ اللَّهُ – عزَّ وجلَّ - : { إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللَّهِ الإِسْلامُ } [آل عِمران/١٩] وإنَّما الاختلافُ بيْنَهم يكونُ في الشَّرائعِ لا في أصلِ الدِّينِ وأركانِ الإيمانِ ، كما قالَ اللَّهُ – تَعالَى - : { لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجاً } [المائدة/٤٨]

ورَوَى البخاري (٣٤٤٢و٣٤٤٣) وأحْمَد (٢/٤٠٦و٤٣٧) وابنُ حِبَّانَ (٦٨١٤و٦٨٢١) والبزَّار (٨١٠٦) والحاكم (٤١٥٣) وغَيْرُهُم عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ – رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - أَنَّ النَّبِيَّ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – قَالَ : " الْأَنْبِيَاءُ إِخْوَةٌ لِعَلَّاتٍ أُمَّهَاتُهُمْ شَتَّى وَدِينُهُمْ وَاحِدٌ ... "

وهو في " صَحِيح مُسْلِم " (١٤٥/٢٣٦٥) و " مسند أحمد " (٣١٩/٢) و " صحيح ابن حِبَّانَ " (٦١٩٤) و " شرح السُّنَّة " للبغوي (٣٦١٩) وغيرهِم من وجهٍ آخر عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ – رَضِيَ اللَّهُ عَنه – أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – قَالَ : " أَنَا أَوْلَى النَّاسِ بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ فِي الْأُولَى وَالْآخِرَةِ " قَالُوا : كَيْفَ يَا رَسُولَ اللَّهِ ؟ قَالَ : " الْأَنْبِيَاءُ إِخْوَةٌ مِنْ عَلَّاتٍ ، وَأُمَّهَاتُهُمْ شَتَّى وَدِينُهُمْ وَاحِدٌ ، فَلَيْسَ بَيْنَنَا نَبِيٌّ " .

قال البَغَوِيُّ – رحمه اللَّهُ - : يُقَالُ لإخْوةٍ بَنِي أبٍ وأمٍّ : بنو الأعْيان ، فإنْ كانوا لأمَّهاتٍ شَتَّى فهُم بَنُو العَلَّاتِ ، فإن كانوا لآباءٍ شَتَّى فهُم أخْيَافٌ ، يُريدُ أنَّ أصْلَ دينِ الأنْبياءِ واحِدٌ وإنْ كَانَتْ شَرائِعُهُم مُخْتَلِفَةً ، كَما أنَّ أولادَ العَلَّاتِ أبُوهُم واحِدٌ وإنْ كَانَتْ أمَّهَاتُهُم شَتَّى . اهـ " شرح السُّنَّة " (٢٠٠/١٣)

قال ابنُ الأثير – رحمه اللَّهُ - : أولادُ العَلَّاتِ : الذينَ أمَّهاتُهُم مُخْتَلِفَةٌ وأبُوهُم واحِدٌ ، أرادَ أنَّ إيمانَهُم واحِدٌ وشرائعَهُم مُخْتَلِفَةٌ . اهـ " النِّهاية في غَريب الحديثِ والأثَر " (٢٩١/٣)

** وأخرج نَحْوَهُ النَّسائيُّ في " الكبرى " (١١١٧٧) وأحمد (٣٩٦/٤و٣٩٨) والطَّيالسيُّ في " مسنده " (٥١١) والبزَّار في " مسنده " (٣٠٥٠) وغَيْرُهُم عَنْ أَبِي مُوسَى الأشْعَرِيِّ – رضِيَ اللَّهُ عنه – قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - : « لَا يَسْمَعُ بِي أَحَدٌ مِنْ هَذِهِ الأمَّةِ أَوْ يَهُودِيٌّ أَوْ نَصْرَانِيٌّ ثُمَّ لَا يُؤْمِنُ بِي إِلَّا دَخَلَ النَّارَ »

*** بلْ إنَّ طوائفَ كثيرةً منهم يُفَضِّلونَ الوَلِيَّ عَلَى النَّبِيِّ والرَّسُول ، كما قال ابنُ عَرَبِيّ الطَّائي :

……

مقامُ النُّبُوَّةِ في بَرْزَخٍ *** فُوَيْقَ الرَّسُولِ ودونَ الوليِّ !

أيْ : إنَّ الأنْبياءَ – عِنْدَهُم - أعْلَى مَكانَةً مِن الرُّسُلِ ، والأنْبياءُ عَلَى فضْلِهِم أدْنَى مِن أولياءِ الصُّوفيَّةِ الذين يُسَمِّيهِم ابْنُ عَرَبِيّ بأنبياءِ الأولياء ! وَهَذَا قَلْبٌ لِلشَّرِيعَةِ ، فَإِنَّ الْوِلَايَةَ ثَابِتَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ الْمُتَّقِينَ ، كَمَا قَالَ – تَعَالَى - : { أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (٦٢) الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ } [يونس/٦٢-٦٣] ، وَالنُّبُوَّةُ أَخَصُّ مِنَ الْوِلَايَةِ ، وَالرِّسَالَةُ أَخَصُّ مِنَ النُّبُوَّةِ . وانظر : " شرح الطَّحاويَّة " لابنِ أبي العِزّ (٧٤٣/٢-٧٤٤ – الرسالة)

وسَبَبُ تَفْضِيلِ أنْبياءِ الأوْلِياءِ عَلَى سائرِ الأنْبياءِ والرُّسُلِ هو : أنَّ هَؤلاءِ الأولياءِ يأخُذونَ العُلُومَ عَنْ اللَّهِ – تَعالَى – مباشَرَةً بلا واسطَةٍ ! وأمَّا الأنْبياءُ والرُّسُلُ فيأخُذونَ عُلُومَهُمْ عن اللَّهِ – تَعالَى – بواسِطَةِ الوَحْيِ والرَّسولِ المَلَكِيِّ .

قال ابنُ أبي العِزّ – رحمه اللَّهُ تَعالَى - : وكثيرٌ مِن هؤلاءِ – أيْ : الاتِّحاديَّةِ وجَهَلَةِ المُتَصَوِّفَةِ – يَظُنُّ أنَّهُ يَصِلُ برياسَتِهِ واجْتِهادِهِ في العِبادةِ وتَصْفِيةِ نَفْسِهِ إلَى ما وَصَلَتْ إلَيْهِ الأنْبياءُ مِنْ غَيْرِاتِّباعٍ لِطَريقَتِهم !*

ومِنْهُمْ مَنْ يَظُنُّ أنَّهُ قَدْ صارَ أفْضَلَ مِنْ الأنْبياءِ !

ومِنْهُم مَنْ يَقُولُ : إِنَّ الْأَنْبِيَاءَ وَالرُّسُلَ إِنَّمَا يَأْخُذُونَ الْعِلْمَ بِاللَّهِ مِنْ مِشْكَاةِ خَاتَمِ الْأَوْلِيَاءِ ، وَيَدَّعِي لِنَفْسِهِ أَنَّهُ خَاتَمُ الْأَوْلِيَاءِ ! ... كَابْنِ عَرَبِيّ وَأَمْثَالِهِ ! وَهُوَ لَمَّا رَأَى أَنَّ الشَّرْعَ الظَّاهِرَ لَا سَبِيلَ إِلَى تَغْيِيرِهِ = قَالَ : النُّبُوَّةُ خُتِمَتْ ، لَكِنَّ الْوِلَايَةَ لَمْ تُخْتَمْ ! وَادَّعَى مِنَ الْوِلَايَةِ مَا هُوَ أَعْظَمُ مِنَ النُّبُوَّةِ وَمَا يَكُونُ لِلْأَنْبِيَاءِ وَالْمُرْسَلِينَ ، وَأَنَّ الْأَنْبِيَاءَ مُسْتَفِيدُونَ مِنْهَا ! ...

وَقَالَ ابْنُ عَرَبِيّ - أيضاً – فِي " فُصُوصِهِ " : وَلَمَّا مَثَّلَ النَّبِيُّ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – النُّبُوَّةَ بِالْحَائِطِ مِنَ اللَّبِنِ فَرَآهَا قَدْ كَمُلَتْ إِلَّا مَوْضِعَ لَبِنَةٍ ، فَكَانَ هُوَ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – مَوْضِعَ اللَّبِنَةِ ** ، وَأَمَّا خَاتَمُ الْأَوْلِيَاءِ فَلَابُدَّ لَهُ مِنْ هَذِهِ الرُّؤْيَةِ ، فَيَرَى مَا مَثَّلَهُ النَّبِيُّ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – وَيَرَى نَفْسَهُ فِي الْحَائِطِ فِي مَوْضِعِ لَبِنَتَيْنِ ! وَيَرَى نَفْسَهُ تَنْطَبِعُ فِي مَوْضِعِ تَيْنِكَ اللَّبِنَتَيْنِ فَيُكْمِلُ الْحَائِطَ ! وَالسَّبَبُ الْمُوجِبُ لِكَوْنِهِ يَرَاهَا لَبِنَتَيْنِ : أَنَّ الْحَائِطَ لَبِنَةٌ مِنْ فِضَّةٍ وَلَبِنَةٌ مِنْ ذَهَبٍ ، وَاللَّبِنَةُ الْفِضَّةُ هِيَ ظَاهِرُهُ وَمَا يَتْبَعُهُ فِيهِ مِنَ الْأَحْكَامِ ، كَمَا هُوَ آخِذٌ عَنِ اللَّهِ فِي الشَّرْعِ مَا هُوَ فِي الصُّورَةِ الظَّاهِرَةِ مُتَّبَعٌ فِيهِ ، لِأَنَّهُ يَرَى الْأَمْرَ عَلَى مَا هُوَ عَلَيْهِ ، فَلَابُدَّ أَنْ يَرَاهُ هَكَذَا ، وَهُوَ مَوْضِعُ اللَّبِنَةِ الذَّهَبِيَّةِ فِي الْبَاطِنِ ، فَإِنَّهُ يَأْخُذُ مِنَ الْمَعْدِنِ الَّذِي يَأْخُذُ مِنْهُ الْمَلَكُ الَّذِي يُوحَى إِلَيْهِ إِلَى الرَّسُولِ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - ، قَالَ : فَإِنْ فَهِمْتَ مَا أَشَرْنَا إِلَيْهِ فَقَدْ حَصَلَ لَكَ الْعِلْمُ النَّافِعُ ! فَمَنْ أَكْفَرُ مِمَّنْ ضَرَبَ لِنَفْسِهِ الْمَثَلَ بِلَبِنَةِ ذَهَبٍ وَلِلرُّسُلِ الْمَثَلَ بِلَبِنَةِ فِضَّةٍ ، فَيَجْعَلُ نَفْسَهُ أَعْلَى وَأَفْضَلَ مِنَ الرَّسُولِ ؟! تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ : { إِنْ فِي صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ مَا هُمْ بِبَالِغِيهِ } [غافر/٥٦] ، وَكَيْفَ يَخْفَى كُفْرُ مَنْ هَذَا كَلَامُهُ ؟ وَلَهُ مِنَ الْكَلَامِ أَمْثَالُ هَذَا .... إلخ " شرح الطَّحاويَّة " (٧٤٣/٢-٧٤٥)

وقالَ شَيْخُ الإسْلامِ ابنُ تَيْمِيَةَ – رحمه اللَّهُ تعالَى - : ... وبالجُمْلَةِ فَهُو – يَعْنِي ابن عَربي – لَم يَتَّبِع النَّبِيَّ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وسَلَّم – في شَيءٍ ، فإنَّهُ أخَذَ بزَعْمِهِ عَن اللَّهِ ما هُو مُتَابِعُهُ فِيهِ في الظَّاهر كَما يُوافِقُ المُجْتَهِدُ المُجْتَهِدَ والرَّسُولُ الرسُولَ ! فلَيْس عِنْدَهُ مِنْ اتِّباعِ الرَّسُولِ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وسَلَّم – والتَّلَقِّي عَنهُ شَيءٌ أصْلاً لا في الحَقائقِ الخَبَريَّةِ ولا في الحقائقِ الشَّرعيَّة . وَأيضاً : فَإِنَّهُ لَمْ يَرْضَ أَنْ يَكُونَ مَعَهُ كَمُوسَى مَعَ عِيسَى وَكَالْعَالِمِ مَعَ الْعَالِمِ فِي الشَّرْعِ الَّذِي وَافَقَهُ فِيهِ ، بَلْ ادَّعَى أَنَّهُ يَأْخُذُ مَا أَقَرَّهُ عَلَيْهِ مِنَ الشَّرْعِ مِنَ اللَّهِ فِي الْبَاطِنِ فَيَكُونُ أَخْذُهُ لِلشَّرْعِ عَنَ اللَّهِ أَعْظَمَ مِنْ أَخْذِ الرَّسُولِ ... إلخ

وَأَمَّا مَا ادَّعَى امْتِيَازَهُ بِهِ عَنْهُ وَافْتِقَارَ الرَّسُولِ إِلَيْهِ – وَهُوَ مَوْضِعُ اللَّبِنَةِ الذَّهَبِيَّةِ – فَزَعَمَ أَنَّهُ يَأْخُذُهُ عَنْ الْمَعْدِنِ الَّذِي يَأْخُذُ مِنْهُ =

---

* وذلكَ لأنَّهم يَعْتَقِدونَ أنَّ النُّبُوَّةَ والرِّسالةَ كَسْبِيَّةٌ يُمكنُ تَحْصِيلُها بالاجتهادِ ! وهذا ضلالٌ في العقلِ والشَّرعِ ، بلْ إنَّ النُّبُوَّةَ والرِّسالةَ مِنْحَةٌ من اللَّهِ – عَزَّ وجلَّ – يَصْطَفِي لها مَنْ يَشاءُ من عِبادِهِ ويُكْرِمُ بها مَنْ يَشَاءُ : قالَ اللَّهُ – تَعالَى - : { اللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ الْمَلَائِكَةِ رُسُلاً وَمِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ } [الحَج/٧٥]

وقالَ مُحَمَّدُ بنُ أحمدَ السَّفَّاريني :

ولا تُنَالُ رُتْبَـــــــــــــةُ النُّبُوَّةِ *** بالكَسْبِ والتَّهْذيبِ والفُتُوَّةِ

لَكِنَّها فَضْلٌ من المَوْلَى الأجَلّ *** لِمَنْ يَشَا مِنْ عِبادِهِ إلَى أجَلْ

ولَم تَزَلْ فيما مَضَى الأنبـــــاء *** مِنْ فَضْلِهِ تأتي لِمَنْ يَشَـــــاء

حَتَّى أتَى بالخاتَمِ الذِي خَتَـم *** بِهِ وأعْلانا عَلَى كُلِّ الأُمَـــم

** يُشِيرُ إلَى مَا رواه البُخاريُّ (٣٥٣٥) ومُسْلِمٌ (٢٢٨٦) وغَيْرُهُما عَنْ أبي هُرَيْرةَ – رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - : أنَّ رَسُولَ اللَّهِ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وسَلَّمَ – قالَ : " إنَّ مَثَلِي ومَثَلُ الأنْبياءِ مِنْ قَبْلِي كَمَثَلِ رَجُلٍ بَنَى بَيْتاً فأَحْسَنَهُ وأجْمَلَهُ إلَّا مَوضِعَ لَبِنَةٍ مِنْ زاويةٍ مِنْ زواياهُ فجَعَلَ النَّاس يَطُوفُونَ بِهِ ويَعْجَبُونَ لَهُ ويَقُولُونَ : هَلَّا وُضِعَتْ هَذِهِ اللَّبِنَةُ ؟! " قال : " فَأنا اللَّبِنَةُ وأنا خَاتَمُ النَّبِيِّين " .

= الْمَلَكُ الَّذِي يُوحَى بِهِ إِلَى الرَّسُولِ ! فَهَذَا كَمَا تَرَى فِي حَالِ هَذَا الرَّجُلِ وَتَعْظِيمِ بَعْضِ الْمُتَأَخِّرِينَ لَهُ . وَصَرَّحَ الْغَزَالِيُّ بِأَنَّ قَتْلَ مَنْ ادَّعَى أَنَّ رُتْبَةَ الْوِلَايَةِ أَعْلَى مِنْ رُتْبَةِ النُّبُوَّةِ أَحَبُّ إِلَيْهِ مِنْ قَتْلِ مِائَةِ كَافِرٍ لِأَنَّ ضَرَرَ هَذَا فِي الدِّينِ أَعْظَمُ . اهـ " مجموع الفتاوى " (١٧٢/٤- ١٧٣) ونحوه في " نقض المنطق " (١٤١)

ويَقُولُ شَيْخُ الإِسْلامُ ابْنُ تَيْمِيَة – رحمه اللَّهُ تَعالَى - :

وقد ظَنَّ طائفةٌ غَالِطَةٌ أنَّ خاتِمَ الأولياءِ أفْضَل الأولياءِ قِياساً عَلَى خَاتَمِ الأنْبِيَاءِ ، ولَمْ يَتَكَلَّم أَحَدٌ مِن المَشايخِ المُتَقَدِّمِين بخاتَمِ الأولِياءِ إلَّا مُحَمَّدَ بنَ عَلَى الحَكِيمِ التِّرمِذِى ، فإنَّهُ صَنَّفَ مُصَنَّفاً غَلِطَ فِيهِ في مَواضِعَ ، ثُمَّ صَارَ طائفةٌ من المُتَأخِّرين يَزْعُمُ كُلُّ واحِدٍ مِنْهُم أنَّهُ خَاتَمُ الأولِيَاءِ ، ومِنْهُم مَنْ يَدَّعِى أَنَّ خَاتَمَ الأولِيَاءِ أَفْضَلُ مِن خَاتَمِ الأنْبياءِ مِن جِهَةِ العِلْمِ باللَّهِ ، وأنَّ الأنْبِياءَ يَسْتَفِيدونَ العِلْمَ باللَّهِ مِنْ جِهَتِهِ كَمَا يَزْعُمُ ذَلِكَ ابْنُ عَرَبِيّ صَاحِبِ كِتاب " الفُتُوحَات المَكِّيَّة " وكِتاب " الفصوص " فخَالَفَ الشَّرعَ والعَقْلَ مَعَ مُخَالَفَةِ جَمِيعِ أنْبِياءِ اللَّهِ – تَعَالَى – وأولِيَائِهِ ، كَمَا يُقَالُ لِمَنْ قَال : " فَخَرَّ عَلَيْهِم السَّقْفُ مِنْ تَحْتِهِم! = لا عَقْلٌ ولا قُرآنٌ .

ذَلِك أنَّ الأنْبِياءَ أَفْضَلُ في الزَّمَانِ مِن أوْلِيَاءِ هَذِهِ الأمَّةِ ، والأنْبِيَاءَ – عَلَيْهِم أفْضَلُ الصَّلاةِ والسَّلامِ – أَفْضَلُ من الأولِيَاءِ فَكَيْفَ الأنْبِياءُ كُلُّهُم ؟ والأوْلِيَاءُ إنَّمَا يَسْتَفِيدونَ مَعْرِفَةَ اللَّهِ مِمَّنْ يَأْتِى بَعْدَهُم ويَدَّعِى أنَّه خَاتَمُ الأوْلِيَاءِ ؟! ولَيْسَ آخِرُ الأوْلِياءِ أفْضَلَهُم كَما أنَّ آخِرَ الأنْبِيَاءِ أفْضَلُهُم ، فإنَّ فَضْلَ مُحَمَّدٍ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وسَلَّم – ثَبَتَ بالنُّصُوصِ الدَّالَّةِ عَلَى ذلِك ، كَقَوْلِهِ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْه وسَلَّم - : " أنا سَيِّدُ وَلَدِ آدمَ ولا فَخْرَ " * ، وقولِهِ : " آتِى بابَ الجَنَّةِ فأسْتَفْتِحُ فَيَقُولُ الخَازِنُ : مَنْ أنْتَ ؟ فَأَقُولُ : " مُحَمَّدٌ " فيَقُولُ : بِكَ أُمِرْتُ ألَّا أفْتَحَ لأحَدٍ قَبْلَكَ " **

وليلة المعراج رفَعَ اللَّهُ درجَتَهُ فَوْقَ الأنْبِيَاءِ كُلِّهِم *** فكان أحَقَّهُم بِقَوْلِهِ – تَعَالَى - : { تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ مِّنْهُم مَّن كَلَّمَ اللّهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ } [البقرة/٢٥٣] ... إلَى غَيْرِ ذلكَ مِن الدَّلائِلِ .

كُلٌّ مِنْهُم يَأْتِيهِ الوَحْيُ من اللَّهِ ، لا سِيَّما مُحَمَّدٌ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وسَلَّم – لَم يَكُنْ في نُبُوَّتِهِ مُحْتَاجاً إلى غَيْرِهِ ، فَلَم تَحْتَجْ شَرِيعَتُهُ إلى سَابِقٍ ولا إلَى لاحِقٍ ، بِخِلافِ المَسِيحِ أحَالَهُم في أكْثَرِ الشَّرِيعَةِ عَلَى التَّوراةِ ، وجَاءَ المَسِيحُ فكَمَّلَها .

ولِهَذا كان النَّصارى مُحْتَاجِينَ إلَى النُّبُوَّاتِ المُتَقَدِّمَةِ عَلَى المَسِيح كالتَّوراةِ والزَّبُورِ وتَمَامِ الأرْبَعِ وعِشْرين نُبُوَّةً ، وكانَ الأمَمُ قَبْلَنَا مُحْتَاجِينَ إلَى مُحَدَّثِينَ ، بِخِلافِ أمَّةِ مُحَمَّدٍ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وسَلَّم – فإنَّ اللَّهَ أغْنَاهُم بِهِ فَلَم يَحْتَاجُوا مَعَهُ إلَى نَبِيٍّ ولا إلَى مُحَدَّثٍ ، بَل جَمَعَ لَه مِن الفَضَائِلِ والمَعَارِفِ والأعْمَالِ الصَّالِحَةِ ما فَرَّقَهُ في غَيْرِهِ مِنْ الأنْبِيَاءِ ، فَكَانَ مَا فَضَّلَهُ اللَّهُ بِهِ مِن اللَّهِ بِمَا أنْزَلَهُ إلَيْهِ وأرْسَلَهُ إلَيْهِ لا بِتَوَسُّطِ بَشَرٍ .

وهذا بِخِلافِ الأولِيَاءِ فإنَّ كُلَّ مَنْ بَلَغَهُ رسالةُ مُحَمَّدٍ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وسَلَّم - لا يَكُونُ وَلِيًا للَّهِ إلَّا باتِّبَاعِ مُحَمَّدٍ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وسَلَّم – وكُلُّ ما حَصَلَ لَهُ مِن الهُدَى ودِينِ الحَقِّ هُوَ بِتَوَسُّطِ مُحَمَّدٍ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وسَلَّم – وكذلكَ مَنْ بَلَغَهُ رسالةُ رسُولٍ إلَيْهِ لا يَكُونُ وَلِيًا للَّهِ إلَّا إذا اتَّبَعَ ذلِكَ الرَّسُولَ الذِي أُرْسِلَ إلَيْهِ .

ومَنْ ادَّعَى أنَّ مِن الأوْلِيَاءِ الذينَ بَلَغَتْهُم رِسَالَةُ مُحَمَّدٍ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وسَلَّم – مَنْ لَه طَرِيقٌ إلَى اللَّهِ لا يَحْتَاجُ فيه إلى مُحَمَّدٍ = فَهَذا كافِرٌ مُلْحِدٌ ، وإذا قَالَ : أنَا مُحْتَاجٌ إلَى مُحَمَّدٍ في عِلْمِ الظَّاهِرِ دونَ عِلْمِ البَاطِنِ ، أو في عِلمِ الشَّرِيعَةِ دونَ عِلْم الحَقِيقَةِ = فَهُو شَرٌّ مِن اليَهُودِ والنَّصَارَى الذين قالوا : إنَّ مُحَمَّدًا رسُولٌ إلَى الأمِّيِّينَ دون أهْلِ الكِتَاب ، فإنَّ أولئِكَ آمَنُوا بِبَعْضٍ وكَفَروا بِبَعْضٍ فَكَانُوا كُفَّاراً بِذلِكَ ، وكذلك هذا الذي يَقُولُ : إنَّ مُحَمَّداً بُعِثَ بِعِلْمِ الظَّاهِرِ دونَ عِلْمِ البَاطِنِ آمَنَ بِبَعْضِ مَا جَاءَ بِهِ وكَفَرَ بِبَعْضٍ فَهُو كَافِرٌ ، وهُو أكْفَرُ مِن أولَئِكَ لأنَّ عِلْمَ البَاطِنِ الذِي هُو عِلْمُ إيمانِ القُلُوبِ ومَعَارِفِها وأحْوالِها هُو عِلْمٌ بحقائِقِ الإيمانِ البَاطِنَةِ ، وهَذا أشْرفُ مِن العِلْمِ بِمُجَرَّدِ أعْمَالِ الإسْلامِ الظَّاهِرةِ .

فإذا ادَّعَى المُدَّعِي أنَّ مُحَمَّداً – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وسَلَّم – إنَّما عَلِمَ هذه الأمورَ الظَّاهِرةِ دون حَقَائِقِ الإيمانِ ، وأنَّه لا يَأْخُذُ هَذِهِ الحَقَائِقَ عَن الكِتَابِ والسُّنَّةِ = فَقَد ادَّعَى أنَّ بَعْضَ الذي آمَنَ بِهِ مِمَّا جَاءَ بِهِ الرَّسُولُ دون البَعْضِ الآخَرِ ، وهَذا شَرٌّ مِمَّنْ يَقُولُ : أُومِنُ بِبَعْضٍ وأَكْفُرُ بِبَعْضٍ ولا يَدَّعِي أنَّ هَذا البَعْضَ الذي آمَنَ بِهِ أدْنَى القِسْمَيْنِ .

---

* أخرجه مسلم في " صحيحه " (٢٢٨٧) وأبو داود (٤٦٧٣) وأحمد (٥٤٠/٢) والبيهَقِيُّ في " الكُبْرَى " (٩/٤) وغيرُهُم عن أبي هُريرةَ – رَضِيَ اللَّهُ عنه - ، وقد رُوِيَ أيْضاً من مُسْنَدِ غَيْرِهِ .

** أخرجه مسلم في " صحيحه " (١٩٧) وأحمد (١٦٣/٣) وعَبْدُ بنُ حُمَيْدٍ (١٢٧١) والبَيْهَقِيُّ في " الدَّلائل " (٤٨٠/٥) والبَغَوِيُّ في " شرح السُّنَّة " (٤٣٣٩) وغَيْرُهُم عن أنسِ بنِ مَالِكٍ – رَضِيَ اللَّهُ عنه - ، وقدْ رُوِيَ أيْضاً مِنْ مُسْنَدِ غَيْرِهِ .

وقَدْ احْتَجُّوا علىٰ سُقوطِ التَّكليفِ عن الأولياءِ بعِدَّةِ شُبَهٍ مُتَهافِتَةٍ بلْ ميِّتةٍ لا تَشْتَبِهُ إلَّا علىٰ مُغفَّلٍ جَاهِلٍ أو ضالٍّ مُنافِقٍ ، أذْكُرُ منها شُبْهَتَيْنِ :

الشُّبْهةُ الأولَىٰ : في قَوْلِ اللَّهِ – تَعَالَىٰ – : {وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ} [الحِجْر/٩٩] حيْثُ قالُوا : إنَّ الوَلِيَّ إذا وَصَلَ إلَىٰ مَنْزلةِ اليقينِ سقطَ عنه التَّكليفُ بالشَّريعةِ من عِباداتٍ وغَيْرِهَا !

والجَوابُ عن ذلكَ من وجْهَيْنِ :

الوجه الأوَّلُ : أنَّ اليَقِينَ في هذه الآيةِ معناه المَوتُ ، أيْ : اشْتَغِلْ بِعِبَادةِ اللَّهِ – تَعَالَىٰ – في جَمِيعِ أوقَاتِكَ ومُدَّةِ بَقَائكَ إلىٰ آخِرِ حَيَاتِكَ ونِهايةِ أجَلِكَ ، ولا تَتْرُكْ عِبادةَ ربِّكَ إلىٰ آخِرِ أنفاسِ الحياةِ حَتَّىٰ يَأتِيَكَ المَوْتُ وأنْتَ عَلَىٰ طاعَةٍ للَّهِ – عَزَّ و جلَّ – .

عَنْ سَالِمِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ في هذه الآيةِ : {حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ} [الحِجْر/٩٩] قَالَ : الْمَوْتُ .

وعنْ الْحَسَنُ البَصْريُّ في قَوْلِهِ:- تَعَالَىٰ - : {وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ} قَالَ : الْمَوْتُ .

وإنَّما أُطْلِقَ " اليَقِينُ " عَلَىٰ لأنَّهُ مُحَقَّقٌ لا شَكَّ فِيهِ ، عَلَىٰ اعْتِبارِ أنَّ التَّثَبُّتَ مِنْهُ كَائِنٌ في جَمِيعِ النُّفُوسِ والقُلُوبِ ، ويَدُلُّ عَلَىٰ ذلكَ أيْضًا الكتابُ والسُّنَّة :

قالَ اللَّهُ – تعالَى – : {كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ{٣٨} إِلَّا أَصْحَابَ الْيَمِينِ{٣٩} فِي جَنَّاتٍ يَتَسَاءلُونَ{٤٠} عَنِ الْمُجْرِمِينَ{٤١} مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرَ{٤٢} قَالُوا لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ{٤٣} وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ الْمِسْكِينَ{٤٤} وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ الْخَائِضِينَ{٤٥} وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ الدِّينِ{٤٦} حَتَّى أَتَانَا الْيَقِينُ} [المدَّثر/٣٨–٤٧] فاليَقِينُ هنا هو المَوْتُ بلا تَرَدُّدٍ ، أوْ أنَّ هؤلاءِ المُجْرِمينَ المُعَذَّبِينَ هم الأوْلِياءُ المقصودون عندَ غُلاةِ الصُّوفِيَّةِ !

وروَى البُخَاريُّ في " صحيحِهِ " (١٢٤٣) والنَّسائيُّ في " الكبرى " (٧٦٣٤/٣٨٥/٤) وأحْمَدُ في " مُسْنَدِهِ " (٤٣٦/٦) والبغويُّ في " شَرْحِ السُّنَّة " (٣٢٩٥) وغَيْرُهُم عن خارِجَةَ بْنِ زَيْدِ بْنِ ثَابِتٍ : أَنَّ أُمَّ العَلاءِ – امْرَأَةً مِنَ الأَنْصَارِ بَايَعَتِ النَّبِيَّ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيهِ وسَلَّمَ – أَخْبَرَتْهُ أَنَّهُ اقْتُسِمَ المُهَاجِرُونَ قُرْعَةً فَطَارَ لَنَا عُثْمَانُ بْنُ مَظْعُون ، فَأَنْزَلْنَاهُ في أَبْيَاتِنَا ، فَوَجِعَ وَجَعَهُ الَّذِي تُوُفِّيَ فِيهِ ، فَلَمَّا تُوُفِّيَ وَغُسِّلَ وَكُفِّنَ فِي أَثْوَابِهِ دَخَلَ رَسُولُ اللَّهِ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيهِ وسَلَّمَ –

وهَؤلاءِ المَلاحِدةُ يَدَّعُونَ أنَّ الولايةَ أفْضَلُ مِن النُّبُوَّةِ ، ويُلَبِّسُونَ عَلَى النَّاسِ فَيقُولُونَ : ولايَتُهُ أفْضَلُ مِنْ نُبُوَّتِهِ ! ويُنْشِدُونَ :

مَقَامُ النُّبُوَّةِ في بَرْزَخٍ *** فُوَيْقَ الرَّسُولِ ودونَ الوَلِيّ

ويَقُولُونَ : نَحْنُ شَارَكْناهُ في وَلايَتِهِ التي هي أعْظَمُ مِن رسالَتِهِ ! وهَذا مِنْ أعْظَمِ ضَلالِهِم ، فَإنَّ ولايةَ مُحَمَّدٍ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ – لَم يُمَاثِلْهُ فِيها أحَدٌ لا إبْراهِيمُ ولا مُوسَى فَضْلاً عَن أنْ يُمَاثِلَهُ هَؤلاءِ المُلْحِدون .

وكُلُّ رسُولٍ نَبِيٌّ وَلِيٌّ ، فالرَّسُولُ نَبِيٌّ وَلِيٌّ ، ورِسالَتُهُ مُتَضَمِّنَةٌ لِنُبُوَّتِهِ ، ونُبُوَّتِهِ مُتَضَمِّنَةٌ لِولايَتِهِ ، وإذا قَدَّروا مُجَرَّدَ إنْباءِ اللَّهِ إيَّاهُ بدونِ ولايَتِهِ للَّهِ فَهَذا تَقْديرٌ مُمْتَنِعٌ ، فإنَّهُ حَالَ إنْبائِهِ إيَّاهُ مُمْتَنِعٌ أنْ يَكُونَ إلَّا وَلِيّاً لِلَّهِ ، ولا تَكُونُ مُجَرَّدَةً عَنْ ولايَتِهِ ، ولَو قُدِّرتْ مُجَرَّدَةً لَم يَكُنْ أحَدٌ مُماثِلاً للرَّسُولِ في ولايَتِهِ .

وهَؤلاءِ قَدْ يَقُولُون – كما يَقولُ صاحِبُ " الفصوص " ابنُ عَربي - : إنَّهُم يَأخُذونَ مِن المَعْدِنِ الذي يَأخُذُ مِنْهُ المَلَكُ الذي يُوحِي به إلى الرَّسُولِ ... إلخ . " مجموع الفتاوى " (٢٢٣/١١) ونحوُهُ في " جامع الرَّسائلِ " (٢٠٥/١-٢٠٧)

فَقُلْتُ : رَحْمَةُ اللَّهِ عَلَيْكَ أَبَا السَّائِبِ ، فَشَهَادَتِي عَلَيْكَ : لَقَدْ أَكْرَمَكَ اللَّهُ – عَزَّ وجَلَّ – فَقَالَ النَّبِيُّ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وسَلَّمَ – : " وَمَا يُدْرِيكِ أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَكْرَمَهُ ؟ " فَقُلْتُ : بِأَبِي أَنْتَ يَا رَسُولَ اللَّهِ فَمَنْ يُكْرِمُهُ اللَّهُ ؟ ! فَقَالَ : " أَمَّا هُوَ فَقَدْ جَاءَهُ الْيَقِينُ ، وَاللَّهِ إِنِّي لَأَرْجُو لَهُ الْخَيْرَ ، وَاللَّهِ مَا أَدْرِي – وَأَنَا رَسُولُ اللَّهِ – مَا يُفْعَلُ بِي " قَالَتْ : فَوَاللَّهِ لَا أُزَكِّي أَحَدًا بَعْدَهُ أَبَداً " ثُمَّ قَالَتْ : ثُمَّ رَأَيْتُ لِعُثْمَانَ بَعْدُ فِي النَّوْمِ عَيْناً تَجْرِي ، فَقَصَصْتُهَا عَلَى رَسُولِ اللَّهِ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – ؟ فَقَالَ : " ذَاكَ عَمَلُهُ " .

فقَوْلُهُ – صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وسَلَّم – فِي عُثمانَ بنِ مَظْعونٍ – رضِيَ اللَّهُ عنه – : " أَمَّا هُوَ فَقَدْ جَاءَهُ اليَقِينُ مِنْ ربِّهِ " أيْ : المَوتُ ! فَدلَّ ذلكَ عَلَىٰ أنَّ اليَقينَ يأتِي بمَعْنَىٰ المَوتْ ، وعَلَيْهِ يُحْمَلُ قَولُهُ – تَعالَىٰ – : {وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ} [الحِجْر/٩٩]

قالَ الطَّبَريُّ – رحمه اللَّهُ تَعالَىٰ – : يَقُولُ تَعالَىٰ ذِكْرُهُ لِنَبيِّهِ – صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – : وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ الْمَوْتُ الَّذِي هُوَ مُوقَنٌ بِهِ ... إلخ* ثُمَّ ذكَرَ عَدداً مِن الآثارِ في ذلكَ **

---

* " جامع البيان " للطَّبَريّ (١٤/ ١٥٤- هجر) وانظر " الجامع لأحكام القُرآن " (١٢/٢٦٤ – الرسالة)

** قالَ ابنُ القَيِّمِ – رحمه اللَّهُ تعالَى – : قَالَ اللَّهُ – تَعَالَى لِرَسُولِهِ : {وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ } [الحجر/٩٩] وَقَالَ أَهْلُ النَّارِ : { وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ الدِّينِ حَتَّى أَتَانَا الْيَقِينُ } [المُدَّثِّر/٤٦] وَالْيَقِينُ هَاهُنَا هُوَ الْمَوْتُ بِإِجْمَاعِ أَهْلِ التَّفْسِيرِ ، وَفِي " الصَّحِيح " فِي قِصَّةِ مَوْتِ عُثْمَانَ بْنِ مَظْعُونٍ – رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - أَنَّ النَّبِيَّ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – قَالَ : " أَمَا عُثْمَانُ فَقَدْ جَاءَهُ الْيَقِينُ مِنْ رَبِّهِ " أَي : الْمَوْتُ وَمَا فِيهِ .

فَلَا يَنْفَكُّ الْعَبْدُ مِنَ الْعُبُودِيَّةِ مَا دَامَ فِي دَارِ التَّكْلِيفِ ، بَلْ عَلَيْهِ فِي الْبَرْزَخِ عُبُودِيَّةٌ أُخْرَى لَمَّا يَسْأَلُهُ الْمَلَكَانِ : مَنْ كَانَ يَعْبُدُ ؟ وَمَا يَقُولُ فِي رَسُولِ اللَّهِ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – ؟ وَيَلْتَمِسَانِ مِنْهُ الْجَوَابَ ، وَعَلَيْهِ عُبُودِيَّةٌ أُخْرَى يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، يَوْمَ يَدْعُو اللَّهُ الْخَلْقَ كُلَّهُمْ إِلَى السُّجُودِ ، فَيَسْجُدُ الْمُؤْمِنُونَ وَيَبْقَى الْكُفَّارُ وَالْمُنَافِقُونَ لَا يَسْتَطِيعُونَ السُّجُودَ ، فَإِذَا دَخَلُوا دَارَ الثَّوَابِ وَالْعِقَابِ انْقَطَعَ التَّكْلِيفُ هُنَاكَ ، وَصَارَتْ عُبُودِيَّةُ أَهْلِ الثَّوَابِ تَسْبِيحاً مَقْرُوناً بِأَنْفَاسِهِمْ لَا يَجِدُونَ لَهُ تَعَباً وَلَا نَصَباً .

وَمَنْ زَعَمَ أَنَّهُ يَصِلُ إِلَى مَقَامٍ يَسْقُطُ عَنْهُ فِيهِ التَّعَبُّدُ فَهُوَ زِنْدِيقٌ كَافِرٌ بِاللَّهِ وَبِرَسُولِهِ ، وَإِنَّمَا وَصَلَ إِلَى مَقَامِ الْكُفْرِ بِاللَّهِ وَالِانْسِلَاخِ مِنْ دِينِهِ ، بَلْ كُلَّمَا تَمَكَّنَ الْعَبْدُ فِي مَنَازِلِ الْعُبُودِيَّةِ كَانَتْ عُبُودِيَّتُهُ أَعْظَمَ ، وَالْوَاجِبُ عَلَيْهِ مِنْهَا أَكْبَرَ وَأَكْثَرَ مِنَ الْوَاجِبِ عَلَى مَنْ دُونَهُ ، وَلِهَذَا كَانَ الْوَاجِبُ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – بَلْ عَلَى جَمِيعِ الرُّسُلِ أَعْظَمَ مِنَ الْوَاجِبِ عَلَى أُمَمِهِمْ ، وَالْوَاجِبُ عَلَى أُولِي الْعَزْمِ أَعْظَمَ مِنَ الْوَاجِبِ عَلَى مَنْ دُونَهُمْ ، وَالْوَاجِبُ عَلَى أُولِي الْعِلْمِ أَعْظَمَ مِنَ الْوَاجِبِ عَلَى مَنْ دُونَهُمْ ، وَكُلُّ أَحَدٍ بِحَسَبِ مَرْتَبَتِهِ . اهـ " مدارج السَّالكين " (١/ ١٢٤-١٢٥- دار الكتاب العربي)

وسُئل شَيخُ الإسْلامِ ابنُ تَيْمِيَةَ – رحمه اللَّهُ تَعالَى – عن جَمَاعَةٍ اجْتَمَعُوا عَلَى أُمُورٍ مُتَنَوِّعةٍ من الفَسادِ ومنهم مَن يَقُولُ : إنَّ غايةَ التَّحقيقِ وكَمال سُلُوكِ الطَّرِيقِ تَرْكُ التَّكليف ، بحَيثُ أنَّه إذا أُلْزِمَ بالصَّلاةِ يَقُومُ ويَقُولُ : خَرجْنا من الحَضْرةِ ووقَفْنا بالبَابِ ؟ فأجاب – رحمه اللَّهُ – بقولِهِ : أمَّا مَنْ جَعَلَ كَمَالَ التَّحْقِيقِ الخُروجَ من التَّكْلِيفِ = فهذا مَذْهَبُ المَلاحِدةِ من القَرامِطَةِ والبَاطِنِيَّةِ ومَنْ شابَهَهُم من الملاحدةِ المُنْتَسِبين إلى عِلْمٍ أو زُهْدٍ أو تَصَوُّفٍ أو تَزَهُّدٍ ، يَقُولُ أَحَدُهُم : إنَّ العَبْدَ يَعْمَلُ حَتَّى تَحْصُلَ لَهُ المَعْرِفَةُ ، فإذا حَصَلَتْ زالَ عَنْهُ التَّكْلِيفُ ! ومَنْ قَالَ هَذا فإنَّهُ كافرٌ مُرْتَدٌّ باتِّفاقِ أئِمَّةِ الإسْلامِ فإنَّهُم مُتَّفِقُونَ عَلَى أنَّ الأمْرَ والنَّهْيَ جَارٍ عَلَى كُلِّ بالغٍ عَاقِلٍ إلى أنْ يَمُوتَ : قَالَ – تَعالى – : { وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ } [الحِجْر/٩٩] قال الحَسَنُ البَصْرِيُّ : لَم يَجْعَل اللَّهُ لِعَمَلِ المُؤْمِنِ غَايَةً دون المَوتِ ؛ وقَرأَ هَذه الآيةَ . و " اليَقِينُ " هُنا ما بَعْدَ المَوت كَما قال – تَعالَى – في الآيةِ الأخْرى : { وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ الدِّينِ (٤٦) حَتَّى أَتَانَا الْيَقِينُ } [المدثر/٤٦-٤٧] ومِنْه قَوْلُ النَّبِيِّ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وسَلَّم – في الحديثِ الصَّحيحِ لَمَّا مَاتَ عُثْمانُ بنُ مَظْعُونٍ : " أَمَّا عُثمانُ فإنَّهُ أتاه اليقينُ من ربِّه " .

وقد سُئِلَ الجُنَيْدُ بنُ مُحَمَّدٍ – رحِمَه اللَّهُ تَعَالَى – عَمَّن يَقُولُ : إنَّهُ وَصَلَ مِن طَرِيقِ البِرِّ إلى أنْ تَسْقُطَ عَنْه الأعْمَالُ ؟ فقالَ : الزِّنا والسِّرقةُ وشُرْبُ الخَمْرِ خَيْرٌ مِن قَولِ هَؤلاءِ ! ولقد صَدقَ الجُنَيْدُ – رحِمَه اللَّهُ – فإنَّ هذهِ كبائِرُ وهذا كُفْرٌ ونفَاقٌ =

والـوَجْـهُ الـثَّـاني في الـرَّدِّ عَـلَىٰ اسْـتِـدلالِـهـم بـهـذه الآيَـةِ : الإلـزامُ بـحـالِ الـنَّـبـيِّ – صـلَّـىٰ الـلَّـهُ عَـلَـيْـهِ وسـلَّـم – والـخُـلَـفـاءِ الأربـعـةِ الـرَّاشـديـنِ وسـائـرِ أئـمَّـةِ الـدِّيـنِ ، فـنـقـولُ : هـلْ بَـلَـغـوا مَـنْـزلـةَ الـيَـقِـيـنِ الـتي يَـسْـقُـطُ مَـعَـهـا الـتَّـكـلـيـفَ أم لـم يَـبْـلُـغـوهـا ؟

فـإنَّ قـالـوا : بـلَـغُـوهـا = قِـيـلَ : فَـلِـمَ لَـمْ يَـسْـقُـطْ عَـنْـهُـم الـتَّـكـلـيـفُ ولـم يَـسَـعْـهُـم الـخُـروجُ عـن الـشَّـرعِ ؟

وإنْ قـالُـوا : لـم يَـبْـلُـغْـهـا أحـدٌ قَـبْـلَ أولـيـائِـهـم لا نَـبـيٌّ ولا صِـدِّيـقٌ ولا شـهـيـدٌ = فـلـيُـراجـعـوا ديـنَـهُـم مِـنْ جَـديـدٍ ، وكَـفَـىٰ بـالـمَـرْءِ خِـزْيـًا وضـلالاً أنْ يَـدَّعِـيَ أنَّ الـرَّسـولَ – صـلَّـىٰ الـلَّـهُ عَـلَـيْـهِ وسـلَّـم – وأصْـحـابَـهُ الـمَـهْـديِّـيـنَ لـم يَـبْـلُـغُـوا مَـنْـزِلَـتَـهُ في الـدِّيـنِ ورُتْـبَـتَـهُ في الـيَـقِـيـنِ !

قـالَ ابـنُ كَـثـيرٍ – رحـمـه الـلَّـهُ تَـعـالَىٰ - : وَيُـسْـتَـدَلُّ مِـنْ هَـذِهِ الْآيَـةِ الْـكَـرِيـمَـةِ وَهِـيَ قَـوْلُـهُ : { وَاعْـبُـدْ رَبَّـكَ حَـتَّـىٰ يَـأْتِـيَـكَ الْـيَـقِـيـنُ } عَـلَـىٰ أَنَّ الْـعِـبَـادَةَ كَـالـصَّـلاةِ وَنَـحْـوِهَـا وَاجِـبَـةٌ عَـلَـىٰ الْإِنْـسَـانِ مَـا دَامَ عَـقْـلُـهُ ثَـابِـتـًا فَـيُـصَـلِّـي بِـحَـسَـبِ حَـالِـهِ ، كَـمَـا ثَـبَـتَ فِي " صَـحِـيـحِ الْـبُـخَـارِيِّ " عَـنْ عِـمْـرَانَ بْـنِ حُـصَـيْـنٍ – رَضِـيَ الـلَّـهُ عَـنْـهُـمَـا – أَنَّ رَسُـولَ الـلَّـهِ – صَـلَّـىٰ الـلَّـهُ عَـلَـيْـهِ وَسَـلَّـمَ – قَـالَ : " صَـلِّ قَـائِـمـًا ، فَـإِنْ لَـمْ تَـسْـتَـطِـعْ فَـقَـاعِـداً ، فَـإِنْ لَـمْ تَـسْـتَـطِـعْ فَـعَـلَـىٰ جَـنْـبٍ " *

وَيُـسْـتَـدَلُّ بِـهَـا عَـلَـىٰ تَـخْـطِـئَـةِ مَـنْ ذَهَـبَ مِـنَ الْـمَـلاحِـدَةِ إِلَـىٰ أَنَّ الْـمُـرَادَ بِـالْـيَـقِـيـنِ الْـمُـعْـرِفَـةُ ، فَـمَـتَـىٰ وَصَـلَ أَحَـدُهُـمْ إِلَـىٰ الْـمَـعْـرِفَـةِ سَـقَـطَ عَـنْـهُ الـتَّـكْـلِـيـفُ عِـنْـدَهُـمْ !

وَهَـذَا كُـفْـرٌ وَضَـلالٌ وَجَـهْـلٌ ، فَـإِنَّ الأَنْـبِـيَـاءَ – عَـلَـيْـهِـمُ الـسَّـلامُ – كَـانُـوا هُـمْ وَأَصْـحَـابُـهُـمْ أَعْـلَـمَ الـنَّـاسِ بِـالـلَّـهِ وَأَعْـرَفَـهُـمْ بِـحُـقُـوقِـهِ وَصِـفَـاتِـهِ وَمَـا يَـسْـتَـحِـقُّ مِـنَ الـتَّـعْـظِـيـمِ ، وَكَـانُـوا مَـعَ هَـذَا أَعْـبَـدَ الـنَّـاسِ وَأَكْـثَـرَ الـنَّـاسِ عِـبَـادَةً وَمُـوَاظَـبَـةً عَـلَـىٰ فِـعْـلِ الْـخَـيْـرَاتِ إِلَـىٰ حِـيـنِ الْـوَفَـاةِ ، وَإِنَّـمَـا الْـمُـرَادُ بِـالْـيَـقِـيـنِ هَـاهُـنَـا الْـمَـوْتُ كَـمَـا قَـدَّمْـنَـاهُ ، وَلِـلَّـهِ الْـحَـمْـدُ وَالْـمِـنَّـةُ ، وَالْـحَـمْـدُ لِـلَّـهِ عَـلَـىٰ الْـهِـدَايَـةِ ، وعَـلَـيْـهِ الاسْـتِـعَـانَـةُ والـتَّـوَكُّـلُ ، وهـو الـمَـسْـؤُولُ أَنْ يَـتَـوَفَّـانَـا عَـلَـىٰ أَكْـمَـلِ الأحْـوَالِ وَأَحْـسَـنِـهَـا ، فَـإِنَّـهُ جَـوادٌ كَـريـمٌ ، وحَـسْـبُـنـا الـلَّـهُ ونِـعْـمَ الـوكـيـل . اهـ**

= والكبائرُ خَيْرٌ من الكُفْرِ والنِّفَاقِ ... إلخ . " مجموع الفتاوى " (١١/٥٣٩-٥٤١)

وانظر أيْضاً " مجموع الفتاوى " (١٠/١٦٥-١٦٧) " الفتاوى الكبرى " (٥/١٦٧-١٦٨ – العلميَّة) مُهِمٌ .

* أخرجه البُخاريُّ في " صحيحِهِ " (١١١٧) وأبو داود (٩٥٢) والتِّرمذِيُّ (٣٧٢) وابن ماجه (١٢٢٣) وأحمد (٤/٤٢٦) وغَيْرُهُم .

** انظر " تفسير القرآن العظيم " لابن كثير (٤/٥٥٣ –٥٥٤ - طيبة)

الشُّبْهةُ الثَّانيةُ التي يَسْتَدلُّ بها الصُّوفِيَّةُ والبَاطنيَّةُ عَلَىٰ سقوطِ التَّكليفِ عن الأولِياءِ وأنَّهم يَسَعُهم الخُروجُ عن شرائعِ الأنبياءِ : حَالُ الخَضِرِ مع موسَىٰ – عَلَيْهما السَّلام – ، وأنَّ الخَضِرَ – وهو ولِيٌّ من الأولِياءِ – وَسِعَهُ الخُروجُ عن شريعةِ مُوسَىٰ – عَلَيْهِ السَّلامُ – وهو رسولٌ من أولِي العَزْمِ من الرُّسُلِ ، ولم يَلْزَمِ الخَضِرَ أنْ يَتَّبِعَ مُوسَىٰ – عَلَيْهِ السَّلام – بلْ كانَ موسَىٰ تابعًا لهُ !

والجَوابُ عن هَذه الشُّبْهةِ مِنْ وَجْهَيْنِ أيْضًا :

الجوابُ الأوَّلُ : أنَّ الخَضِرَ لم يَكُنْ مِنْ أُمَّةِ مُوسَىٰ –عَلَيْهِالسَّلامُ– فلم يَكُنْ مُكَلَّفًا بشريعَتِهِ ولا مَأمُوراً باتِّبَاعِهِ ، وقد سَبَقَ مَعنا أنَّ كُلَّ نَبيٍّ قبْلَ نَبيِّنا –صلَّىاللَّهُعلَيْهِوسلَّم– كانَ يُبْعَثُ إلَىٰ قَومِهِ خاصَّةً * ، ولم يَكُنْ الخَضِرُ –عَلَيْهِالسَّلامِ– مِنْ بَنِي إسْرائيلَ قَومِ مُوسَىٰ –عَلَيْهِالسَّلام– .

وقَرَّرَ ذلكَ ابْنُ أبي العِزِّ الحَنَفِيُّ – رحِمه اللَّهُ تَعالَىٰ – فقالَ: وَأَمَّا مَنْ يَتَعَلَّقُ بِقِصَّةِ مُوسَىٰ مَعَ الْخَضِرِ - عَلَيْهِمَا السَّلَامُ - فِي تَجْوِيزِ الِاسْتِغْنَاءِ عَنِ الْوَحْيِ بِالْعِلْمِ اللَّدُنِّيِّ الَّذِي يَدَّعِيهِ بَعْضُ مَنْ عَدِمَ التَّوْفِيقَ = فَهُوَ مُلْحِدٌ زِنْدِيقٌ ، فَإِنَّ مُوسَىٰ - عَلَيْهِ السَّلَامُ – لَمْ يَكُنْ مَبْعُوثًا إِلَىٰ الْخَضِرِ وَلَمْ يَكُنِ الْخَضِرُ مَأْمُوراً بِمُتَابَعَتِهِ ، وَلِهَذَا قَالَ لَهُ : أَنْتَ مُوسَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ؟ قَالَ : نَعَمْ ** وَمُحَمَّدٌ –صَلَّىاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ– مَبْعُوثٌ إِلَىٰ جَمِيعِ الثَّقَلَيْنِ ، وَلَوْ كَانَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ حَيَّيْنِ لَكَانَا مِنْ أَتْبَاعِهِ ، وَإِذَا نَزَلَ عِيسَىٰ –عَلَيْهِالسَّلامُ– إِلَىٰ الأرْضِ إِنَّمَا يَحْكُمُ بِشَرِيعَةِ مُحَمَّدٍ –صَلَّى

---

* وَمِنْ ذلك ما رَوَاه مُسْلِمٌ في " صَحِيحِهِ " (٥٢٣) والتِّرمِذِيُّ بإثْرِ الحديث (١٥٥٣) ، وأحمد (٢/ ٤١١) وأبو يعلَى (٦٤٩١ و ٦٤٩٢) وابن حِبَّانَ (٢٣١٣ و ٦٤٠١ و ٦٤٠٣) والبَغَوِيُّ (٣٦١٧)وغَيْرُهُم عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ – رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – قَالَ : فُضِّلْتُ عَلَى الأَنْبِيَاءِ بِستٍّ : أُعْطِيتُ جَوَامِعَ الْكَلِمِ ، وَنُصِرْتُ بِالرُّعْبِ ، وَأُحِلَّتْ لِيَ الْغَنَائِمُ ، وَجُعِلَتْ لِيَ الأَرْضُ طَهُورًا وَمَسْجِدًا ، وَأُرْسِلْتُ إِلَى الْخَلْقِ كَافَّةً ، وَخُتِمَ بِيَ النَّبِيُّونَ " .

** أَخْرجَ البُخَارِيُّ (١٢٢) ومُسْلِمٌ (٢٣٨٠) وغَيْرُهُما عَن سَعِيدِ بنِ جُبَيْرٍ قال : قُلْتُ لابْنِ عَبَّاسٍ – رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُما - : إنَّ نَوفاً البِكاليَّ يَزْعُمُ أنَّ مُوسَى لَيس بِمُوسَى بني إسْرائيلَ وإنَّما هو مُوسى آخرُ ! فَقَالَ : كَذَبَ عَدُوُّ اللَّهِ حَدَّثنا أُبَيُّ بْنُ كَعْبٍ عَنِ النَّبِيّ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيهِ وسَلَّمَ – قَالَ : " قَامَ مُوسَى النَّبِيُّ خَطِيباً فِي بَنِي إِسْرَائِيلَ فَسُئِلَ : أَيُّ النَّاسِ أَعْلَمُ ؟ فَقَالَ : أَنَا أَعْلَمُ ! فَعَتَبَ اللَّهُ عَلَيْهِ إِذْ لَمْ يَرُدَّ العِلْمَ إِلَيْهِ ، فَأَوْحَى اللَّهُ إِلَيْهِ أَنَّ عَبْدًا مِنْ عِبَادِي بِمَجْمَعِ البَحْرَيْنِ هُوَ أَعْلَمُ مِنْكَ ، قَالَ : يَا رَبِّ وَكَيْفَ بِهِ ؟ فَقِيلَ لَهُ : احْمِلْ حُوتاً فِي مِكْتَلٍ فَإِذَا فَقَدْتَهُ فَهُوَ ثَمَّ . فَانْطَلَقَ بِفَتَاهُ يُوشَعَ بْنِ نُونٍ وَحَمَلا حُوتاً فِي مِكْتَلٍ ، حَتَّى كَانَا عِنْدَ الصَّخْرَةِ وَضَعَا رُؤُوسَهُمَا وَنَامَا ، فَانْسَلَّ الحُوتُ مِنَ المِكْتَلِ { فَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي البَحْرِ سَرَباً } وَكَانَ لِمُوسَى وَفَتَاهُ عَجَباً ، فَانْطَلَقَا بَقِيَّةَ لَيْلَتِهِمَا وَيَوْمَهُمَا ، فَلَمَّا أَصْبَحَ قَالَ مُوسَى لِفَتَاهُ : { آتِنَا غَدَاءَنَا لَقَدْ لَقِينَا مِنْ سَفَرِنَا هَذَا نَصَباً } وَلَمْ يَجِدْ مُوسَى مَسَّاً مِنَ النَّصَبِ حَتَّى جَاوَزَ المَكَانَ الَّذِي أُمِرَ بِهِ ، فَقَالَ لَهُ فَتَاهُ : { أَرَأَيْتَ إِذْ أَوَيْنَا إِلَى الصَّخْرَةِ فَإِنِّي نَسِيتُ الحُوتَ } قال مُوسَى : { ذلك ما كُنَّا نَبْغِ فارتَدَّا عَلَى آثَارِهِمَا قَصَصَا } فَلَمَّا انْتَهَيَا إلى الصَّخْرةِ إذا رَجُلٌ مُسَجًّىً بثَوبٍ - أو قال : تَسَجَّى بِثَوْبِهِ – فَسَلَّمَ مُوسَى ، فقال الخَضِرُ : وأنَّى بأرضِكَ السَّلامُ ؟! فقالَ : أنَا مُوسَى . فقالَ : موسَى بَنِي إسْرائِيلَ ؟ قال : نَعَم . قال : هل أَتَّبِعُك عَلَى أنْ تُعَلِّمَني مِمَّا عُلِّمتَ رشداً ؟ قال : إنَّك لَن تَسْتَطِيع مَعِيَ صَبْراً ، يا مُوسَى إنِّي عَلَى عِلْمٍ من عِلْمِ اللهِ عَلَّمَنِيهِ لا تَعْلَمُه أنْت ، وأنْت عَلَى عِلْمٍ عَلَّمَكَهُ لا أعلمَهُ . قال : سَتَجِدُني إنْ شَاءَ اللَّهُ صابراً ولا أعْصِي لكَ أمْراً فانطلقا يَمشِيان ... الحديث .

فَقَولُهُ هنا : " موسى بني إسْرائيلَ " أيْ : النَّبيُّ المَبْعُوثُ إلَى بَنِي إسْرائيلَ = واضِحٌ جِدّاً في أنَّ الخَضِرَ – عَلَيْهِ السَّلامُ – لَم يَكُنْ مِنْ بَنِي إسْرائيلَ الذي هُم قَومُ مُوسَى – عَلَيْهِ السَّلامُ – الذينَ بُعِثَ فِيهِم .

اللَّهُ عَلَيْهِ وسلَّم - ، فَمَنِ ادَّعَىٰ أَنَّهُ مَعَ مُحَمَّدٍ - صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - كَالْخَضِرِ مَعَ مُوسَىٰ أَوْ جَوَّزَ ذَلِكَ لِأَحَدٍ مِنَ الْأُمَّةِ = فَلْيُجَدِّدْ إِسْلامَهُ ، وَلْيَشْهَدْ شَهَادَةَ الْحَقِّ ، فَإِنَّهُ مُفَارِقٌ لِدِينِ الإِسْلَامِ بِالْكُلِّيَّةِ ، فَضْلاً عَنْ أَنْ يَكُونَ مِنْ أَوْلِيَاءِ اللَّهِ ، وَإِنَّمَا هُوَ مِنْ أَوْلِيَاءِ الشَّيْطَانِ . وَهَذَا الْمَوْضِعُ مُفَرِّقٌ بَيْنَ زَنَادِقَةِ الْقَوْمِ وَأَهْلِ الاسْتِقَامَةِ ، فَحَرِّكْ تَرَ . اهـ*

---

* " شرح العَقِيدَةِ الطَّحاوِيَّة " (٢/ ٧٧٤ - الرِّسالة) وانْظُر " مدارج السَّالكين " (٢/ ٤٧٦ - الكتاب العربي)

وَرَدَّ شيخُ الإسْلام ابنُ تَيْمِيَة - رحمه اللَّهُ تَعالَىٰ - عَلَىٰ هذا الزَّعْم الباطِلِ في عِدَّةِ مَواطِنَ من عِدَّةِ وجوهٍ ، ومِمَّا قالَ في ذلكَ في " مجموع الفتاوىٰ " (١٣/ ٢٦٦-٢٦٨) : الثَّاني : أنَّ الخَضِر لَمْ يَكُنْ مِن أمَّة مُوسَىٰ ، ولا كان يَجِبُ عَلَيْهِ مُتَابَعَتُهُ ، بل قال له : " إنِّي عَلَىٰ عِلْمٍ مِنْ عِلْمِ اللَّهِ عَلَّمَنِيهِ اللَّهُ لا تَعْلَمُهُ ، وأنْتَ عَلَىٰ عِلْمٍ مِنْ عِلْمِ اللَّهِ عَلَّمَكَهُ اللَّهُ لا أعْلَمُهُ " ، وذلك أنَّ دَعْوةَ مُوسَىٰ لَم تَكُنْ عَامَّةً ؛ فإنَّ النَّبِيَّ كانَ يُبْعَثُ إلىٰ قَومِهِ خَاصَّةً ، ومُحَمَّدٌ - صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وسَلَّم - بُعِثَ إلىٰ النَّاسِ كَافَّةً ، بلْ بُعِثَ إلَىٰ الإنْسِ والجِنِّ باطِنًا وظاهِراً ، فلَيْسَ لأحَدٍ أنْ يَخْرُجَ عَنْ طاعَتِهِ ومُتَابَعَتِهِ ، لا في البَاطِنِ ولا في الظَّاهِرِ ، لا مِن الخَواصِّ ولا مِن العَوامِّ .

ومِن هَؤلاءِ مَنْ يُفَضِّلُ بَعْضَ الأوْلِياءِ عَلَىٰ الأنْبِياءِ ، وقَدْ يَجْعَلُونَ الخَضِرَ من هؤلاءِ ، وهذا خِلافُ ما أجْمَعَ عليهِ مَشائِخُ الطَّرِيقِ المُقْتَدَىٰ بِهِم ، دعْ عَنْكَ سَائِرَ أئِمَّةِ الدِّينِ وعُلَمَاءِ المُسْلِمِين ، بل لَمَّا تَكَلَّم الحَكِيمُ التِّرمِذِيُّ في كِتابِ " خَتْمِ الأوْلِياءِ " بكلامٍ ذَكَرَ أنَّه يَكُونُ في آخِرِ الأوْلِياءِ مَنْ هُوَ أفْضَلُ مِن الصَّحابةِ ، ورُبَّما لَوَّحَ بشيءٍ مِنْ ذِكْرِ الأنْبِياءِ = قام عَلَيْهِ المُسْلِمونَ وأنْكَروا ذلِك عَلَيْهِ ونَفَوْهُ من البَلَدِ بِسَبَبِ ذَلِكَ ، ولا رَيْبَ أنَّهُ تَكَلَّمَ في ذلِك بِكلامٍ فَاسِدٍ باطِلٍ لا رَيْبَ فِيهِ .

ومِن هُنَاكَ ضَلَّ مَنْ اتَّبَعَهُ في ذلك ، حَتَّىٰ صَارَ جَمَاعَاتٌ يَدَّعِي كُلُّ واحِدٍ أنَّهُ خَاتَمُ الأوْلِيَاءِ ، كابنِ عَربيٍّ صاحِبِ الفُصُوصِ وسَعْدِ الدِّينِ بن حَمُّويَه وغَيْرُهُما ، وصار بَعْضُ النَّاسِ يَدَّعِي أنَّ في المُتَأخِّرِينَ مَنْ يَكُونُ أفْضَلَ في العِلْمِ باللَّهِ من أبي بكرٍ وعُمَرَ والمُهَاجِرِينَ والأنْصَارِ ، إلىٰ أمْثالِ هَذِهِ المَقَالاتِ التي يَطُولُ وَصْفُهَا مِمَّا هُو باطِلٌ بالكتابِ والسُّنَّةِ والإجْمَاعِ ، بل طَوائِفُ كثيرون آلَ الأمْرُ بِهِم إلىٰ مُشَاهَدةِ الحَقِيقَةِ الكونِيَّةِ القَدَرِيَّةِ ، وظَنُّوا أنَّ مَنْ شَهِدَهَا سَقَطَ عَنْهُ الأمْرُ والنَّهْيُ والوَعْدُ والوَعِيدُ ! وهَذا هُو دِينُ المُشْرِكِين الذين قالوا : { لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلا آبَاؤُنَا وَلا حَرَّمْنَا مِن شَيْءٍ } [الأنعام/ ١٤٨] .

وهَؤلاءِ شَرٌّ مِن القَدَرِيَّةِ المُعْتَزِلَةِ الذين يُقِرُّونَ بالأمْرِ والنَّهْيِ والوعْدِ والوعِيدِ ويُكَذِّبُونَ بالقَدَرِ ! فإنَّ أولئكَ يُشْبِهُونَ المجوسَ وهؤلاءِ يُشْبِهُونَ المُشْركينَ المُكَذِّبين بالأنْبِياءِ والشَّرائِع ، فهم من شَرِّ النَّاسِ . اهـ

وقالَ أيْضًا - رحمه اللَّهُ تعالَىٰ - في " مجموع الفتاوىٰ " (٣/ ٤٢١-٤٢٢) : ... فَمِنْ الأَمْرِ بِالْمَعْرُوفِ : الأَمْرُ بالائتلافِ وَالاجْتِمَاعِ وَالنَّهْيُ عَنْ الاخْتِلافِ وَالْفُرْقَةِ ، وَمِنْ النَّهْيِ عَنْ الْمُنْكَرِ إقَامَةُ الْحُدُودِ عَلَىٰ مَنْ خَرَجَ مِنْ شَرِيعَةِ اللَّهِ - تَعَالَىٰ - ، فَمَنْ اعْتَقَدَ فِي بَشَرٍ أَنَّهُ إلَهٌ أَوْ دَعَا مَيِّتًا أَوْ طَلَبَ مِنْهُ الرِّزْقَ وَالنَّصْرَ وَالْهِدَايَةَ وَتَوَكَّلَ عَلَيْهِ أَوْ سَجَدَ لَهُ = فَإِنَّهُ يُسْتَتَابُ ، فَإِنْ تَابَ وَإِلَّا ضُرِبَتْ عُنُقُهُ . وَمَنْ فَضَّلَ أَحَدًا مِنْ الْمَشَايِخِ عَلَىٰ النَّبِيِّ - صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - أَوْ اعْتَقَدَ أَنَّ أَحَداً يَسْتَغْنِي عَنْ طَاعَةِ رَسُولِ اللَّهِ - صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - أُسْتُتِيبَ ، فَإِنْ تَابَ وَإِلَّا ضُرِبَتْ عُنُقُهُ . وَكَذَلِكَ مَنْ اعْتَقَدَ أَنَّ أَحَدًا مِنْ أَوْلِيَاءِ اللَّهِ يَكُونُ مَعَ مُحَمَّدٍ - صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - كَمَا كَانَ الْخَضِرُ مَعَ مُوسَىٰ - عَلَيْهِ السَّلَامُ - فَإِنَّهُ يُسْتَتَابُ ، فَإِنْ تَابَ وَإِلَّا ضُرِبَتْ عُنُقُهُ ؛ لِأَنَّ الْخَضِرَ لَمْ يَكُنْ مِنْ أُمَّةِ مُوسَىٰ - عَلَيْهِ السَّلَامُ - وَلا كَانَ يَجِبُ عَلَيْهِ طَاعَتُهُ ، بَلْ قَالَ لَهُ : " إنِّي عَلَىٰ عِلْمٍ مِنْ عِلْمِ اللَّهِ عَلَّمَنِيهِ اللَّهُ لا تَعْلَمُهُ ؛ وَأَنْتَ عَلَىٰ عِلْمٍ مِنْ عِلْمِ اللَّهِ عَلَّمَكَهُ اللَّهُ لا أَعْلَمُهُ " ، وَكَانَ مَبْعُوثًا إلَىٰ بَنِي إسْرَائِيلَ كَمَا قَالَ نَبِيُّنَا - صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - : " وَكَانَ النَّبِيُّ يُبْعَثُ إلَىٰ قَوْمِهِ خَاصَّةً وَبُعِثْتُ إلَىٰ النَّاسِ عَامَّةً " . وَمُحَمَّدٌ - صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - مَبْعُوثٌ إلَىٰ جَمِيعِ الثَّقَلَيْنِ : إنْسِهِمْ وَجِنِّهِمْ ، فَمَنْ اعْتَقَدَ أَنَّهُ يَسُوغُ لِأَحَدِ الْخُرُوجُ عَنْ شَرِيعَتِهِ وَطَاعَتِهِ فَهُوَ كَافِرٌ يَجِبُ قَتْلُهُ . اهـ

والجوابُ الثَّاني : أنَّ الخَضِرَ – عَلَيه السَّلامُ – لَم يَخْرُجُ عن الشَّريعةِ أصْلاً ، بلْ فَعَلَ ما هو جائزٌ في شَريعةِ مُوسَىٰ – عَلَيْهِ السَّلام – ولذلكَ لَمَّا انْكَشَفَتْ أسْبابُهُ والحِكْمَةُ مِنْ وَرائِهِ لِمُوسَىٰ – عَلَيْهِ السَّلامُ – أقَرَّهُ ولمْ يُنْكِرْهُ ، ولو كانَ مُنْكراً وخارجاً عن شريعتِهِ لاسْتَنْكَرَهُ حَتَّىٰ بَعدَ بَيَانِهِ كما اسْتَنْكَرَهُ قَبْلَ مَعْرِفَةِ أسْبَابِهِ ودواعِيهِ .

قالَ شَيْخُ الإسْلامِ ابنُ تَيْمِيَةَ – رحِمَهُ اللَّهُ تَعالَىٰ - : وكَثيرٌ من أهْلِ النُّسُكِ والعبادةِ والنَّظَرِ مِمَّنْ سَلَكَ طَريقَ بعضِ الصُّوفِيَّةِ والفُقَراءِ ، وبَعضُ أهْلِ الكَلامِ والفَلْسَفةِ يَسْلُكُ مَسْلَكَ البَاطِنِيَّةِ في بَعْضِ الأمُورِ لا في جَمِيعِها = حَتَّىٰ يَرَىٰ بَعضُهم سُقُوطَ الصَّلاةِ عن بَعضِ الخَواصِّ أو حِلَّ الخَمْرِ وغَيْرِها مِن المُحَرَّماتِ لَهُم ، أو أنَّ لِبَعْضِهِم طَريقاً إلَىٰ اللَّهِ عَزَّ وجَلَّ – غَيْرَ مُتابَعةِ الرَّسولِ – صلَّىٰ اللَّهُ علَيْهِ وسلَّم - ، وَقدْ يَحتَجُّ بَعْضُهُم بِقِصَّةِ مُوسَىٰ وَالْخَضِرِ ، ويَظُنُّونَ أنَّ الْخَضِرَ خَرَجَ عَن الشَّريعَةِ ! وهُم في هَذَا ضَالُّونَ مِنْ وَجْهَيْنِ :

أَحَدُهُمَا : أنَّ الْخَضِرَ لَم يَخْرُجْ عَن الشَّرِيعَةِ ، بل الَّذِي فَعَلَهُ كَانَ جَائِزاً في شَرِيعَةِ مُوسَىٰ ، وَلِهَذَا لَمَّا بَيَّنَ لَهُ الأسْبَابَ أقَرَّهُ عَلَىٰ ذَلِك ، وَلَو لَم يَكُنْ جَائِزاً لَمَا أقَرَّهُ ، وَلَكِنْ لَم يَكُنْ مُوسَىٰ يَعْلَم الأسْبَابَ الَّتِي بهَا أبِيحَتْ تِلْكَ فَظَنَّ أنَّ الْخَضِر كالمَلِكِ الظَّالِم ، فَذَكَرَ ذَلِك لَهُ الْخَضَر ... إلخ*

وَقَالَ – رحمه اللَّهُ تَعالَىٰ - : قَدْ أجْمَعَ الْمُسْلِمُونَ عَلَىٰ أنَّ مُوسَىٰ أفْضَلُ من الْخَضِرِ ، فَمَنْ قَالَ : إنَّ الْخَضِرَ أفْضَلُ = فَقَد كَفَرَ ، وَسَوَاءٌ قِيلَ : إنَّ الْخَضِرَ نَبِيٌّ أو وَلِيٌّ . وَالْجُمْهُورُ علىٰ أنَّه لَيْسَ بِنَبِيٍّ** ، بَلْ أنْبِيَاءُ بَنِي إسْرَائِيلَ الَّذين اتَّبَعُوا التَّوْرَاةَ وَذَكَرَهُمْ اللَّهُ – تَعَالَىٰ – كداودَ وَسُلَيْمَانَ أفْضَلُ مِن الْخَضِرِ ، بَل عَلىٰ قَول الْجُمْهُورِ إنَّه لَيْسَ بِنَبِي = فَأبُو بَكْرٍ وَعُمَر – رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا – أفْضَلُ مِنْهُ ، وَكَونُهُ يَعْلَمُ مَسَائِل لا يَعْلَمُهَا مُوسَىٰ لا يُوجِبُ أنْ يَكُونَ أفْضَلَ مِنْهُ مُطْلَقاً ، كَمَا أنَّ الهُدْهُدَ قَالَ لِسُلَيْمَان : {أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ} [النَّمَل/٢٢] لَمْ يَكُنْ أفْضَلَ مِنْ سُلَيْمَان .

---

* " مجموع الفتاوى " (٢٦٦/١٣)

** اخْتُلِفَ في نُبُوَّةِ الخضِرِ – عَلَيه السَّلام – علَى أقوالٍ ، وقد ذهَبَ إلَى القَولِ بأنَّهُ نَبيٌّ كثيرٌ من أهلِ العِلْمِ ، ونَسَبَهُ بعضُهم إلَى الجُمهورِ على خلافِ ما ذكَرَهُ شيْخُ الإسْلامِ – رحمه اللَّهُ - هنا :

قالَ القُرْطُبيُّ – رحمه اللهُ - : والْخَضِرُ نَبِيٌّ عِنْدَ الْجُمْهُور ، وقِيلَ : هو عَبْدٌ صالحٌ غَيْرُ نَبيّ ، والآيةُ تَشْهَدُ بنُبُوَّتِهِ لأنَّ بَواطِنَ أفْعالِهِ هَلْ كانَتْ إلَّا بِوَحْيٍ ... إلخ " الجامع لأحكام القرآن " (٣٢٥/١٣- الرِّسالة) " المُحَرَّر الوَجِيز " لابْنِ عَطِيَّة (٣/ ٥٢٩)

وذكَرَ الآلُوسِيُّ – رَحِمه اللَّهُ تَعالَى – فِي تَفْسِير قَولِهِ – تَعالَى - : " رَحْمَةً من عِندنَا " ثَلاثَةَ أقْوالٍ ، وأَشَارَ إلَى تَضْعِيفِهَا كُلِّهَا ثُمَّ قَالَ : وَالْجُمْهُورُ عَلَى أنَّهَا الْوَحْيُ والنُّبُوَّةُ ، وَقَدْ أطْلِقَتْ عَلَى ذَلِك فِي مَوَاضِعَ مِن الْقُرْآنِ ... والمَنْصُورُ مَا عَلَيْهِ الْجُمْهُور وشَوَاهِدُهُ مِن الْآيَاتِ وَالْأخْبَارِ كَثِيرَةٌ بمجْمُوعِها يَكَادُ يَحْصُلُ الْيَقِينُ . اهـ " روح المعاني " (٣٠٢/٨)

والذي يَظْهَرُ لي في هذه المَسْألةِ أنَّ الخَضِرَ عَلَيْهِ السَّلام – كانَ نَبِيَّاً ، وأنَّ ما فَعَلَهُ كانَ بِوحْيٍ من اللَّهِ – تَعالَى – وظواهرُ النُّصوصِ من القُرْآنِ والسُّنَّةِ تَدُلُّ عَلَى هذا القَولِ ، وفي هذه المسألةِ نِقاشٌ طَويلٌ لا أرى فائدةً لذِكْرِهِ هُنا ، وفي الجُملَةِ قالَ الشِّنْقِيطي – رحمه اللَّهُ - : وَالْعُلَمَاءُ مُخْتَلِفُونَ فِي الْخَضِرِ : هَلْ هُوَ نَبيٌّ أَوْ رَسُولٌ أوْ وَلِيٌّ ، كَمَا قَالَ الرَّاجِزُ :

وكما أَنَّ الَّذين كَانُوا يُلَقِّحُونَ النَّخْلَ لَمَّا كَانُوا أعْلَمَ بِتَلْقِيحِهِ مِن النَّبِيِّ = لَم يَجِبْ مِنْ ذَلِكَ أَنْ يَكُونُوا أفْضلَ مِنْهُ ، وَقَدْ قَالَ لَهُم : " **وَأَنْتُم أعْلَمُ بِأَمْرِ دُنْيَاكُم ، وَأَمَّا مَا كَانَ مِنْ أَمْرِ دِينِكُمْ فَإِلَيَّ** " *

وَأَبُو بَكْرٍ وَعُمَرُ وَعُثْمَانُ وَعَلِيٌّ – رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُم – كَانُوا يَتَعَلَّمُونَ مِمَّنْ هُم دونَهُم عِلْمَ الدِّينِ الَّذِي هُوَ عِنْدَهُم .

وَقَدْ قَالَ النَّبيُّ – صَلَّىٰ اللَّهُ عليْهِ وسَلَّم – : " **لَمْ يَبْقَ بَعْدِي مِن النُّبُوَّةِ إلَّا الرُّؤْيَا الصَّالِحَة** " ** وَمَعْلُومٌ أَنَّ ذُرِّيَّتَهُمْ في الْعِلْمِ أفْضَلُ مِمَّنْ حَصَلَتْ لَهُ الرُّؤْيَا الصَّالِحَةُ .

وَغَايَةُ الْخَضِرِ أَنْ يَكُونَ عِنْدَهُ من الْكَشْفِ مَا هُوَ جُزْءٌ من أَجْزَاءِ النُّبُوَّةِ ، فَكَيْفَ يكونُ أفْضَلَ مِنْ نَبِيٍّ ؟ فَكيفَ بالرَّسُولِ ؟ فَكيفَ بِأولي الْعَزْمِ ؟!***

وَقَالَ – رحمه اللَّهُ – : وَمَنْ قَالَ : إِنَّه نَقِيبُ الْأَوْلِيَاءِ ، أَو إِنَّهُ يُعَلِّمُهُمْ كُلَّهُم = فَقَدْ قَالَ الْبَاطِل .

وَقَالَ – رَحِمَهُ اللَّهُ – في مَوضِعٍ آخَرَ : ... وقَولُ الْقَائِل : إِنَّه – أيْ : الخَضِرَ – نَقِيبُ الْأَوْلِيَاءِ ! فَيُقَالُ لَهُ : مَنْ ولَّاهُ النِّقَابَةَ ؟ وَأفْضَلُ الْأَوْلِيَاءِ أَصْحَابُ مُحَمَّدٍ – صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وسلَّم – وَلَيْسَ فيهم الْخَضِرُ ... إلخ ****

وَقَالَ بَعْدَ ذِكْرِ كَلَامِ الصُّوفِيَّةِ في تَفْضِيلِ الْولايَةِ عَلَىٰ النُّبُوَّة : وكُلُّ هَذِهِ المَقَالاتِ في أعْظَمِ الجهالات والضَّلالاتِ ، بل مِنْ أعْظَمِ أَنْوَاعِ النِّفَاقِ والإلحادِ وَالْكفْر . اهـ*****

وَاخْتَلَفَتْ فِي خَضِرٍ أَهْلُ الْعُقُولِ *** قِيلَ نَبِيٌّ أَوْ وَلِيٌّ أَوْ رَسُولُ

وَقِيلَ مَلِكٌ ، وَلَكِنَّهُ يُفْهَمُ مِنْ بَعْضِ الْآيَاتِ أَنَّ هَذِهِ الرَّحْمَةَ الْمَذْكُورَةَ هُنَا رَحْمَةُ نُبُوَّةٍ ، وَأَنَّ هَذَا الْعِلْمَ اللَّدُنِّيَّ عِلْمُ وَحْيٍ ، مَعَ الْعِلْمِ بِأَنَّ فِي الاسْتِدْلَالِ بِهَا عَلَى ذَلِكَ مُنَاقَشَاتٍ مَعْرُوفَةً عِنْدَ الْعُلَمَاءِ . اهـ " أضْواء البَيان " (٣/٣٢٢)

وقالَ البَغويُّ – رَحِمَهُ اللَّهُ تَعالَى – : ... وَلَمْ يَكُنِ الْخَضِرُ نَبِيًّا عِنْدَ أَكْثَرِ أَهْلِ الْعِلْمِ . اهـ " مدارك التَّنزيل " (٥/ ١٨٨)

وقَدْ كانَ ابْنُ المُنادِي الحَنْبَلِيُّ – رَحِمَهُ اللَّهُ تَعالَى – : يَقُولُ : أَوَّلُ عُقْدَةٍ من عُقَدِ الزَّنْدقَةِ تُحَلُّ اعْتِقَادُ كَوْنِ الخَضِرِ نَبِيّاً ! وذلك لأنَّ الزَّنَادِقَةَ يَتَذَرَّعُونَ بِكَونِهِ غَيْرَ نَبِيٍ إلَى أَنَّ الوَلِيَّ أَفْضَلُ مِن النَّبِيِّ كما قال قائِلُهُم – وسَبَقَ – :

مَقَامُ النُّبُوَّةِ في بَـــرْزَخٍ *** فُوَيْقَ الرَّسُولِ ودُونَ الوَلِيِّ !

* أخرجه مسلم في " صحيحه " (٢٣٦٣) وابنُ ماجه في " سننه " (٢٤٧١) وأحمد (٦/١٢٣) وغَيْرُهُم عن عائشةَ وأنسٍ – رضِيَ اللَّهُ عنهما – جميعاً .

** أخرجه أبو داود (٥٠١٧) وأحمدُ (٢/ ٣٢٥)وابن حِبَّان (٦٠٤٨) والحاكم (٤/٣٩٠-٣٩١) وغَيْرُهُم من طريقِ مالِكِ بنِ صَعصعةَ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ – رَضِيَ اللَّهُ عنه - أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – كَانَ إِذَا انْصَرَفَ مِنْ صَلَاةِ الْغَدَاةِ يَقُولُ : " هَلْ رَأَى أَحَدٌ مِنْكُمُ اللَّيْلَةَ رُؤْيَا ، إِنَّهُ لَيْسَ يَبْقَى بَعْدِي مِنَ النُّبُوَّةِ إِلَّا الرُّؤْيَا الصَّالِحَةُ "

وأخرجه بِنحوِهِ البخاريُّ في " صحيحه " (٦٩٩٠) من طريق أُخْرَى عن أبي هريرةَ قال : سَمِعْتُ رسُولَ اللَّهِ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وسَلَّم – يَقُولُ : " لَم يَبْقَ مِن النُّبُوَّةِ إلَّا المُبَشِّراتِ " قالوا : وما المُبَشِّراتِ ؟ قال : " الرُّؤيا الصَّالِحةُ "

*** " مختصر الفتاوى المصرية " لشيخ الإسلام ابن تيميَة (٥٦٠-٥٦١)

**** " مجموع الفتاوى " (٢٧/١٠٠-١٠١) وانظر منه (١٠/١٦٥-١٦٧و١١/٥٣٩-٥٤١) " الفتاوَى الكبرى " (٥/ ١٦٧-١٦٨) .

***** قالَ – رَحِمَهُ اللَّهُ تَعالَى - : ... فَإِنَّ مِنْ هَؤُلَاءِ مَنْ يَظُنُّ أَنَّ مِنْ الْأَوْلِيَاءِ مَنْ يَسُوغُ لَهُ الْخُرُوجُ عَنْ الشَّرِيعَةِ النَّبَوِيَّةِ كَمَا سَاغَ لِلْخَضِرِ الْخُرُوجُ عَنْ مُتَابَعَةِ مُوسَى ، وَأَنَّهُ قَدْ يَكُونُ لِلْوَلِيِّ فِي الْمُكَاشَفَةِ وَالْمُخَاطَبَةِ مَا يَسْتَغْنِي بِهِ عَنْ مُتَابَعَةِ الرَّسُولِ فِي عُمُومِ أَحْوَالِهِ أَوْ بَعْضِهَا ، وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ يُفَضِّلُ الْوَلِيَّ فِي زَعْمِهِ إمَّا مُطْلَقاً وَإِمَّا مِنْ بَعْضِ الْوُجُوهِ عَلَى النَّبِيِّ زَاعِمِينَ أَنَّ فِي قِصَّةِ الْخَضِرِ حُجَّةٌ لَهُمْ ! وَكُلُّ هَذِهِ الْمَقَالَاتِ مِنْ أَعْظَمِ الْجَهَالَاتِ وَالضَّلَالَاتِ بَلْ مِنْ أَعْظَمِ أَنْوَاعِ النِّفَاقِ وَالْإِلْحَادِ وَالْكُفْرِ =

= فَإِنَّهُ قَدْ عُلِمَ بِالِاضْطِرَارِ مِنْ دِينِ الْإِسْلَامِ : أَنَّ رِسَالَةَ مُحَمَّدِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – لِجَمِيعِ النَّاسِ : عَرَبِهِمْ وَعَجَمِهِمْ وَمُلُوكِهِمْ وَزُهَّادِهِمْ وَعُلَمَائِهِمْ وَعَامَّتِهِمْ ، وَأَنَّهَا بَاقِيَةٌ دَائِمَةٌ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ ؛ بَلْ عَامَّةِ الثَّقَلَيْنِ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ وَأَنَّهُ لَيْسَ لِأَحَدٍ مِنْ الْخَلَائِقِ الْخُرُوجُ عَنْ مُتَابَعَتِهِ وَطَاعَتِهِ وَمُلَازَمَةِ مَا يَشْرَعُهُ لِأُمَّتِهِ مِنْ الدِّينِ وَمَا سَنَّهُ لَهُمْ مِنْ فِعْلِ الْمَأْمُورَاتِ وَتَرْكِ الْمَحْظُورَاتِ ، بَلْ لَوْ كَانَ الْأَنْبِيَاءُ الْمُتَقَدِّمُونَ قَبْلَهُ أَحْيَاءً لَوَجَبَ عَلَيْهِمْ مُتَابَعَتُهُ وَمُطَاوَعَتُهُ ، وَقَالَ اللَّهُ – تَعَالَى - : { وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُمْ مِنْ كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنْصُرُنَّهُ قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَى ذَلِكُمْ إِصْرِي قَالُوا أَقْرَرْنَا قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ} [آل عمران/٨١] قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ : مَا بَعَثَ اللَّهُ نَبِيّاً إِلَّا أَخَذَ عَلَيْهِ الْمِيثَاقَ لَئِنْ بُعِثَ مُحَمَّدٌ وَهُوَ حَيٌّ لَيُؤْمِنَن بِهِ وَلَيَنْصُرَنَّهُ ، وَأَمَرَهُ بِأَخْذِ الْمِيثَاقِ عَلَى أُمَّتِهِ لَئِنْ بُعِثَ مُحَمَّدٌ وَهُوَ حَيٌّ لَيُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَيَنْصُرُنَّهُ . وَفِي " سُنَنِ النَّسَائِيِّ " عَنْ جَابِرٍ : أَنَّ النَّبِيَّ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - رَأَى بِيَدِ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ وَرَقَةً مِنْ التَّوْرَاةِ فَقَالَ : " أَمُتَهَوِّكُونَ يَا ابْنَ الْخَطَّابِ ؟ لَقَدْ جِئْتُكُمْ بِهَا بَيْضَاءَ نَقِيَّةً لَوْ كَانَ مُوسَى حَيّاً مَا وَسِعَهُ إِلَّا اتِّبَاعِي " – هَذَا أَوْ نَحْوُهُ - وَرَوَاهُ أَحْمَدُ فِي الْمُسْنَدِ (٣٨٧/٣) وَلَفْظُهُ : " وَلَوْ كَانَ مُوسَى حَيّاً ثُمَّ اتَّبَعْتُمُوهُ وَتَرَكْتُمُونِي لَضَلَلْتُمْ " وَفِي مَرَاسِيلِ أَبِي دَاوُد (٤٤٨) قَالَ : " كَفَى بِقَوْمٍ ضَلَالَةً أَنْ يَبْتَغُوا كِتَاباً غَيْرَ كِتَابِهِم أُنْزِلَ عَلَى نَبِيٍّ غَيْرِ نَبِيِّهِمْ " فَأَنْزَلَ اللَّهُ – تَعَالَى - : { أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَى عَلَيْهِمْ ... } الْآيَةَ [العنكبوت/٥١] . بَلْ قَدْ ثَبَتَ بِالْأَحَادِيثِ الصَّحِيحَةِ أَنَّ الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ إِذَا نَزَلَ مِنْ السَّمَاءِ فَإِنَّهُ يَكُونُ مُتَّبِعاً لِشَرِيعَةِ مُحَمَّدِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - ، فَإِذَا كَانَ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – يَجِبُ اتِّبَاعُهُ وَنَصْرُهُ عَلَى مَنْ يُدْرِكُهُ مِنْ الْأَنْبِيَاءِ فَكَيْفَ بِمَنْ دُونَهُمْ ؟ بَلْ مِمَّا يُعْلَمُ بِالِاضْطِرَارِ مِنْ دِينِ الْإِسْلَامِ أَنَّهُ لَا يَجُوزُ لِمَنْ بَلَغَتْهُ دَعْوَتُهُ أَنْ يَتَّبِعَ شَرِيعَةَ رَسُولٍ غَيْرِهِ كَمُوسَى وَعِيسَى ، فَإِذَا لَمْ يَجُزْ الْخُرُوجُ عَنْ شَرِيعَتِهِ إِلَى شَرِيعَةِ رَسُولٍ فَكَيْفَ بِالْخُرُوجِ عَنْهُ وَالرُّسُلِ ؟! كَمَا قَالَ – تَعَالَى - : { قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَى وَعِيسَى وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ {١٣٦} فَإِنْ آمَنُوا بِمِثْلِ مَا آمَنْتُمْ بِهِ فَقَدِ اهْتَدَوْا وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا هُمْ فِي شِقَاقٍ فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللَّهُ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ } [البَقَرة/١٣٦-١٣٧] وَقَالَ – تَعَالَى - : { آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ } [البقرة/٢٨٥]

وَلِهَذَا لَمَّا كَانَ قَدْ دَخَلَ فِيمَا يَنْقُلُهُ أَهْلُ الْكِتَابِ عَنْ الْأَنْبِيَاءِ تَحْرِيفٌ وَتَبْدِيلٌ كَانَ مَا عَلِمْنَا أَنَّهُ صِدْقٌ عَنْهُمْ آمَنَّا بِهِ ، وَمَا عَلِمْنَا أَنَّهُ كَذِبٌ رَدَدْنَاهُ ، وَمَا لَمْ نَعْلَمْ حَالَهُ لَمْ نُصَدِّقْهُ وَلَمْ نُكَذِّبْهُ ، كَمَا رَوَى الْبُخَارِيُّ فِي " صَحِيحِهِ " (٤٤٨٥) عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ عَنْ النَّبِيِّ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – قَالَ : { إِذَا حَدَّثَكُمْ أَهْلُ الْكِتَابِ فَلَا تُصَدِّقُوهُمْ وَلَا تُكَذِّبُوهُمْ ، فَإِمَّا أَنْ يُحَدِّثُوكُمْ بِبَاطِلٍ فَتُصَدِّقُوهُمْ ، وَإِمَّا أَنْ يُحَدِّثُوكُمْ بِحَقٍّ فَتُكَذِّبُوهُمْ ، وَقُولُوا : آمَنَّا بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ " .

وَمِمَّا يُبَيِّنُ الْغَلَطَ الَّذِي وَقَعَ لَهُمْ فِي الِاحْتِجَاجِ بِقِصَّةِ مُوسَى وَالْخَضِرِ عَلَى مُخَالَفَةِ الشَّرِيعَةِ : أَنَّ مُوسَى - عَلَيْهِ السَّلَامُ – لَمْ يَكُنْ مَبْعُوثاً إِلَى الْخَضِرِ ، وَلَا أَوْجَبَ اللَّهُ عَلَى الْخَضِرِ مُتَابَعَتَهُ وَطَاعَتَهُ ؛ بَلْ قَدْ ثَبَتَ فِي الصَّحِيحَيْنِ [خ (١٢٢) م (٢٣٨٠)] : " أَنَّ الْخَضِرَ قَالَ لَهُ : يَا مُوسَى إِنِّي عَلَى عِلْمٍ مِنْ عِلْمِ اللَّهِ عَلَّمَنِيهِ اللَّهُ لَا تَعْلَمُهُ ، وَأَنْتَ عَلَى عِلْمٍ مِنْ عِلْمِ اللَّهِ عَلَّمَكَهُ اللَّهُ لَا أَعْلَمُهُ ... " وَذَلِكَ أَنَّ دَعْوَةَ مُوسَى كَانَتْ خَاصَّةً ، وَقَدْ ثَبَتَ فِي الصِّحَاحِ مِنْ غَيْرِ وَجْهٍ عَنْ النَّبِيِّ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – أَنَّهُ قَالَ فِيمَا فَضَّلَهُ اللَّهُ بِهِ عَلَى الْأَنْبِيَاءِ = قَالَ : " كَانَ النَّبِيُّ يُبْعَثُ إِلَى قَوْمِهِ خَاصَّةً وَبُعِثْتُ إِلَى النَّاسِ عَامَّةً " ، فَدَعْوَةُ مُحَمَّدٍ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – شَامِلَةٌ لِجَمِيعِ الْعِبَادِ ، لَيْسَ لِأَحَدٍ الْخُرُوجُ عَنْ مُتَابَعَتِهِ وَطَاعَتِهِ ، وَلَا اسْتِغْنَاءَ عَنْ رِسَالَتِهِ كَمَا سَاغَ لِلْخَضِرِ الْخُرُوجُ عَنْ مُتَابَعَةِ مُوسَى وَطَاعَتِهِ مُسْتَغْنِياً عَنْهُ بِمَا عَلَّمَهُ اللَّهُ ، وَلَيْسَ لِأَحَدٍ مِمَّنْ أَدْرَكَهُ الْإِسْلَامُ أَنْ يَقُولَ لِمُحَمَّدٍ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وسَلَّم - : إِنِّي عَلَى عِلْمٍ مِنْ عِلْمِ اللَّهِ عَلَّمَنِيهِ اللَّهُ لَا تَعْلَمُهُ !

وَمَنْ سَوَّغَ هَذَا أَوْ اعْتَقَدَ أَنَّ أَحَدًا مِنْ الْخَلْقِ الزُّهَّادِ وَالْعُبَّادِ أَوْ غَيْرِهِمْ لَهُ الْخُرُوجُ عَنْ دَعْوَةِ مُحَمَّدٍ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – وَمُتَابَعَتِهِ فَهُوَ كَافِرٌ بِاتِّفَاقِ الْمُسْلِمِينَ ، وَدَلَائِلُ هَذَا مِنْ الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ أَكْثَرُ مِنْ أَنْ تُذْكَرَ هُنَا .

وَقِصَّةُ الْخَضِرِ لَيْسَ فِيهَا خُرُوجٌ عَنْ الشَّرِيعَةِ ؛ وَلِهَذَا لَمَّا بَيَّنَ الْخَضِرُ لِمُوسَى الْأَسْبَابَ الَّتِي فَعَلَ لِأَجْلِهَا مَا فَعَلَ وَافَقَهُ مُوسَى وَلَمْ يَخْتَلِفَا حِينَئِذٍ ، وَلَوْ كَانَ مَا فَعَلَهُ الْخَضِرُ مُخَالِفاً لِشَرِيعَةِ مُوسَى لَمَا وَافَقَهُ .

وَمِثْلُ هَذَا وَأَمْثَالُهُ يَقَعُ لِلْمُؤْمِنِينَ بِأَنْ يَخْتَصَّ أَحَدُ الشَّخْصَيْنِ بِالْعِلْمِ بِسَبَبٍ يُبِيحُ لَهُ الْفِعْلَ فِي الشَّرِيعَةِ وَالْآخِرُ لَا يَعْلَمُ ذَلِكَ السَّبَبَ وَإِنْ كَانَ قَدْ يَكُونُ أَفْضَلَ مِنْ الْأَوَّلِ .

مِثْلُ شَخْصَيْنِ : دَخَلَا إِلَى بَيْتِ شَخْصٍ وَكَانَ أَحَدُهُمَا يَعْلَمُ طِيبَ نَفْسِهِ بِالتَّصَرُّفِ فِي مَنْزِلِهِ إِمَّا بِإِذْنٍ لَفْظِيٍّ أَوْ غَيْرِهِ فَيَتَصَرَّفُ وَذَلِكَ مُبَاحٌ فِي الشَّرِيعَةِ وَالْآخَرُ الَّذِي لَمْ يَعْلَمْ هَذَا السَّبَبَ لَا يَتَصَرَّفُ وَخَرْقُ السَّفِينَةِ كَانَ مِنْ هَذَا الْبَابِ فَإِنَّ الْخَضِرَ كَانَ =

= يَعْلَمُ أَنَّ أَمَامَهُمْ مَلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْباً وَكَانَ مِنْ الْمَصْلَحَةِ الَّتِي يَخْتَارُهَا أَصْحَابُ السَّفِينَةِ إذَا عَلِمُوا ذَلِكَ لِئَلَّا يَأْخُذَهَا . . . (١) خَيْرٌ مِنْ انْتِزَاعِهَا مِنْهُمْ .

وَنَظِيرُ هَذَا حَدِيثُ الشَّاةِ الَّتِي أَصَابَهَا الْمَوْتُ فَذَبَحَتْهَا امْرَأَةٌ بِدُونِ إذْنِ أَهْلِهَا ، فَسَأَلُوا النَّبِيَّ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – عَنْهَا فَأَذِنَ لَهُمْ فِي أَكْلِهَا ، وَلَمْ يُلْزِمْ الَّتِي ذَبَحَتْ بِضَمَانِ مَا نَقَصَتْ بِالذَّبْحِ(٢) لِأَنَّهُ كَانَ مَأْذُوناً فِيهِ عُرْفاً ، وَالْإِذْنُ الْعُرْفِيُّ كَالْإِذْنِ اللَّفْظِيِّ ؛ وَلِهَذَا بَايَعَ النَّبِيُّ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – عَنْ عُثْمَانَ فِي غَيْبَتِهِ بِدُونِ اسْتِئْذَانِهِ لَفْظاً (٣) وَلِهَذَا لَمَّا دَعَاهُ أَبُوطَلْحَةَ وَنَفَراً قَلِيلاً إلَى بَيْتِهِ قَامَ بِجَمِيعِ أَهْلِ الْمَسْجِدِ لِمَا عَلِمَ مِنْ طِيبِ نَفْسِ أَبِي طَلْحَةَ (٤) وَذَلِكَ لِمَا يَجْعَلُهُ اللَّهُ مِنْ الْبَرَكَةِ ، وَكَذَلِكَ حَدِيثُ جَابِرٍ (٥) . وَقَدْ ثَبَتَ أَنَّ لَحَّاماً دَعَاهُ فَاسْتَأْذَنَهُ فِي شَخْصٍ يَسْتَتْبِعُهُ (٦) ؛ لِأَنَّهُ لَمْ يَكُنْ يَعْلَمُ مِنْ طِيبِ نَفْسِ اللَّحَّامِ مَا عَلِمَهُ مِنْ طِيبِ نَفْسِ أَبِي طَلْحَةَ وَجَابِرٍ وَغَيْرِهِمَا .

وَكَذَلِكَ قَتْلُ الْغُلَامِ كَانَ مِنْ بَابِ دَفْعِ الصَّائِلِ عَلَى أَبَوَيْهِ لِعِلْمِهِ بِأَنَّهُ كَانَ يَفْتِنُهُمَا عَنْ دِينِهِمَا ، وَقَتْلُ الصِّبْيَانِ يَجُوزُ إذَا قَاتَلُوا الْمُسْلِمِينَ ، بَلْ يَجُوزُ قَتْلُهُمْ لِدَفْعِ الصَّوْلِ عَلَى الْأَمْوَالِ ؛ فَلِهَذَا ثَبَتَ فِي " صَحِيحِ الْبُخَارِيِّ " (٧) أَنَّ نَجْدَةَ الحروريَّ لَمَّا سَأَلَ ابْنَ عَبَّاسٍ عَنْ قَتْلِ الْغِلْمَانِ قَالَ : إنْ كُنْت تَعْلَمُ مِنْهُمْ مَا عَلِمَهُ الْخَضِرُ مِنْ الْغُلَامِ فَاقْتُلْهُمْ وَإِلَّا فَلَا تَقْتُلْهُمْ .

وَكَذَلِكَ فِي " الصَّحِيحَيْنِ " (٨) : أَنَّ عُمَرَ لَمَّا اسْتَأْذَنَ النَّبِيَّ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – فِي قَتْلِ ابْنِ صَيَّادٍ – وَكَانَ مُرَاهِقاً – لَمَّا ظَنَّهُ الدَّجَّالَ ، فَقَالَ : إنْ يَكُنْهُ فَلَنْ تُسَلَّطَ عَلَيْهِ ، وَإِنْ لَمْ يَكُنْهُ فَلَا خَيْرَ لَك فِي قَتْلِهِ " . فَلَمْ يَقُلْ : إنْ يَكُنْهُ فَلَا خَيْرَ لَك فِي قَتْلِهِ ، بَلْ قَالَ : " فَلَنْ تُسَلَّطَ عَلَيْهِ " (٨) ، وَذَلِكَ يَدُلُّ عَلَى أَنَّهُ لَوْ أَمْكَنَ إعْدَامُهُ قَبْلَ بُلُوغِهِ لِقَطْعِ فَسَادِهِ لَمْ يَكُنْ ذَلِكَ مَحْذُوراً وَإِلَّا كَانَ التَّعْلِيلُ بِالصِّغَرِ كَافِياً ، فَإِنَّ الْأَعَمَّ إذَا كَانَ مُسْتَقِلاً بِالْحُكْمِ كَانَ الْأَخَصُّ عَدِيمَ التَّأْثِيرِ كَمَا قَالَ فِي الْهِرَّةِ : " إنَّهَا لَيْسَتْ بِنَجِسٍ ، إنَّهَا مِنْ الطَّوَّافِينَ عَلَيْكُمْ وَالطَّوَّافَاتِ " (٩) .

وَأَمَّا بِنَاءُ الْجِدَارِ فَإِنَّمَا فِيهِ تَرْكُ أَخْذِ الْجُعْلِ مَعَ جُوعِهِمْ ، وَقَدْ بَيَّنَ الْخَضِرُ أَنَّ أَهْلَهُ فِيهِمْ مِنْ الشِّيَمِ وَصَلَاحِ الْوَالِدِ مَا يَسْتَحِقُّونَ بِهِ التَّبَرُّعَ وَإِنْ كَانَ جَائِعاً .

وَمِنْ ذَلِكَ أَنَّ مِنْ أَسْبَابِ الْوُجُوبِ وَالتَّحْرِيمِ وَالْإِبَاحَةِ مَا قَدْ يَكُونُ ظَاهِراً فَيَشْتَرِكُ فِيهَا النَّاسُ ، وَمِنْهُ مَا يَكُونُ خَفِيّاً عَنْ بَعْضِهِمْ ظَاهِراً لِبَعْضِهِمْ عَلَى الْوَجْهِ الْمُعْتَادِ ، وَمِنْهُ مَا يَكُونُ خَفِيّاً يُعْرَفُ بِطَرِيقِ الْكَشْفِ ، وَقِصَّةُ الْخَضِرِ مِنْ هَذَا الْبَابِ ، وَذَلِكَ يَقَعُ كَثِيراً فِي أُمَّتِنَا ، مِثْلُ أَنْ يُقَدَّمَ لِبَعْضِهِمْ طَعَامٌ فَيُكْشَفُ لَهُ أَنَّهُ مَغْصُوبٌ فَيَحْرُمُ عَلَيْهِ أَكْلُهُ وَإِنْ لَمْ يَحْرُمْ ذَلِكَ عَلَى مَنْ لَمْ يَعْلَمْ ذَلِكَ ، أَوْ يَظْفَرَ بِمَالٍ يَعْلَمُ أَنَّ صَاحِبَهُ أَذِنَ لَهُ فِيهِ فَيَحِلُّ لَهُ أَكْلُهُ فَإِنَّهُ لَا يَحِلُّ ذَلِكَ لِمَنْ لَمْ يَعْلَمْ الْإِذْنَ ، وَأَمْثَالُ ذَلِكَ . فَمِثْلُ هَذَا إذَا كَانَ الشَّيْخُ مِنْ الْمَعْرُوفِينَ بِالصِّدْقِ وَالْإِخْلَاصِ كَانَ مِثْلُ هَذَا مِنْ مَوَاقِعِ الِاجْتِهَادِ الَّذِي يُصِيبُ فِيهِ تَارَةً وَيُخْطِئُ أُخْرَى ، فَإِنَّ الْمُكَاشَفَاتِ يَقَعُ فِيهَا مِنْ الصَّوَابِ وَالْخَطَأِ نَظِيرُ مَا يَقَعُ فِي الرُّؤْيَا وَتَأْوِيلِهَا وَالرَّأْيِ وَالرِّوَايَةِ ، وَلَيْسَ شَيْءٌ مَعْصُوماً عَلَى الْإِطْلَاقِ إلَّا مَا ثَبَتَ عَنْ الرَّسُولِ ؛ وَلِهَذَا يَجِبُ رَدُّ جَمِيعِ الْأُمُورِ إلَى مَا بُعِثَ بِهِ ، وَلِهَذَا كَانَ الصِّدِّيقُ الْمُتَلَقِّي عَنْ الرَّسُولِ كُلَّ شَيْءٍ مِثْلُ أَبِي بَكْرٍ أَفْضَلُ مِنْ الْمُحَدَّثِ مِثْلِ عُمَرَ ....

---

(١) بياضٌ في الأصل .

(٢) أخرج البخاريُّ (٥٥٠٢) وابن ماجه (٣١٨٢) وغيْرُهما عَنْ نَافِعٍ عَن رجُلٍ من بني سَلِمَةَ أَخْبَرَ عَبْدَ اللَّهِ بنَ عُمَرَ – رَضِيَ اللَّهُ عنهما - أَنَّ جَاريةً لِكَعْبِ بنِ مَالِكٍ – رَضِيَ اللَّهُ عنه – تَرْعَى غَنماً لَهُ بالجُبَيْلِ الذي بالسُّوقِ – وهو بِسَلْعٍ – فأُصِيبَتْ شاةٌ ، فكسَرَت المرأةُ حَجَراً فَذَبَحَتْها بهِ ، فَذَكَرُوا ذَلِكَ لِلنَّبِيِّ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وسَلَّم – فأمرهم بأكلِها .
وفي لفظٍ : فَلَمْ يَرَ بِهِ بَأْساً .

(٣) أخرجه البخاريُّ (٣١٣٠و٣٦٩٨و٤٠٦٦) والتِّرمِذِيُّ (٣٧٠٦) وأحمد (١٠١/٢و١٢٠) وغيرُهم عن عَبْدِ اللَّهِ بن عمر – رضي الله عنهما - .

(٤) أخرجه البخاريُّ (٤٢٢) ومسلم (٢٠٤٠) عن أنس بنِ مالكٍ – رضِيَ اللَّهُ عنه - .

(٥) أخرجه البُخاريُّ (٤١٠٢) ومسلم (٢٠٣٩) عن جابر بن عَبْدِ اللَّهِ – رَضِيَ اللَّهُ عَنهُما - .

(٦) أخرجه البخاريُّ (٥٤٦١) والدَّارميُّ (٢١١٢) وغَيْرُهُما عن أبي مَسْعُودٍ الأَنْصاريِّ – رضِيَ اللَّهُ عَنه - .

(٧) أخرجه أبو داود (٢٧٢٨) وأحمدُ (١/ ٣٥٢) وأبو يَعْلَى (٢٥٥٠) وغيْرُهُم عن يَزِيدَ بنِ هُرْمُزَ – رحمه اللَّهُ - .

(٨) أخرجه البخاري (١٣٥٤) ومسلم (٢٩٣٠) وغيْرُهما عن عبدِ اللَّهِ بنِ عُمَرَ – رَضِيَ اللَّهُ عنهما - .

(٩) أخرجه أبو داود (٧٥) والتِّرمذي (٩٢) والنَّسائيُّ (٦٨) وابنُ ماجه (٣٦٧) وأحمد (٣٠٣/٥و٣٠٩) وغيرُهُم عن أبي قتادة الأنصاريِّ – رضِيَ اللَّهُ عنه - .

= وَكَانَ الصِّدِّيقُ يُبَيِّنُ لِلْمُحَدَّثِ الْمَوَاضِعَ الَّتِي اشْتَبَهَتْ عَلَيْهِ حَتَّى يَرُدَّهُ إلَى الصَّوَابِ ، كَمَا فَعَلَ أَبُو بَكْرٍ بِعُمَرَ يَوْمَ الْحُدَيْبِيَةِ وَيَوْمَ مَوْتِ النَّبِيِّ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – وَفِي قِتَالِ مَانِعِي الزَّكَاةِ وَغَيْرِ ذَلِكَ .

وَهَذَا الْبَابُ قَدْ بَسَطْنَاهُ فِي غَيْرِ هَذَا الْمَوْضِعِ ، وَالْمَقْصُودُ أَنَّهُ لَيْسَ فِي قِصَّةِ الْخَضِرِ مَا يُسَوِّغُ مُخَالَفَةَ شَرِيعَةِ رَسُولِ اللَّهِ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – لِأَحَدٍ مِنْ الْخَلْقِ .

نَعَمْ لَفْظُ " الشَّرْعِ " قَدْ صَارَ فِيهِ اشْتِرَاكٌ فِي عُرْفِ الْعَامَّةِ : مِنْهُمْ مَنْ يَجْعَلُهُ عِبَارَةً عَنْ حُكْمِ الْحُكَّامِ ، وَلَا رَيْبَ أَنَّ حُكْمَ الْحَاكِمِ قَدْ يُطَابِقُ الْحَقَّ فِي الْبَاطِنِ وَقَدْ يُخَالِفُهُ ، وَلِهَذَا قَالَ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – فِي الْحَدِيثِ الْمُتَّفَقِ عَلَيْهِ عَنْ أُمِّ سَلَمَةَ : " إنَّكُمْ تَخْتَصِمُونَ إلَيَّ ، وَلَعَلَّ بَعْضَكُمْ أَنْ يَكُونَ أَلْحَنَ بِحُجَّتِهِ مِنْ بَعْضٍ ، وَإِنَّمَا أَقْضِي بِنَحْوِ مِمَّا أَسْمَعُ ، فَمَنْ قَضَيْت لَهُ مِنْ حَقِّ أَخِيهِ شَيْئاً فَلَا يَأْخُذْهُ فَإِنَّمَا أَقْطَعُ لَهُ قِطْعَةً مِنْ النَّارِ " (١)

وَقَدْ اتَّفَقَ الْمُسْلِمُونَ عَلَى أَنَّ حُكْمَ الْحَاكِمِ بِالْحُقُوقِ الْمُرْسَلَةِ لَا يُغَيِّرُ الشَّيْءَ عَنْ صِفَتِهِ فِي الْبَاطِنِ ، فَلَوْ حَكَمَ بِمَالِ زَيْدٍ لِعَمْرِو لِإِقْرَارٍ أَوْ بَيِّنَةٍ كَانَ ذَلِكَ بَاطِلاً فِي الْبَاطِنِ وَلَمْ يُبِحْ ذَلِكَ لَهُ فِي الْبَاطِنِ وَلَا يَجُوزُ لَهُ أَخْذُهُ مَعَ الْعِلْمِ بِالْحَالِ بِاتِّفَاقِ الْمُسْلِمِينَ ، وَكَذَلِكَ عِنْدَ جَمَاهِيرِ الْأُمَّةِ لَوْ حَكَمَ بِعَقْدِ أَوْ فَسْخِ نِكَاحٍ أَوْ طَلَاقٍ وَبَيْعٍ فَإِنَّ حُكْمَهُ لَا يُغَيِّرُ الْبَاطِنَ عِنْدَهُمْ ، وَإِنْ كَانَ مِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ : حُكْمُهُ يُغَيِّرُ ذَلِكَ فِي هَذَا الْمَوْضِعِ ؛ لِأَنَّ لَهُ وِلَايَةَ الْعُقُودِ والفُسوخ ، فَالصَّحِيحُ قَوْلُ الْجُمْهُورِ وَهُوَ مَذْهَبُ مَالِكٍ وَالشَّافِعِيِّ وَأَحْمَدَ وَسَائِرِ فُقَهَاءِ أَهْلِ الْحِجَازِ وَالْحَدِيثِ وَكَثِيرٍ مِنْ فُقَهَاءِ الْعِرَاقِ .

وَأَيْضاً فَلَفْظُ " الشَّرْعِ " فِي هَذَا الزَّمَانِ يُطْلَقُ عَلَى ثَلَاثَةِ مَعَانٍ : شَرْعٌ مُنَزَّلٌ وَشَرْعٌ مُتَأَوَّلٌ وَشَرْعٌ مُبَدَّلٌ :

فَالْمُنَزَّلُ : الْكِتَابُ وَالسُّنَّةُ ، فَهَذَا الَّذِي يَجِبُ اتِّبَاعُهُ عَلَى كُلِّ وَاحِدٍ ، وَمَنْ اعْتَقَدَ أَنَّهُ لَا يَجِبُ اتِّبَاعُهُ عَلَى بَعْضِ النَّاسِ فَهُوَ كَافِرٌ .

وَالْمُتَأَوَّلُ : مَوَارِدُ الِاجْتِهَادِ الَّتِي تَنَازَعَ فِيهَا الْعُلَمَاءُ : فَاتِّبَاعُ أَحَدِ الْمُجْتَهِدِينَ جَائِزٌ لِمَنْ اعْتَقَدَ أَنَّ حُجَّتَهُ هِيَ الْقَوِيَّةُ أَوْ لِمَنْ سَاغَ لَهُ تَقْلِيدُهُ ، وَلَا يَجِبُ عَلَى عُمُومِ الْمُسْلِمِينَ اتِّبَاعُ أَحَدٍ بِعَيْنِهِ إلَّا رَسُولُ اللَّهِ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - . فَكَثِيرٌ مِنْ الْمُتَفَقِّهَةِ إذَا رَأَى بَعْضَ النَّاسِ مِنْ الْمَشَايِخِ الصَّالِحِينَ يَرَى أَنَّهُ يَكُونُ الصَّوَابُ مَعَ ذَلِكَ وَغَيْرَهُ قَدْ خَالَفَ الشَّرْعَ وَإِنَّمَا خَالَفَ مَا يَظُنُّهُ هُوَ الشَّرْعَ ، وَقَدْ يَكُونُ ظَنُّهُ خَطَأً فَيُثَابُ عَلَى اجْتِهَادِهِ وَخَطَؤُهُ مَغْفُورٌ لَهُ ، وَقَدْ يَكُونُ الْآخَرُ مُجْتَهِداً مُخْطِئاً .

وَأَمَّا الشَّرْعُ الْمُبَدَّلُ : فَمِثْلُ الْأَحَادِيثِ الْمَوْضُوعَةِ وَالتَّأْوِيلَاتِ الْفَاسِدَةِ وَالْأَقْيِسَةِ الْبَاطِلَةِ وَالتَّقْلِيدِ الْمُحَرَّمِ = فَهَذَا يَحْرُمُ أَيْضاً ، وَهَذَا مِنْ مَثَارِ النِّزَاعِ فَإِنَّ كَثِيراً مِنْ الْمُتَفَقِّهَةِ وَالْمُتَكَلِّمَةِ قَدْ يُوجِبُ عَلَى كَثِيرٍ مِنْ الْمُتَصَوِّفَةِ وَالْمُتَفَقِّرَةِ اتِّبَاعَ مَذْهَبِهِ الْمُعَيَّنِ وَتَقْلِيدَ مَتْبُوعِهِ وَالْتِزَامَ حُكْمِ حَاكِمِهِ بَاطِناً وَظَاهِراً ، وَيَرَى خُرُوجَهُ عَنْ ذَلِكَ خُرُوجاً عَنْ الشَّرِيعَةِ الْمُحَمَّدِيَّةِ ، وَهَذَا جَهْلٌ مِنْهُ وَظُلْمٌ ؛ بَلْ دَعْوَى ذَلِكَ عَلَى الْإِطْلَاقِ كُفْرٌ وَنِفَاقٌ ، كَمَا أَنَّ كَثِيراً مِنْ الْمُتَصَوِّفَةِ وَالْمُتَفَقِّرَةِ يَرَى مِثْلَ ذَلِكَ فِي شَيْخِهِ وَمَتْبُوعِهِ ، وَهُوَ فِي هَذَا نَظِيرُ ذَلِكَ . وَكُلٌّ مِنْ هَؤُلَاءِ قَدْ يُسَوِّغُ الْخُرُوجَ عَمَّا جَاءَ بِهِ الْكِتَابُ وَالسُّنَّةُ لِمَا يَظُنُّهُ مُعَارِضاً لَهُمَا إمَّا لِمَا يُسَمِّيهِ هَذَا ذَوْقاً وَوَجْداً وَمُكَاشَفَاتٍ وَمُخَاطَبَاتٍ ، وَإِمَّا لِمَا يُسَمِّيهِ هَذَا قِيَاساً وَرَأْياً وَعَقْلِيَّاتٍ وَقَوَاطِعَ ، وَكُلُّ ذَلِكَ مِنْ شُعَبِ النِّفَاقِ ، بَلْ يَجِبُ عَلَى كُلِّ أَحَدٍ تَصْدِيقُ الرَّسُولِ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – فِي جَمِيعِ مَا أَخْبَرَ بِهِ وَطَاعَتُهُ فِي جَمِيعِ مَا أَمَرَ بِهِ ، وَلَيْسَ لِأَحَدٍ أَنْ يُعَارِضَهُ بِضَرْبِ الْأَمْثَالِ وَلَا بِآرَاءِ الرِّجَالِ ، وَكُلُّ مَا عَارَضَهُ فَهُوَ خَطَأٌ وَضَلَالٌ .

وَقَدْ ذَكَرْنَا مِنْ تَفْصِيلِ ذَلِكَ فِي غَيْرِ هَذَا الْمَوْضِعِ مَا لَا يَتَّسِعُ لَهُ هَذَا الْمَجَالُ ، وَاَللَّهُ – تَعَالَى – يُوَفِّقُنَا وَسَائِرَ إخْوَانِنَا لِمَا يُحِبُّهُ وَيَرْضَاهُ مِنْ الْأَقْوَالِ وَالْأَفْعَالِ الْبَاطِنَةِ وَالظَّاهِرَةِ وَفِي جَمِيعِ الْأَحْوَالِ ، وَاَللَّهُ – سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى – أَعْلَمُ ، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ وَحْدَهُ وَصَلَوَاتُهُ وَسَلَامُهُ عَلَى نَبِيِّهِ مُحَمَّدٍ وَآلِهِ وَصَحْبِهِ وَسَلَّمَ . اهـ " مجموع الفتاوى " (١١/ ٤٢٢-٤٣٢)

وإنَّما نَقَلْتُهُ هنا بطولِهِ لكثرةِ فوائدِهِ ، فرحمةُ اللَّهِ على قائلهِ .

(١) أخرجه البخاري (٢٦٨٠) ومسلم (١٧١٣) وغيرُهما عن أمّ سَلَمة – رضِيَ اللَّهُ عنها - .

وقَد كانَ النَّبيُّ – صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْه وسلَّم – مَعروفًا عِنْد الأنبياءِ السَّابقينَ وأُمَمِهم ، ومذكوراً باسمه وَوَصْفِهِ في كُتُبِهم ، وكانَ اسْمُهُ حُروفًا تَتَرَدَّدَ علىٰ ألسِنَتِهم :

كَما قالَ اللَّهُ – تَعالَىٰ – : { ورَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُم بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ {١٥٦} الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوباً عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُم بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَآئِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالأَغْلالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَالَّذِينَ آمَنُواْ بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُواْ النُّورَ الَّذِيَ أُنزِلَ مَعَهُ أُوْلَـئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ } [الأعراف/١٥٦–١٥٧]

وقَالَ اللَّهُ – عَزَّ وجَلَّ – : { الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ وَإِنَّ فَرِيقاً مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ } [البقرة/١٤٦]

روى الإمامُ أحمد في " مُسْنَدِهِ " (١٢٨/٤) وابنُ حِبَّانَ في " صَحيحِهِ " (٦٤٠٤) والحاكم في " المُسْتَدْرك " (٦٥٦/٢) والطَّبَرانيُّ في " مُعْجَمِهِ الكبير " (٢٥٣/١٨ رقم ٦٣١) وابن سَعدٍ (١٤٩/١) وأبو نُعَيْم في " الحِلْيَة " (٨٩/٦) والبَيْهَقِيُّ في " الشُّعَب " (١٣٤/٢ رقم ١٣٨٥) وفي " الدَّلائل " (٨٠/١) وغيرُهُم عن العِرْباض بن سَارية الفزاريّ – رضِيَ اللَّهُ عنه – قال : سَمِعْتُ رسُولَ اللَّهِ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وسَلَّم – يَقُولُ : " إني عِنْدَ اللَّهِ في أمِّ الكتَابِ لَخَاتَمُ النَّبِيِّينَ وإنَّ آدمَ لَمُنْجَدِلٌ في طِينَتِهِ * ، وسأُخْبِرُكُم بتأويلِ ذلكَ : دَعْوةُ أبي إبراهيمَ ، وبِشَارةُ أخي عِيسى بي ، ورُؤْيَا أمّي التي رأتْ حِينَ وَضَعَتْ أنَّهُ خَرَجَ مِنْها نُورٌ أضَاءَتْ لَهُ قُصُورُ الشَّامِ ، وكَذَلِكَ تَرَى أُمَّهَاتُ النَّبِيِّينَ – صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِمْ "

والمَقْصودُ بدعْوةِ إبْراهيمَ – علَيْهِ السَّلام – ما ذَكَرَهُ اللَّهُ – تَعالَىٰ – عنه مِن قولِهِ : { رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولاً مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنتَ العَزِيزُ الحَكِيمُ } [البَقَرة/١٢٩]

فاستجابَ اللَّهُ – تَعالَىٰ – دُعَاءَهُ وأبَرَّ رَجَاءَهُ فقالَ : { هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولاً مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ } [الجُمُعة/٢]

---

* أيْ : في المُدَّةِ التي خَلَقَ اللَّهُ – تَعالَى – فِيها آدمَ – عَلَيْهِ السَّلامُ – من طينٍ وقَبْلَ أنْ يَنْفُخَ فيهِ الرُّوحَ ، فقد مَضَى مُدَّةً بعدَ خَلْقِهِ وقبلَ نفخِ الرُّوحِ فيه كما رواه مُسلمٌ في " صحيحه " (٢٦١١) وأحمدُ (٣/ ١٥٢و٢٢٩و٢٤٠و٢٥٤) وأبو داودَ الطَّيالسي (٢٠٢٤) وابنُ حِبَّانَ (٦١٦٣) وغَيْرُهُم عن أنَسِ بنِ مالكٍ – رَضِيَ اللَّهُ عنه - أنَّ رسولَ اللَّهِ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وسَلَّم – قال : لَمَّا صَوَّرَ اللَّهُ – تَعالَى - آدمَ في الجَنَّةِ تَركَهُ ما شَاءَ اللَّهُ أنْ يَتْرُكَهُ ، فجَعَل إبْليسُ يُطِيفُ به يَنْظُرُ ما هو ، فَلَمَّا رآهُ أجْوفَ عَرَفَ أنَّهُ خُلِقَ خَلْقاً لا يَتَمالَكُ " وقولُهُ : " لا يتمالكُ " اخْتُلِفَ فِيه : فَقِيلَ : لا يَتَمالَكُ نَفْسَهُ عن شَهواتِهِ خُصوصاً عِنْدَ غَلَباتِ الهوى ، وقِيلَ : لا يَتَمالكُ نَفْسَهُ عِنْدَ الغَضَبِ ، وقيلَ : لا يَتمالَكُ نَفْسَهُ عند تَسَلُّطِ الشَّيْطانِ ، ولا يَملِكُ دفْعَ الوسواسِ بنفْسِهِ إلَّا إنْ اعْتَصَمَ بِربِّهِ – عزَّ وجلَّ - ، وقيلَ غَيْرُ ذلكَ .

والحاصِلُ : أنَّ الإنْسانَ خُلِقَ خَلْقاً ضعيفاً كما قالَ اللَّهُ – تعالَى - : { وَخُلِقَ الإِنسَانُ ضَعِيفاً } [النِّساءُ/٢٨]

وقالَ – عَزَّ مِنْ قائلٍ – : {لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولاً مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِن كَانُواْ مِن قَبْلُ لَفِي ضَلالٍ مُّبِينٍ} [آل عمران/١٦٤]
فأَخْبَرَ اللَّهُ – تعالَىٰ – أنَّ بَعْثَةَ الرَّسُولِ – صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وسلَّم – مِنَّةٌ مِنْهُ امْتَنَّ بها عَلَىٰ خَلْقِهِ ونِعْمةٌ منهُ طَوَّق بها رقابَ عِبادِهِ والمُؤمنينَ بهِ .

وأمَّا بِشارةُ عِيسَىٰ – عَلَيْهِ السَّلام – فهي المَذكُورةُ في قَوْلِ اللَّهِ – تَعالَىٰ – : {وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقاً لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَمُبَشِّراً بِرَسُولٍ يَأْتِي مِن بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ فَلَمَّا جَاءهُم بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ} [الصَّفُّ/٦]
فدلَّ ذلكَ علَىٰ أنَّ النَّبيَّ – صلَّىٰ اللَّهُ علَيْهِ وسلَّم – كانَ معروفاً عندَهُم ومذكوراً باسمِهِ علَىٰ ألسنةِ أنْبيائِهِم .

وَرَوَى البُخَاريُّ في " صحيحِهِ " (٢١٢٥) وفي " الأدب المفرد " (٢٤٦و٢٤٧) وأحمد في " المُسْنَدِ " (١٧٤/٢) والبغويُّ في " شرح السُّنَّة " (٣٦٢٧) والبيهقيُّ في الكبرى (٤٥/٧) وفي الشُّعَب " (١٣٤٥) وفي " دلائل النُّبُوَّة " (٣٧٣/١) وغَيْرُهُم عَنْ عَطَاءِ بْنِ يَسَارٍ قَالَ : لَقِيتُ عَبْدَ اللَّهِ بْنَ عَمْرِو بْنِ العَاصِ – رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا – قُلْتُ : أَخْبِرْنِي عَنْ صِفَةِ رَسُولِ اللَّهِ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيهِ وسَلَّمَ – فِي التَّوْرَاةِ ؟ قَالَ : أَجَلْ ، وَاللَّهِ إِنَّهُ لَمَوْصُوفٌ فِي التَّوْرَاةِ بِبَعْضِ صِفَتِهِ فِي القُرْآنِ : {يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِداً وَمُبَشِّراً وَنَذِيراً} [الأحزاب/٤٥] وَحِرْزاً لِلأُمِّيِّينَ ، أَنْتَ عَبْدِي وَرَسُولِي سَمَّيْتُكَ المُتَوَكِّلَ ، لَيْسَ بِفَظٍّ وَلا غَلِيظٍ وَلا سَخَّابٍ فِي الأَسْوَاقِ ، وَلا يَدْفَعُ بِالسَّيِّئَةِ السَّيِّئَةَ وَلَكِنْ يَعْفُو وَيَغْفِرُ وَلَنْ يَقْبِضَهُ اللَّهُ حَتَّى يُقِيمَ بِهِ المِلَّةَ العَوْجَاءَ بِأَنْ يَقُولُوا لا إِلَهَ إِلا اللَّهُ ، وَيَفْتَحُ بِهَا أَعْيُناً عُمْياً وَآذَاناً صُمّاً وَقُلُوباً غُلْفاً .
فهذه بعضُ صِفاتِهِ – صلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وسلَّم – المذكورةِ في التَّوراةِ ، وقد كانَ عَبْدُ اللَّهِ بن عَمرٍو – رضِيَ اللَّهُ عنهما – له اطِّلاعٌ عَلَىٰ كُتُبِ أهْلِ الكتابِ ، وكانَ له عِلْمٌ ودرايةٌ بما في صُحُفِهِم ، فأخبرَ بما يَعْلَمُهُ فيها .

رَوَى البُخَاريُّ (٣٣٢٩و٣٩٣٨و٤٤٨٠) والنَّسائيُّ في " الكُبْرَى " (٨٢٥٤) وأَحْمَدَ (١٠٨/٣) وأبو يَعْلَى (٣٨٥٦و٣٧٤٢) وابْنُ حِبَّانَ (٧١٦١) والبَغَوِيُّ في " شَرحِ السُّنَّةِ " (٣٧٦٩) وغَيْرُهُم عَنْ أنَسِ بنِ مالِكٍ – رَضِيَ اللَّهُ عنه – قَالَ : بَلَغَ عَبْدَ اللَّهِ بنَ سَلامٍ مَقْدَمُ رسُولِ اللَّهِ – صَلَّى اللَّه عَلَيْه وسَلَّم – المَدينةَ فأتاهُ فقال : إِنِّي سَائِلُكَ عَن ثَلاثٍ لا يَعْلَمُهُنَّ إِلا نبِيٌّ : ما أوَّلُ أشْراطِ السَّاعَةِ ؟ وما أوَّلُ طَعَامٍ يَأْكُلُهُ أهْلُ الجَنَّةِ ؟ ومِنْ أيِّ شَيءٍ يَنْزِعُ الوَلَدُ إِلَى أبِيهِ ، ومِنْ أيِّ شَيءٍ يَنْزِعُ إِلَى أخْوالِهِ ؟ فقَال رسولُ اللَّهِ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وسَلَّم – : " أَخْبَرَنِي بِهِنَّ جِبْرِيلُ آنِفاً "
فَقَالَ عَبْدُ اللَّهِ بنُ سلامٍ : ذاكَ عَدُوُّ اليَهُودِ من الملائكة !

فقال رسولُ اللَّهِ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وسَلَّم – : " أمَّا أوّلُ أشراطِ السّاعةِ فنارٌ تحشُرُ النّاسَ من المَشْرقِ إلى المَغْرِبِ ، وأمَّا أوّلُ طعَامٍ يأكُلُهُ أهْلُ الجنَّةِ فزيادةُ كَبِدِ الحُوتِ ، وأمَّا الشَّبَهُ في الوَلَدِ فإنَّ الرَّجُلَ إذا غَشِيَ المَرأةَ فسَبَقَها ماؤُهُ كانَ الشَّبَهُ لَهُ ، وإذا سَبَقَ ماؤُها كان الشَّبَهُ لها " .

فَقَالَ عَبْدُ اللَّهِ بنُ سلامٍ – رضِيَ اللَّهُ عنه – : أشْهَدُ أنّكَ رسُولُ اللَّهِ ، ثُمَّ قالَ : يا رسولَ اللَّهِ إنَّ اليَهُودَ قَوْمٌ بُهْتٌ – أيْ : كذَبَةٌ مُفْتَرون – إنْ عَلِمُوا بإسْلامي قبل أنْ تَسْألَهم بَهَتوني عِنْدكَ .

فَأرْسِلْ إلَيْهِمْ فاسْألْهُمْ عَنّي : أيُّ رَجُلٍ ابنُ سَلامٍ فِيكُمْ ؟ قَالَ : فَأرْسَلَ إلَيْهِمُ النّبيُّ – صَلَّى اللَّهُ عليه وسلَّم – فجاؤوا ودَخَلَ عَبْدُ اللَّهِ البَيْتَ – أيْ : استتر خلْفَ ستارٍ أو اختبأَ في حُجْرةٍ – فَقَالَ رسولُ اللَّهِ – صَلَّى اللَّهُ عليْهِ وسلَّم – : " أيُّ رَجُلٍ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ سَلامٍ فِيكُمْ ؟ " أيْ : ما مَنْزِلَتُهُ ومكانَتُهُ فيكم ؟

قَالُوا : خَيْرُنَا وَابْنُ خَيْرِنَا ، وَعَالِمُنَا وَابْنُ عَالِمِنَا ، وَأَفْقَهُنَا وَابْنُ أَفْقَهِنَا .

قَالَ : " أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَسْلَمَ تُسْلِمُونَ ؟ " أيْ : بما أنَّهُ إمامُكم وأعلمُكم وأنتم تُعَظِّمونَهُ وتَتَّبِعونه .

قَالُوا : أَعَاذَهُ اللَّهُ مِنْ ذَلِكَ ! أيْ : مَعاذَ اللَّهِ أنْ يُسْلِمَ لأنَّ إسْلامَهُ وَرطةٌ كبيرةٌ لهم وحُجَّةٌ عَلَيْهِم .

قَالَ : فَخَرَجَ عَلَيْهِم عبْدُ اللَّهِ بْنُ سَلامٍ – رَضِيَ اللَّهُ عنه – فَقَالَ : أَشْهَدُ أَنْ لا إِلَهَ إلا اللَّهُ وَأَنَّ مُحَمَّداً رَسُولُ اللَّهِ .

فَقَالُوا : شَرُّنَا وَابْنُ شَرِّنَا ، وَجَاهِلُنَا وَابْنُ جَاهِلِنَا ، وَوَقَعُوا فِيهِ !

فَقَالَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ سَلامٍ : هَذَا الَّذِي كُنْتُ أَتَخَوَّفُ مِنْهُمْ .

فانْظُرْ إلىٰ هؤلاءِ الغَشَشَةِ المُفْترينَ كيفَ يُبَدِّلُونَ أقوالَهم ، ويكتمونَ الحقَّ ويَنْطِقونَ بالزُّورِ ويُزَيِّفونَ ضمائرَهُم ويَهْدِمونَ مَنْ كانَ فيهم عَظِيماً = كُلُّ هذا في نفسِ المَجْلِسِ !

فدلَّ ذلكَ علَىٰ أنَّ النَّبيَّ – صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وسَلَّم – كانَ مَعروفاً عِندَهُم ، موصوفاً في كُتُبِهم ، وإنَّما كانُوا يكتُمونَ نُبُوَّتَهُ ظُلْماً وعُدواناً وجحوداً وطُغياناً ، واللَّهُ المُسْتعانُ !

قالَ اللَّهُ – عزَّ وجلَّ – : { الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمُ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ فَهُمْ لا يُؤْمِنُونَ } [الأنعام/٢٠]

ومِنْ أصولِ دينِ المُسْلمينَ كذلكَ وقواعِدِ مِلَّتِهم وأثبَتِ عَقَائدِهم وأرسخِ قَواعِدِهم : الإيمانُ بأنَّ النَّبيَّ – صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وسلَّم – هُوَ خاتَمُ الأنْبِياءِ والرُّسُلِ ، فلا يأتِي بَعْدِهِ مِنْ نبيٌّ ، ولا يُبْعَثُ بَعدَهُ من رسولٍ ، وبموتِهِ – صلَّىٰ اللَّهُ علَيْهِ وسلَّم – انْقَطَعَ الوحْيُ مِن السَّماءِ :

قالَ اللَّهُ – عزَّوجلَّ – : { مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَكِن رَّسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيماً } [الأحْزاب/٤٠]

وأخْرجَ البخاري (٤٨٩٦) ومسلم (٢٣٥٤) وغَيْرُهما عَنْ جُبَيْرِ بنِ مُطْعِمٍ عَنِ النَّبيِّ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وسَلَّم – قال : " إنَّ لي خَمسةَ أَسْماءَ : أنا مُحَمَّدٌ وأنا أحمدُ وأنا الحاشِرِ الذي يُحْشَرُ النَّاسُ عَلَى قَدَمِي ، وأنا المَاحِي الذي يَمْحُو اللَّهُ بيَ الكُفْرَ ، وأنا العَاقِبُ " والعاقبُ الذي لَيس بَعْدَهُ نَبِيٌّ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْه وسَلَّم – .

وَرَوَى البُخَاريُّ (٣٥٣٥) ومسلمٌ (٢٢٨٦) وغَيْرُهُما عَن أبي هُرَيْرةَ – رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ – : أنَّ رسُولَ اللَّهِ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وسَلَّم – قال : " إنَّ مَثَلِي ومَثَلَ الأنبِيَاءِ مِن قَبْلِي كمَثَلِ رَجُلٍ بَنَى بُنياناً فأحْسَنَهُ وأجْمَلَهُ إلَّا مَوْضِعَ لَبِنَةٍ مِنْ زَاوِيَةٍ مِنْ زَوَاياهُ ، فَجَعَلَ النَّاسُ يَطُوفُونَ بِهِ ويَعْجَبُونَ لَهُ ، ويَقُولُونَ : هَلَّا وُضِعَتْ هَذِهِ اللَّبِنَةُ ؟ !

قَالَ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وسلَّم – : " فأنا اللَّبِنةُ وأنا خَاتَمُ النَّبِيِّينَ " .

وأخْرجَ الإمامُ مُسْلم (٢٤٠٤) والتِّرمذِيُّ (٣٧٣١) ، والبزار (١٠٦٦) و (١٠٦٨) ، والنَّسائيُّ في " الكُبْرَى " (٨١٣٩و٨١٤٠) وفي " الخصائص " (٤٥و٤٦و٤٧و٤٨) وأحمد (١/١٧٣) وغَيْرُهُم عَنْ سَعْدِ بنِ أَبِي وَقَّاصٍ – رَضِيَ اللَّهُ عنه – قَالَ : خَلَّفَ رَسُولُ اللَّهِ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – عَلِيَّ بنَ أَبِي طَالِبٍ بالمَدينةِ فِي غَزْوَةِ تَبُوكَ – أيْ : تَرَكَهُ أمِيراً عَلَىٰ مَنْ بَقِيَ في المَدينَةِ من الضُّعفاءِ والنِّساءِ والصِّبْيانِ وغيْرِهِم كَعَادَتِهِ – صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وسَلَّم – إذا خَرَجَ في غَزوةٍ أو سَرِيَّةٍ . ، فَقَالَ عَلِيٌّ : يَا رَسُولَ اللَّهِ تُخَلِّفُنِي فِي النِّسَاءِ وَالصِّبْيَانِ ؟ فَقَالَ – صَلَّى اللَّهُ عليه وسلَّم – : " أَمَا تَرْضَى أَنْ تَكُونَ مِنِّي بِمَنْزِلَةِ هَارُونَ مِنْ مُوسَى ؟ غَيْرَ أَنَّهُ لَا نَبِيَّ بَعْدِي "

وَرَوَى الإمامُ مُسلِمٌ في " صحيحِهِ " (١٩٢٠و٢٨٨٩) وأبو داود (٤٢٥٢) والتِّرمذي (٢١٧٦) وأحمدُ (٥/٢٧٨) وغَيْرُهُم عن ثوبانَ مولَى رسولِ اللَّهِ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وسلَّم – قالَ : قالَ رسولُ اللَّهِ – صَلَّى اللَّهُ عليْهِ وسلَّم – : " . . . وإنَّما أخَافُ عَلَى أُمَّتي الأئِمَّةَ المُضِلِّينَ ، وإذا وُضِعَ السَّيْفُ في أُمَّتي لَمْ يُرْفَعْ عَنْهُم إلَى يَوْمِ القِيامَةِ ، ولا تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّى تَلْحَقَ قَبَائِلُ مِنْ أُمَّتِي بالمُشْرِكين ، وحَتَّى تَعْبُدَ قَبَائِلُ مِن أُمَّتي الأوثانَ ، وإنَّه سَيَكُونُ في أُمَّتي كَذَّابُونَ ثلاثُونَ كُلُّهُم يَزْعُمُ أَنَّهُ نَبِيٌّ ! وأنا خَاتَمُ النَّبِيِّينَ لا نَبِيَّ بَعْدِي ، ولا تَزالُ طائفةٌ مِن أُمَّتي عَلَى الحَقِّ ظَاهِرِينَ لا يَضُرُّهُم مَن خَالَفَهُم حَتَّى يَأتيَ أَمْرُ اللَّهِ – عَزَّوجَلَّ – "

فهذه النُّصُوصُ وغيْرُها تَدُلُّ علَىٰ هذا الأصلِ الكبيرِ ، وأنَّ النَّبيَّ – صلَّىٰ اللَّهُ عليه وسلَّم – هو النَّبيُّ الخاتِم والرَّسُولُ الكامِلُ ، وكُلُّ دَعْوَىٰ للنُّبُوَّةِ بَعْدَهُ فغَيٌّ وضلالٌ ، وزَيْفٌ وخَبَال ، واللَّهُ المُسْتَعانُ .

ومِنْ أُصُولِ دينِ المُسْلِمينَ كذلكَ الإيمانُ بأنْبياءِ اللَّهِ – تَعالَىٰ – ورُسُلِهِ ، وتَعظيمُهُم وتَوْقِيرُهُم ، وحُبُّهُم ومُوالاتُهُم ، وحِفْظُ حُرْمَتِهِم ورعايةُ أقدارِهِم خُصُوصاً أَفْضَلَهُم وأزكاهُم وأشْرَفَهُم وأعلاهُم وسَيِّدَهُم والمُقَدَّمَ بَيْنَهم مُحَمَّداً – صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وسلَّم – .

قالَ اللَّهُ – عزَّ وجَلَّ – : { فَالَّذِينَ آمَنُواْ بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُواْ النُّورَ الَّذِيَ أُنزِلَ مَعَهُ أُوْلَـئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ } [الأعراف/١٥٧] عَزَّروه أيْ وقَّروهُ وعَظَّموهُ واحْتَرموهُ ، وراعَوْا قَدْرَهُ وشَرَفَهُ .

وقالَ اللَّهُ – عَزَّ وجَلَّ – : { لِتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُعَزِّرُوهُ } أيْ : تُعَظِّمُوهُ وتَنْصُروهُ { وَتُوَقِّرُوهُ وَتُسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلاً } [الفتح/٩]

فالنَّبيُّ – صَلَّىٰ اللَّهُ عليهِ وسلَّم – عندنا أعَزُّ مِنْ كُلِّ عَزيزٍ وأحَبُّ مِنْ كُلِّ حَبِيبٍ ، وأعْظَمُ من كُلِّ عَظِيمٍ وأقْرَبُ مِنْ كُلِّ قَريبٍ ، وأغْلَىٰ مِنْ كُلِّ غَالٍ وأفْضَلُ من كُلِّ فاضلٍ ، وهُوَ أَوْلَىٰ بِنا مِن أنْفُسِنا كما قالَ اللَّهُ – عَزَّ وجَلَّ – : { النَّبِيُّ أَوْلَى بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ وَأَزْوَاجُهُ أُمَّهَاتُهُمْ } [الأحزاب/٦]

وقد نَهانا اللَّهُ – عزَّ وجلَّ – أنْ نَتَشَبَّهَ باليَهودِ المَلاعِينَ أو أنْ نَسْلُكَ مَسالِكَهم الخبيثةِ في التَّطَاوُلِ علَىٰ الأنبياءِ والمُرْسَلِينَ فقالَ – عَزَّ مِنْ قائلٍ – : { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ آذَوْا مُوسَى فَبَرَّأَهُ اللَّهُ مِمَّا قَالُوا وَكَانَ عِندَ اللَّهِ وَجِيهاً } [الأحزاب/٦٩] وقَدْ وَرَدَ في تَفْسيرِ هذه الآيَةِ ما أخْرَجَهُ البُخاريُّ (٣٤٠٤و٤٧٩٩) ومُسْلِمٌ (٣٣٩) وغَيْرُهُما عنْ أَبي هُرَيْرَةَ – رَضِيَ اللَّهُ عنه – عَنْ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، فَذَكَرَ أَحَادِيثَ مِنْهَا ، وَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – : كَانَتْ بَنُو إِسْرَائِيلَ يَغْتَسِلُونَ عُرَاةً يَنْظُرُ بَعْضُهُمْ إِلَى سَوْأَةِ بَعْضٍ ، وَكَانَ مُوسَى – عَلَيْهِ السَّلَامُ – رَجُلاً حَيِيّاً سِتِّيراً لا يَكادُ يُرَى شَيْءٌ مِنْ جِلْدِهِ اسْتِحْياءً منه فكانَ يَغْتَسِلُ وَحْدَهُ ، فَآذَاهُ مَنْ آذاهُ مِنْ بَنِي إِسْرائيلَ فَقَالُوا : وَاللَّهِ مَا يَتَسَتَّرُ مُوسَى هذا التَّسَتُّرَ إِلَّا مِنْ عَيْبٍ بِجِلْدِهِ إِمَّا بَرَصٌ وإِمَّا أُدْرةٌ ! وفِي لَفْظٍ : قالُوا : ما يَمْنَعُ مُوسَى أَنْ يَغْتَسِلَ مَعَنَا إِلَّا أَنَّهُ آدَرُ ! والأُدْرَةُ هي العَيْبُ في الخِصْيَةِ كالانتفاخِ وغَيْرِهِ – قَالَ : فأرادَ اللَّهُ – عزَّ وجلَّ – أَنْ يُبَرِّئَهُ مِمَّا قالُوا ، فَذَهَبَ مُوسَى – عَلَيْهِ السَّلام – مَرَّةً يَغْتَسِلُ خَالِياً ، فَوَضَعَ ثَوْبَهُ عَلَى حَجَرٍ ثُمَّ اغْتَسَلَ ، فَلَمَّا فَرَغَ أَقْبَلَ إِلَى ثَوْبِهِ لِيَأْخُذَهُ فَفَرَّ الحجَرُ بِثَوْبِهِ ، فَأَخَذَ مُوسَى عَصَاهُ وطَلَبَ الحَجَرَ ، وهو يَقُولُ : ثَوْبِي حَجَرُ ، ثَوْبِي حَجَرُ ! حَتَّى انْتَهَى إِلَى مَلأٍ مِنْ بَنِي إِسْرائيلَ فَرَأَوْهُ عُرْيَاناً كَأَحْسَنِ الرِّجالِ خَلْقاً ، فَقَالُوا : وَاللَّهِ مَا بِمُوسَى مِنْ بَأْسٍ ! فقَامَ الْحَجَرُ بَعْدُ – أَيْ : وَقَفَ – فَأَخَذَ مُوسَى – عَلَيْهِ السَّلامُ – ثَوْبَهُ وطَفِقَ بِالْحَجَرِ ضَرْباً . قالَ أَبُو هُرَيْرَةَ – رَضِيَ اللَّهُ عنه – : وَاللَّهِ إِنَّهُ بِالْحَجَرِ نَدَبٌ سِتَّةٌ أَوْ سَبْعَةٌ مِنْ أَثَرِ ضَرْبِ مُوسَى – عَلَيْهِ السَّلامُ – للْحَجَرِ ، فذلكَ قَوْلُهُ – تَعالَى – : { يا أيُّها الذينَ آمَنُوا لا تَكُونُوا كالذين آذَوْا مُوسَى فَبَرَّأَهُ اللَّهُ مِمَّا قَالُوا وكانَ عِنْدَ اللَّهِ وَجِيهاً } [الأحزاب/٦٩]

وقَدْ تَوَعَّدَ اللَّهُ – عَزَّ وجَلَّ – الذينَ يُؤذونَ الرَّسولَ الأكْرَمَ – صلَّىٰ اللَّهُ علَيْهِ وسلَّم – بأنَّهم مَلْعونونَ في الدُّنْيَا مُبْعَدونَ عن رحْمَتِهِ ، وتَوعَّدَهُم بالعَذابِ المُهينِ الذي فيهِ إهانَةٌ لَهم واحْتِقارٌ وإذلالٌ = فقالَ – عزَّ مِنْ قائلٍ – : {إِنَّ الَّذِينَ يُؤْذُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَاباً مُّهِيناً } [الأحْزاب/٥٧]

وقالَ اللَّهُ – عَزَّ وجَلَّ – : {وَمِنْهُمُ الَّذِينَ يُؤْذُونَ النَّبِيَّ وَيِقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ لَّكُمْ يُؤْمِنُ بِاللّهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ آمَنُواْ مِنكُمْ وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ اللّهِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ} [التَّوْبَة/٦١]

وهذه الآيةُ نَزَلَتْ في طائفةٍ من المُنافِقِينَ كانوا يَقَعُونَ في عِرْضِهِ – صلَّىٰ اللَّهُ علَيْهِ وسلَّم – ويَقُولُونَ في حَقِّهِ ما لا يَنْبَغِي ، فإذا بَلَغَهُ – صَلَّىٰ اللَّهُ عليهِ وسلَّمَ – بَعْضُ ما قالوا ذهَبوا إلَيْهِ وأنْكَروا ذلكَ وحَلَفوا له أنَّهم لم يَقُولُوا ، والنَّبيُّ يَعْلَمُ كَذِبَهم ولكنْ لِكَرَمِ أخْلاقِهِ وخَوْفِهِ أنْ يَجُرَّ علَىٰ النَّاسِ شَرّاً = كانَ – صلَّىٰ اللَّهُ علَيْهِ وسلَّم – يَقْبَلُ أيْمانَهُم الكاذِبَةَ ويَعْفُو عن حَقِّهِ ويَكِلُ أُمُورَهُم إلَىٰ اللَّهِ – عزَّ وجَلَّ – ، فقالُوا : {هو أُذُنٌ} أيْ : نَقُولُ ما نَشاءُ ثُمَّ نأتِيهِ فنُنْكِرُ ما قُلْنَا ونَحْلِفُ علىٰ ذلكَ فَيَقْبَلُ منَّا ويُصَدِّقُنا بما نَقُولُ ولا يُدَقِّقُ في الكلامِ المَنْقولِ إلَيْهِ ولا يُحَاسِبُنا ! واغترُّوا بذلكَ ، فقالَ – تعالَىٰ – : {قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ لَّكُمْ} أيْ : هو أُذُنٌ نَعَم ولكنَّهُ أُذُنٌ في الخَيْرِ والحَقِّ والرَّحْمَةِ والعَفْوِ ، معَ أنَّه ليْسَ بِغافِلٍ عن فسادِ أحْوالِكُم وكَيْدِكُم ومَكْرِكُم ، وإنَّما كانَ لا يُوَاجِهُهُم بِقُبْحِ أقْوالِهِم لكمالِ أخْلاقِهِ ، ويَصْفَحُ عن سُوءِ أدَبِهم حِلْماً وكَرَماً { قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ لَكُمْ يُؤْمِنُ باللَّهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ ورَحْمةٌ لِلذينَ آمَنُوا مِنْكُم والذينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ أليمٌ } [التَّوْبَة/٦١]

وأخْرَجَ البُخَارِيُّ في " صَحِيحِهِ " (٣٦١٧) ومسلم (٢٧٨١) وأحمد في " مُسْنَدِهِ " (٣/١٢٠ و٢٢٢ و٢٤٥) وابنُ حِبَّانَ (٧٤٤) وأبو يَعْلَى في " مُسْنَدِهِ " (٣٩١٩) والطَّحَاوِيُّ في " شَرْحِ مُشْكِلِ الآثَارِ " (٣٢١٢) والبَغَوِيُّ في " شَرْحِ السُّنَّة " (٣٧٢٥) وغَيْرُهُم مِنْ طُرُقٍ عَنْ أنسِ بنِ مَالِكٍ – رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ – قالَ : كانَ مِنَّا رَجُلٌ مِن بَنِي النَّجَّارِ * قد أَسْلَمَ وقَرَأَ البَقَرةَ وآلَ عِمْرانَ – وكَانَ الرَّجُلُ إذا قَرَأَ البَقَرةَ وآلَ عِمْرانَ جَدَّ فِينا – يَعْنِي : عَظُم – وكانَ – أيْ : ذلِكَ الرَّجُلُ يَكْتُبُ لِرَسُولِ اللهِ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وسَلَّم – * ثُمَّ ارتَدَّ عَنْ دِينِهِ وانْطَلَقَ هَارِباً حَتَّى لَحِقَ بأهْلِ الكِتابِ ودَخَلَ مَعَهُم في النَّصْرَانِيَّةِ ، فرَفَعُوهُ – أيْ : احْتَفَلُوا بِهِ وأكْرَمُوهُ وصَبُّوا عَلَيهِ مِنْ أمْوالِهِم – وقَالُوا : هَذا كَانَ يَكْتُبُ لِمُحَمَّدٍ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وسَلَّم – وأُعْجِبُوا بهِ !

وكانَ يَقُولُ : مَا يَدْرِي مُحَمَّدٌ إلَّا مَا كَتَبْتُ لَهُ ! فَمَا لَبِثَ أنْ قَصَمَ اللَّهُ عُنُقَهُ فِيهِم ومَاتَ ، فَحَفَرُوا لَهُ ودَفَنُوهُ ، فَأَصْبَحَ وقَدْ لَفِظَتْهُ الأرْضُ عَلَى وَجْهِهَا ، فَقَالُوا : هَذا فِعْلُ مُحَمَّدٍ وأصْحَابِهِ ، لَمَّا هَرَبَ مِنْهُم نَبَشُوا عَنْ صَاحِبِنَا فَأَلْقَوْهُ !

ثُمَّ عَادُوا فحَفَروا لَهُ وأَعْمَقُوا ودَفَنُوهُ ، فأَصْبَحَ وقَدْ لَفِظَتْهُ الأرْضُ عَلَى وَجْهِهَا ، فَقَالُوا : هَذا فِعْلُ مُحَمَّدٍ وأَصْحَابِهِ ، لَمَّا هَرَبَ مِنْهُم نَبَشُوا عَنْ صَاحِبِنَا فَأَلْقَوْهُ !

ثُمَّ عَادُوا فحَفَروا له وأَعْمَقُوا لَهُ فِي الأَرْضِ مَا اسْتَطَاعُوا ودَفَنُوهُ ، فأَصْبَحَ وقَدْ لَفِظَتْهُ الأرْضُ عَلَى وَجْهِهَا ، فَعَلِمُوا أَنَّهُ لَيْسَ مِنْ فِعْلِ النَّاس ، فَأَلْقَوْهُ وتَرَكُوهُ مَنْبُوذاً !

قَالَ أَنسٌ – رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ – : فَحَدَّثَنِي أَبو طَلْحَةَ – رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ – أَنَّهُ أَتَى الأَرْضَ التِي مَاتَ فِيها ذلك الرَّجُلُ فَوَجَدَهُ مَنْبُوذاً ، فَقَالَ أَبو طَلْحَةَ : مَا شَأْنُ هَذا الرَّجُلِ ؟ فَقَالُوا : قَدْ دَفَنَاهُ مِراراً فَلَمْ تَقْبَلْهُ الأَرْضُ !**

والإنسانُ يَتَعَجَّبُ : لِمَ لَفِظَتْهُ الأرضُ ولَمْ تَقْبَلْهُ في بَطْنِها مَع أنَّ في بَطْنِها ملايينُ الكَافِرينَ جِيلاً بَعْدَ جِيلٍ ؟!

وقد قالَ اللَّهُ – تَعَالَىٰ – : { أَلَمْ نَجْعَلِ الأَرْضَ كِفَاتاً {٢٥} أَحْياءً وأَمْواتاً } [المُرْسَلات/٢٥–٢٦] أيْ : ظَهْرُهَا لأحْيائِكُم يَعِيشونَ عَلَيْها ، وبَطْنُها لأمْواتِكُم يُدْفَنُونَ فِيها ، ومَعَ أَنَّها اتَّسَعَتْ للمُسْلِمينَ والكَافِرينَ إلَّا أنَّها لَمْ تَقْبَلْ هَذا المَخْلُوق، ولَفِظَتْهُ مِنْ بَطْنِها ! ولَعَلَّ ذلكَ – واللَّهُ أعْلَمُ – لِشِدَّةِ قُبْحِ جَرِيمَتِهِ ، وافْتِرائهِ عَلَىٰ اللَّهِ – تَعَالَىٰ – والرَّسُولِ – صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وسَلَّم – وأذِيَّتِهِ لَهُ ، وقَدْ قَالَ اللَّهُ – عَزَّ وجَلَّ – : { إِنَّ الَّذِينَ يُؤْذُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَاباً مُّهِيناً } [الأَحْزاب/٥٧] وقَالَ – تَعَالَى – : { وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِباً أَوْ كَذَّبَ بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَافِرِينَ } [العَنْكَبُوت/٦٨]

وقَالَ – تَعَالَى – : { وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُوَ يُدْعَى إِلَى الْإِسْلَامِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ } [الصَّفّ/٧] وقَالَ – تَعَالَى – : { إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ } [النَّحْل/١١٦ ويُونس/٦٩]

وقَدْ تَوَعَّدَ اللَّهُ – تَعَالَىٰ – مَنْ وَقَعَ في عِرْضِ الرَّسُولِ الأكْرمِ بالذُّلِّ في الدُّنْيا ولَو في آخِرِ أنْفَاسِ حَيَاتِهِ ، وأنْ يُسَوِّدَ خَاتِمَتَهُ ويَفْضَحَهُ بَعْدَ مَوتِهِ فَقَالَ – عَزَّ مِنْ قَائلٍ – : { إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الْأَبْتَرُ } [الكَوْثَر/٣] أيْ : هُو الأذَلُّ والأقَلُّ ، المَلْعونُ دُنْيَا وآخِرَةٍ ، مَقْطُوعُ البَرَكَةِ مِنْ عُمُرِهِ وعَمَلِهِ !

{ ولَعَذابُ الآخِرَةِ أَشَدُّ وأَبْقَى } [طه/١٢٧]

وقدْ كانَ القَريبُ والبَعِيدُ مِمَّنْ عَرَفُوا النَّبِيَّ – صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وسلَّم – أو عَايَشُوه يُقِرُّونَ بفَضْلِهِ ويَعْتَرفُونَ بصِدْقِهِ ولَو سِرّاً بيْنَ خَواصِّ أَتْبَاعِهم وإنْ كانوا ينْكِرونَ نُبُوَّتَهُ في العَلانِيَّةِ

---

* في بَعْضِ الرواياتِ أنَّ هَذا الرَّجُلَ كَانَ نَصْرانِياً ثُمَّ أَسْلَمَ وقَرأَ البَقَرةَ وآلَ عِمْرانَ ... وعَامَّةُ رواياتِ هَذا الحَديث جَاءتْ مُطْلَقَةً غَيْرَ مُقَيّدةٍ لهُ بوَصْفٍ ، ولَيْسَ فيها أنَّ هذا الرَّجُلَ كانَ يَكْتُبُ الوَحْي ، وقَد ذَهَبَ الطَّحاوِيُّ – رَحِمَهُ اللَّهُ – إلَى أنَّه كَانَ يَكْتُبُ الرَّسَائلَ التي يَبْعَثُ بِها رَسُولُ اللَّهِ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – إلَى القَبَائلِ والزُّعَماءِ أو في دَعْوَتِهِ النَّاسَ إلى الإسْلام .
وانْظُر " شَرح المُشْكِل " (٨/٢٤٠–٢٤١)

ويَجْحَدونَ رِسَالَتَهُ أمامَ النَّاسِ ، كما قالَ – تَعَالَىٰ – : { قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزُنُكَ الَّذِي يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لا يُكَذِّبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ } [الأنعام/٣٣]

وقد كَانَ عُقَلاءُ النَّاسِ والمُنْصِفُونَ يَقْرأونَ هذا الصِّدْقَ والوَفاءَ في وجْهِ الرَّسُولِ الأكْرَمِ – صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وسلَّم – ومُطَالَعَةِ جِبِينِهِ الأزْهَرِ قَبْلِ سَمَاعِ صوتِهِ والكَلامِ مَعَهُ – صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وسلَّم – وأذكُرُ هُنا مَوْقِفاً واحِداً يُبَيِّنُ ذلِكَ ، وهو :

ما أخْرَجَهُ التِّرمِذِيُّ (٢٤٨٥) وابنُ مَاجَه (١٣٣٤) وأحمد (٥/٤٥١) وعَبْدُ بنُ حُمَيْدٍ (٤٩٦) والدَّارِمي (١٤٦٠و ٢٦٣٢) والحَاكِمُ (٤/١٥٩–١٦٠) والبَيْهَقِيُّ في " السُّنَن " (٢/٥٠٢) وفي " شُعَب الإيمان " (٨٧٤٩) وفي " دلائل النُّبُوَّةِ " (٢/٥٣١–٥٣٢) والبغويُّ في " شرح السُّنَّة " (٩٢٦) وغَيْرُهُم مِن طُرُقٍ عَن عَوْفٍ ابنِ أبي جَميلةَ الأعْرابيِّ عَنْ زُرارة بنِ أوْفَى عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بنِ سَلامٍ – رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ – قَال : لَمَّا قَدِمَ النَّبِيُّ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وسَلَّم – المَدينةَ انْجَفَلَ النَّاسُ عَلَيْهِ فكُنْتُ فِيمَنْ انْجَفَلَ – أيْ : اجْتَمَعُوا عِنْدَهُ وازدحَمُوا عَلَيْهِ – فَلَمَّا تَبَيَّنْتُ وَجْهَهُ عَرَفْتُ أنَّ وَجْهَهُ لَيْس بِوَجْهِ كَذَّابٍ ، فكَانَ أوَّلَ شَيءٍ سَمِعْتُهُ يَقُولُ : " أيُّها النَّاسُ أفْشُوا السَّلامَ وأطْعِمُوا الطَّعَامَ وصِلُوا الأرْحَامَ وصَلُّوا باللَّيْلِ والنَّاسُ نِيَامٌ تَدْخُلُوا الجَنَّةَ بسلامٍ " .

وقَدْ أجْمَعَ عُلَماءُ المُسْلِمينَ بلا خِلافٍ بَيْنَهم عَلَىٰ أنَّ مَنْ سَبَّ الرَّسُولَ – صَلَّىٰ اللَّىٰ عَلَيْهِ وسلَّم – أو آذاهُ وانْتَقَصهُ أنَّهُ يَكْفُرُ بذلكَ ويَخْرُجُ عَنْ دينِ المُسْلِمينَ ، وأنَّ عُقُوبَتَهُ القَتْلُ عَلَىٰ كُلِّ حالٍ :

قالَ إسْحاقُ بنُ راهَويْهِ – رحمه اللَّهُ – : أجْمَعَ المُسْلِمُونَ عَلَىٰ أنَّ مَنْ سَبَّ اللَّهَ – تَعالَىٰ – أو سَبَّ النَّبيَّ – صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وسلَّم – أو دَفَعَ شَيْئًا مِمَّا أنْزلَ اللَّهُ – عزَّ وجلَّ – أو قَتَلَ نَبِيًّا مِن الأنْبِياءِ = أنَّهُ كَافِرٌ بذلِكَ وإنْ كانَ مُقِرًّا بِكُلِّ ما أنْزَلَ اللَّهُ .

وقالَ القَاضِي عِياضٌ – رحِمه اللَّهُ – : أجْمَعَتِ الأمَّةُ عَلَىٰ قَتْلِ مُتَنَقِّصِهِ وسابِّهِ مِن المُسْلِمينَ .

وقالَ الخَطَّابيُّ – رحمه اللَّهُ – : لا أعْلَمُ أحَداً مِن المُسْلِمينَ اخْتَلَفَ في وجوبِ قَتْلِهِ .

وقالَ مُحَمَّدُ بنُ سُحْنُونَ – رحِمه اللَّهُ – : أجْمَعَ العُلَماءُ عَلَىٰ أنَّ شاتِمَ الرَّسولِ – صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وسَلَّم – والمُتَنَقِّصَ لَهُ كافرٌ ، والوَعِيْدُ جاءَ عَلَيْهِ بِعذابِ اللَّهِ له ، وحُكْمُهُ عندَ الأمَّةِ القَتْلُ ، ومَنْ شَكَّ في كُفْرِهِ وعَذابِهِ كَفَرَ .

وقَدْ رُوِيَ في ذلكَ سُنَنٌ كثيرةٌ ، منها : ما رواه أبو داود (٤٣٦٣) النَّسائي (٤٠٧٠) والحاكم في " المُسْتدرك " (٤/٣٥٤) والبَيْهَقِيُّ في " الكبرَى " (٧/٦٠و٨/٢٠٢و١٠/١٣١) والطَّبرانيُّ في " الكبير " (١١/٣٥١) والدَّارقطني (١٠٣) وغَيْرُهُم عَنْ ابنِ عَبَّاسٍ – رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُما – : أنَّ رَجُلاً أعْمَى كَانَتْ لَهُ أُمُّ وَلَدٍ تَشْتُمُ النَّبِيَّ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ

وسَلَّم – وتَقَعُ فِيهِ فيَنْهَاهَا فلا تَنْتَهِي ويَزْجُرُهَا فلا تَنْزَجِرُ ، قَالَ : فَلَمَّا كَانَتْ ذَاتَ لَيْلَةٍ جَعَلَتْ تَقَعُ فِي النَّبِيِّ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وسَلَّم – وتَشْتِمُهُ فأَخَذَ الْمِغْوَلَ فَوَضَعَهُ فِي بَطْنِهَا واتَّكَأَ عَلَيْهَا فقَتَلَهَا فوقَع بَيْنَ رِجْلَيْهَا طِفْلٌ فلَطَخَتْ مَا هُنَاكَ بِالدَّمِ ، فَلَمَّا أَصْبَحَ ذُكِرَ ذَلِكَ لِرَسُولِ اللَّهِ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وسَلَّم – فَجَمَعَ النَّاسَ ، فَقَالَ : «أَنْشُدُ اللَّهَ رَجُلاً فَعَلَ مَا فَعَلَ لِي عَلَيْهِ حَقٌّ إِلَّا قَامَ» فقَامَ الأَعْمَى يَتَخَطَّى النَّاسَ وَهُوَ يَتَزَلْزَلُ حَتَّى قَعَدَ بَيْنَ يَدَي النَّبِيِّ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وسَلَّمَ – فَقَالَ : يَا رَسُولَ اللَّهِ أَنَا صَاحِبُهَا كَانَتْ تَشْتِمُكَ وتَقَعُ فِيكَ فَأَنْهَاهَا فلا تَنْتَهِي وأَزْجُرُهَا فلا تَنْزَجِرُ ، وَلِي مِنْهَا ابْنَانِ مِثْلُ اللُّؤْلُؤَتَيْنِ وكَانَتْ بِي رَفِيقَةً ، فَلَمَّا كَانَتِ الْبَارِحَةَ جَعَلَتْ تَشْتِمُكَ وتَقَعُ فِيكَ ، فَأَخَذْتُ الْمِغْوَلَ - وهُوَ سَيْفٌ قَصِيرٌ - فوَضَعْتُهُ فِي بَطْنِهَا واتَّكَأْتُ عَلَيْهَا حَتَّى قَتَلْتُهَا .

فَقَالَ النَّبِيُّ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وسَلَّم – : «أَلَا اشْهَدُوا أَنَّ دَمَهَا هَدَرٌ ، أَلَا اشْهَدوا أَنَّ دَمَها هَدَرٌ» .

وأَخْرَجَ أبو داود (٤٣٦٣) والنَّسائيُّ في " الصُّغْرَى " (٤٠٧٤) وفي " الكُبْرَى " (٣٥٢٣) وغَيْرُهُما عَنْ أَبِي بَرْزَةَ الأَسْلَمِيِّ – رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ – قَالَ : كُنتُ عِنْدَ أَبِي بَكْرٍ – رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فَتَغَيَّظَ عَلَى رَجُلٍ فَاشْتَدَّ عَلَيْهِ ، فَقُلْتُ : تَأْذَنُ لِي يَا خَلِيفَةَ رَسُولِ اللَّهِ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وسَلَّم – أَضْرِبُ عُنُقَهُ ؟ قَالَ : فَأَذْهَبَتْ كَلِمَتِي غَضَبَهُ ، فَقَامَ فَدَخَلَ فَأَرْسَلَ إِلَيَّ فَقَالَ : مَا الَّذِي قُلْتَ آنِفاً ؟ قُلْتُ : ائْذَنْ لِي أَضْرِبُ عُنُقَهُ ! قَالَ : أَكُنْتَ فَاعِلاً لَوْ أَمَرْتُكَ ؟ قُلْتُ : نَعَمْ . قَالَ : لا وَاللَّهِ مَا كَانَتْ لِبَشَرٍ بَعْدَ مُحَمَّدٍ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وسَلَّم – .

وفي الجُملَةِ قَالَ أبو بكرِ ابْنُ المُنْذِرِ – رحمه اللَّهُ – : أَجْمَعَ عَوامُّ أَهْل العِلْمِ عَلَىٰ أَنَّ مَنْ سَبَّ النَّبيَّ – صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وسَلَّم – يُقْتَلُ . أيْ : بِسَبَبِ سَبِّهِ وانْتِقاصِهِ ، واللَّهُ أعْلَم .

وهذه الآيةُ التي افْتَتَحْنا الكلامَ بها – أيُّها الإخوةُ الكرامُ – أصْلٌ كبيرٌ في وُجُوبِ التَّأسِّي بالرَّسولِ الأكْرمِ والنَّبيِّ الأعْظَمِ مُحَمَّدٍ – صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وسَلَّم – في أقوالِهِ وأفعالِهِ وأحْوالِهِ عَلَىٰ جِهَةِ العُموم .

وقد ذكَرَ اللَّهُ – تَعالَىٰ – الأُسوةَ في ثلاثةِ مواضعَ مِن كتابِهِ بالنَّصِّ ، وذكَرَها بالمعنىٰ في آياتٍ أخرىٰ كثيرةٍ :

أمَّا ورودُها بالنَّصِّ : ففي هذه الآيةِ التي ذكرناها من سورةِ الأحزاب : {لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيراً} [الأحزاب/٢١]

وقال اللَّهُ – عزَّ وجلَّ – : {قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءاءُ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاء أَبَداً حَتَّى تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحْدَهُ إِلا قَوْلَ إِبْرَاهِيمَ لأَبِيهِ لأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ وَمَا أَمْلِكُ لَكَ مِنَ اللَّهِ مِن شَيْءٍ رَبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ} [الممتحنة/٤]

وقال بَعْدَها بآيةٍ : {لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِيهِمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الآخِرَ وَمَن يَتَوَلَّ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ} [الممتحنة/٦]

وأمَّا ورودُها بالمَعْنَىٰ : ففي مِثْلِ قولِه – تَعالىٰ – : {ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنِ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفاً وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ} [النَّحل/١٢٣] : فهذا أمرٌ للنَّبيِّ – صلَّىٰ اللَّهُ عليه وسلَّم – ولأتباعِهِ المؤمنين به معه وبعدَه = أنْ تأسَّوْا بإبراهيم – عليه السَّلام – واجعلوه لكم إمامًا وقدوةً واتَّبِعوا مِلَّتَهُ وانتفِعوا بِهَدْيِهِ واستفيدوا مِن سِيرَتِهِ فإنَّه كان {حنيفاً} أيْ مؤمِنًا مُوحِّداً {وما كان مِن المشركين} أيْ : كان بريئًا من الشِّرْكِ وأهْلِه : بعيداً عنهم وبريئًا منهم .

وكان النَّبيُّ – صَلَّىٰ اللَّهُ عليهِ وسلَّم – كثيراً ما يذكُرُ مِلَّةَ أبيهِ إبراهيمَ – عليه السَّلامُ – ويُبَيِّنُ أنَّه ثابتٌ عليها ومُسْتَمسِكٌ بها ، ومِن ذلك :

ما رواه النَّسائيُّ في " عمل اليوم واللَّيْلةِ " (١و٣٤٣و٣٤٤) وأحمدُ في " مُسْنَدِهِ " (٣/٤٠٧) والدَّارميُّ في " مسندِهِ " (٢٦٨) وغيرُهم مِن طُرُقٍ عن عبداللَّهِ بنِ عبد الرحمن بن أبزى عن أبيه قال : كان رسولُ اللَّهِ – صَلَّى اللَّهُ عليهِ وسلَّم – إذا أصْبَحَ قال : " أصْبَحْنَا على فِطرَةِ الإسْلامِ وعلى كلمةِ الإخْلاصِ وعلى دينِ نبيِّنَا مُحَمَّدٍ وعلى مِلَّةِ أبينا إبراهيمَ حنيفاً مُسْلِماً وما كا مِن المُشْركين "

أيْ : أصْبَحْتُ ثابتًا عَلَىٰ مِلَّةِ أبينا إبراهيم – عليه السَّلام – ومُتَمَسِّكًا ومُلتَزِمًا بِها .

---

* وصَحَّحَهُ الألبانيُّ في " الصَّحيحة " (٦/ ٢٣٠رقم٢٩٨٩)

وقد أمَرَنا اللَّهُ – عزَّ وجَلَّ – صَراحَةً ونَصًّا باتّباعِ ملَّةِ إبْراهيمَ – عليْهِ السَّلام – ، وألّا نَنْحَرِفَ عَنْ هَدْيِهِ ، وألّا نَنْصَرِفَ عنْ مَنْهَجِهِ ، وألّا نَزيغَ عن طريقِهِ وسُنَّتِهِ ، فقال – عزَّ مِن قَائِلٍ – : {قُلْ صَدَقَ اللَّهُ فَاتَّبِعُواْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفاً وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ} [آل عمران/٩٥]

وقد جَعَلَ اللَّهُ – تَعَالَىٰ – إبْراهيمَ – عليهِ السَّلامُ – إمامَ هُدىً يُقتَدَىٰ بهَدْيِهِ ، وجعلَ مِلَّتَهُ نِبراسًا يُحْتَذَىٰ حَذْوُهُ ، ومقياسًا لا يزيغُ عنه إلّا ظالِمٌ لنفسِهِ وهالكٌ كما قال اللَّهُ – تَعَالَىٰ – : {وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلاَّ مَنْ سَفِهَ نَفْسَهُ وَلَقَدِ اصْطَفَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ} [البقرة/١٣٠]

{ومَن يَرغبُ عن مِلَّةِ إبراهيم} أيْ : يُخَالِفُهَا ويَزيغُ وينحَرِفُ عنها {إلا مَنْ سَفِهَ نفسَهُ} أيْ : ظَلَمَ نَفْسَهُ بِسَفَهِهِ وفسادِ عقلِهِ وسوءِ فهمِهِ وتدبيره .

ولَمَّا كَفَرَ المُشْركون الأوائلُ وصَدُّوا عن وَحْيِ السَّمَاءِ وآذَوْا الرَّسولَ – صلَّىٰ اللَّهُ عليه وسلَّم – والمُؤمنين معه ، وأوجَعتْ عِصِيُّهمُ الغَليظةُ ظُهورَ المؤمنين = قال اللَّه – عَزَّ وجَلَّ – لنبيِّهِ – صلَّىٰ اللَّهُ عليهِ وسلَّم – : {فاصبِرْ كما صَبَرَ أُولُوا العزْمِ مِنَ الرُّسُلِ ولا تَسْتَعْجِلْ لهم} [الأحقاف/٣٥]

أيْ : لا تكُنْ خَفيفًا ولا طائِشًا ، لا تكُنْ مُتَسرِّعًا ولا مُتَعَجِّلاً ، ولا تَسْتَفِزَّكَ حماقاتُ النَّاس وسفاهاتُ الخَلْقِ وسُوءُ تعامُلِهم وفَسَادُ أخْلاقِهم ، ولا كفرُهم وعِصْيَانُهم ، وكُن حليمًا وثابتًا كما كان إخوانُك أولوا العزمِ مِن الرُّسُل ، وتأسَّ بهم في حِلْمِهم وثَبَاتِهم ، واقْتَدِ بهم في تَحَمُّلِهم وصَبْرِهم {فاصبِرْ كما صَبَرَ أُولُوا العزْمِ مِنَ الرُّسُلِ ولا تَسْتَعْجِلْ لهم} [الأحقاف/٣٥]

وفي سُورةِ الأنعامِ بعدَ أنْ ذَكَرَ اللَّهُ – عزَّ وجلَّ – ثَمَانِيَةَ عَشَرَ نبيًّا في نَسَقٍ واحِدٍ : نبيٌّ يتلوهُ نبيٌّ ورسولٌ بعدَ رسولٍ ، وذَكَرَ فضائِلَهم ومَحاسِنَهم = قال لنَبِيِّهِ – صلَّىٰ اللَّهُ عليهِ وسَلَّم – : {أُوْلَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ} [الأنعام/٩٠] أيْ : تَأَسَّ بهؤلاءِ الكُمَّلِ ، واقْتَدِ بهؤلاءِ الأفاضل .

فجمع اللَّهُ – تَعَالَىٰ – له من الفضائلِ والمَحاسِنِ ومَكارمِ الأخلاقِ والصِّفاتِ ما فرَّقه في غيرِهِ من الأنبياءِ والرُّسُلِ ، فكان – صلَّىٰ اللَّهُ عليه وسلَّم – أفضلَهم وأكْمَلَهُم وسيِّدَهم والمُقدَّمَ بينَهم ، وأعطاه اللَّهُ – تعالَىٰ – مِن الكمالِ والخَيْرِ ما لم يُعْطِ أحداً غيرَه من العالَمين – صَلَّىٰ اللَّهُ عليه وسلَّم – .

والأُسْوَةُ – أيُّهَا الإخْوةُ – هي القُدْوَةُ ، أو مَا يُسَمِّيهِ بَعْضُ النَّاسِ اليَومَ بـ " المَثَل الأعْلَىٰ " !
علىٰ أنَّ عِبارةَ " المَثَل الأعلىٰ " لا يَصِحُّ أنْ تُقال إلَّا للَّهِ وَحْدَهُ ، ولا يَجُوزُ أنْ تُطْلَقَ عَلىٰ غَيْرِهِ أصْلاً ، لا لمَلَكٍ مُقَرَّبٍ ولا لنَبِيٍّ مُرْسَلٍ فَضْلاً عَمَّن سِواهم مِن صُنُوفِ الخَلْقِ ، والدَّليلُ علَىٰ ذلك مِن وَجْهَيْن :
الوجهُ الأوَّل : نَظْمُ القرآنِ وسَبْكُ كلامِ العَرَبِ ، فإنَّ اللَّهَ – تَعَالَىٰ – قد ذَكَرَ المَثَلَ الأعْلَىٰ في موضعينِ مِن كتابِه :
الموضعُ الأوَّل : في سورة النَّحل ، قال اللَّهُ – تَعَالَىٰ – : {لِلَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ مَثَلُ السَّوْءِ وَلِلّهِ الْمَثَلُ الأَعْلَىَ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ} [النَّحل/٦٠]
والموضعُ الثَّاني : في سورة الرُّوم ، قال اللَّهُ – تَعَالَىٰ – : {وَهُوَ الَّذِي يَبْدأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ وَلَهُ الْمَثَلُ الأَعْلَى فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ} [الروم/٢٧]
ففي الآيَتَيْنِ قدَّم ما حقُّه التَّأخير لإرادةِ الحَصْرِ والتَّخْصِيص* ، وأنَّ المَثَلَ الأعْلَىٰ مِن خَصَائِصِهِ – سُبْحانَهُ وبِحَمْدِهِ – وأنَّه لا يُشَارِكُهُ في ذلك أحدٌ ، ولا يُطْلَقُ عَلَىٰ غَيْرِهِ أصلاً .
وأمَّا الوَجْهُ الثَّاني : فالمَعْنَىٰ ، إذ إنَّ المَثَلَ الأعْلَىٰ هو الوَصْفُ الأكْمَلُ** الذي بَلَغَ في الحُسْنِ

---

* لأنَّ سَبْكَ الكلام خارج القرآن في الآيةِ الأولَى : " والمثَلُ الأعلَى لله " وفي الثَّانية : " والمَثَلُ الأعْلَى له في السَّمواتِ والأرضِ " ، لكنَّ نَظْمَ القُرآن قَدَّمَ الجارَّ والمَجْرُورَ فى المَوضِعَين – مَعَ أنَّ حَقَّهما التَّأخِير - فقال في الموضعِ الأوَّلِ : { وللَّهِ المَثَلُ الأعْلَى } وفي الثَّاني : { ولَهُ المَثَلُ الأعْلَى } !
ومِنْ المَعْروفِ في لسانِ العَرَبِ أنَّ تَقْديمَ مَا حَقُّهُ التَّأخِيرُ يَدُلُّ علَى الاخْتِصاصِ والحَصْرِ ، ومِنْ ذلِكَ :
قَولُ اللَّهِ – تعالَى - : { وَلِلّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَاللّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ } [آل عِمْران/١٨٩]
وأصْلُ الكلامِ خارجُ القُرآنِ : " ومُلْكُ السَّمواتِ والأرضِ للَّهِ " وإنَّما قَدَّمَ ما حَقُّهُ التَّأخِيرِ لإفادةِ الحَصْرِ والاختصاصِ ، وأنَّ مُلْكَ السَّمواتِ والأرضِ مُلْكٌ خَالِصٌ لِلَّهِ – عَزَّ وجلَّ – ليْس لأحَدٍ فيه شراكةٌ ولَوْ بمثْقالِ ذَرَّةٍ ، ولَيْسَ للَّهِ – تَعالَى – وزيرٌ ولا مُعِينٌ ، كما قالَ اللَّهُ – عَزَّ وجَلَّ - : { قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ وَمَا لَهُ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ {٢٢ } وَلَا تَنفَعُ الشَّفَاعَةُ عِندَهُ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ حَتَّى إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ قَالُوا مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ قَالُوا الْحَقَّ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ } [سَبأ/٢٢-٢٣] فانْتَفَتْ كُلُّ صُوَرِ المُلْكِ وكُلُّ أسْبابِ الأمرِ ، وبَقِيَ المُلْكُ خالِصاً لِرَبِّ العَالَمِينَ – سبحانَهُ وبحَمْدِهِ - .
وقولُ اللَّهِ – تَعَالَى - : { أَلَا لَهُ الخَلْقُ والأمْرُ تَبَارَكَ اللّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ } [الأعْراف/٥٤] أيْ : هو الخالِقُ وَحْدَهُ لا خَالِقَ غَيْرُهُ ، وهُوَ الآمِرُ وَحْدَهُ فلا مُعَقِّبَ لأمْرِهِ ، وليْسَ له في خَلْقِهِ وأمْرِهِ شَريكٌ ولا ظَهير ولا مُعِينٌ ولا وزيرٌ .
وقولُ اللَّهِ – تَعالَى - : { إِيَّاكَ نَعْبُدُ وإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ } [الفاتِحة /٥] أيْ : لا نَعْبُدُ إلَّا أنْتَ ولا نَسْتَعينُ إلَّا بِكَ ، فلا مَعْبودَ بحَقٍّ إلَّا أنْتَ ولا حَوْلَ ولا قُوَّةَ إلَّا بِكَ ... ونظائرُ هذا كثيرةٌ .
** فتأتي كلمةُ " المَثَل " بمَعْنَى الصِّفَةِ أو الوَصْفِ كثيراً في نُصُوصِ الكِتابِ والسُّنَّةِ ، ومِنْ ذلِكَ :
قولُهُ – تَعَالَى - : { مَّثَلُ الَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمْ أَعْمَالُهُمْ كَرَمَادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ في يَوْمٍ عَاصِفٍ لا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُواْ عَلَى شَيْءٍ ذَلِكَ هُوَ الضَّلالُ الْبَعِيدُ }[إبراهيم/١٨] أيْ : صِفَةُ أعمالهم كذلك .
وقولُهُ – تَعَالَى - : { مثَلُ الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ في سَبِيلِ اللّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ في كُلِّ سُنبُلَةٍ مِّئَةُ حَبَّةٍ وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَن يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ } [البقرة/٢٦١] أيْ : صفةُ ذلك .
وقَوْلُهُ – تَعالَى - : { مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ فِيهَا أَنْهَارٌ مِّن مَّاء غَيْرِ آسِنٍ وَأَنْهَارٌ مِن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ وَأَنْهَارٌ مِّنْ خَمرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّارِبِينَ وَأَنْهَارٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى وَلَهُمْ فِيهَا مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَمَغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ } [مُحمَّد/١٥] ونَحْوُها في [الرعد/٣٥]

والكمالِ مُنْتَهاهُ ، فهو الكاملُ في وجودِهِ لم يَسْبِقْهُ عَدَمٌ ولا يَلْحَقُهُ فَناءٌ ولا يَحْتاجُ في وجودِهِ إِلَىٰ غيْرِهِ ، وهو الكاملُ في حَياتِهِ بِحَيْثُ لا يَلْحَقُهُ نَقْصٌ ولا ضَعْفٌ ولا فناءٌ ، وهو الكاملُ في عِلْمه المُحِيطُ بكلِّ خافيةٍ في الأرضِ وفي السَّماءِ الخبيرُ بالسِّرِّ والعلانيَّةِ والغَيْبِ والشَّهادةِ ، الذي لم يُسْبَقْ عِلْمُهُ بِجَهْلٍ ولا يَلْحَقُهُ ضلالٌ ولا نِسْيانٌ ولا سَهْوٌ ... وهكذا في كُلِّ صفةٍ من صفاتِهِ .

وهَذا المَعْنَىٰ لا يَثْبُتُ لِمَخْلُوقٍ مَلَكٍ أو رسولٍ ، وهو من خصائصِ الخالِقِ العظيمِ ، وهو مَدْلُولُ اسمِ اللَّهِ الصَّمدُ عَلَىٰ أشْهرِ أقوالِ المُفَسِّرينَ فيه * أَنَّهُ السَّيِّدُ الذي كَمُلَ في سُؤْدُدِهِ :

فهو الحي الذي كَمُلَ في حَياتِهِ ، وهُو السَّميعُ الذي كَمُلَ في سَمْعِهِ ، وهو البَصِيرُ الذي كَمُلَ في بَصَرِهِ ، وهو العَلِيمُ الذي كَمُلَ في عِلْمِهِ ، وهو الرَّحِيمُ الذي كَمُلَ في رحْمَتِهِ ، وهو العَزيزُ الذي كَمُلَ في عِزَّتِهِ ، وهو الحَكِيمُ الذي كَمُلَ في حِكْمَتِهِ ، وهو القَديرُ الذي كَمُلَ في قُدْرتِهِ... وهكذا .

قَالَ ابْنِ عَبَّاسٍ – رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُما - : الصَّمَدُ السَّيِّدُ الَّذِي قَدْ كَمُلَ في سُؤْدُدِهِ ، وَالشَّرِيفُ الَّذِي قَدْ كَمُلَ في شَرَفِهِ ، وَالْعَظِيمُ الَّذِي قَدْ كَمُلَ في عَظَمَتِهِ ، وَالْحَلِيمُ الَّذِي قَدْ كَمُلَ في حِلْمِهِ ، وَالْغَنِيُّ الَّذِي قَدْ كَمُلَ في غِنَاهُ ، وَالْجَبَّارُ الَّذِي قَدْ كَمُلَ في جَبَرُوتِهِ ، وَالْعَالِمُ الَّذِي قَدْ كَمُلَ في عِلْمِهِ ، وَالْحَكِيمُ الَّذِي قَدْ كَمُلَ في حِكْمَتِهِ ، وَهُوَ الَّذِي قَدْ كَمُلَ في أَنْوَاعِ الشَّرَفِ وَالسُّؤْدُدِ ، وَهُوَ اللَّهُ – سُبْحَانَهُ – هَذِهِ صِفَتُهُ لا تَنْبَغِي إِلَّا لَهُ ، لَيْسَ لَهُ كُفُوٌ ، ولَيْس كَمِثْلِهِ شَيءٌ .**

فدلَّ ذلكَ عَلىٰ أنَّ هذا المَعْنىٰ " المَثَلُ الأعْلَىٰ " يَخْتَصُّ باللَّهِ – تَعالَىٰ - ولا يَصِحُّ أنْ يُطْلَقَ عَلَىٰ غَيْرِهِ مِنْ مَخْلُوقَاتِهِ لا مَلَكٍ مُقَرَّبٍ ولا نَبيٍّ مُرْسَلٍ ولا مَنْ دونَهُما .

---

* اختلَفَ أهلُ العلم في مَعنى اسمِ اللَّهِ – تَعالَى – " الصَّمَد " على أقوالٍ كثيرةٍ مَشْهورةٍ حتَّى عدَّ بعضُهم فيه عَشْرةَ أقوالٍ !

قالَ المَاوَرْدِي – رَحِمَهُ اللَّهُ - : {اللَّهُ الصَّمَدُ } فيه عَشْرَةُ تأويلاتٍ :

أحَدُهَا : أنَّ الصَّمَدَ المُصْمَتُ الذِي لا جَوْفَ لَهُ ، قَالَهُ الحَسَنُ وعكرمةُ والضَّحَّاكُ وابنُ جُبَيْرٍ ، قال الشَّاعِرُ :

شِهَابُ حُروبٍ لا تَزالُ جِيَادُهُ *** عَوَابِسَ يَعْلُكْنَ الشَّكيمَ المُصَمَّدا

الثَّاني : هُو الذِي لا يَأْكُلُ ولا يَشْرَبُ ، قاله الشَّعْبِيُّ .

الثَّالثُ : أنَّه البَاقِي الذِي لا يَفْنَى ، قالَهُ قَتَادةُ ، وقَالَ الحَسَنُ : إنَّه الدَّائِمُ الذي لَم يَزَلْ ولا يَزالُ .

الرَّابِعُ : هُو الذِي لَم يَلِدْ ولم يُولَدْ ، قالَهُ مُحَمَّد بن كَعْب .

الخامِسُ : أنَّه الذِي يَصْمُدُ النَّاس إلَيْهِ في حَوائِجِهِم ، قَالَهُ ابن عَبَّاسٍ ، ومِنه قَوْلُ الشَّاعِرِ :

أَلَا بَكَرَ النَّاعِي بخَيْرَيْ بَنِي أَسَدْ *** بعَمرِو بنِ مَسْعودٍ وبالسَّيِّدِ الصَّمَدْ

السَّادسُ : أنَّه السَّيِّدُ الذي قد انْتَهَى سُؤْدُدُهُ ، قاله أبو وائلٍ وسفيان ، وقال الشَّاعِرُ :

عَلَوْتُه بحُسامٍ ثُمَّ قُلْتُ لَهُ *** خُذْها حُذَيْفَ فأنْتَ السَّيِّدُ الصَّمَدُ

السَّابعُ : أنَّه الكاملُ الذي لا عَيْبَ فيهِ ، قَالَهُ مُقَاتِلُ ، ومنه قولُ الزُّبْرُقانِ :

ساروا جَميعاً بِنِصْفِ اللَّيْلِ واعْتَمدوا *** ولا رهينةَ إلَّا السَّيِّدُ الصَّمَدُ

الثَّامِنُ : أنَّهُ المَقْصودُ إلَيْهِ في الرَّغَائِبِ ، والمُسْتَغَاثُ بِهِ في المَصَائِبِ ، قَالَهُ السُدِّي .

التَّاسِعُ : أنَّه المُسْتَغْنِي عَنْ كُلِّ أحَدٍ ، قَالَهُ أبو هُريرةَ .

العَاشِرُ : أنَّه الذي يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ ويَحْكُمُ بما يُريدُ ، قالَهُ الحُسَيْنُ بنُ فُضَيْلٍ .

" النُكَت والعُيُون " (٦/ ٣٧١-٣٧٢) وانظر " تفسير القرآن العظيم " لابن كثيرٍ (٨/٥٢٨-٥٢٩ – طَيْبة)

** " تفسير ابن أبي حاتِمٍ " (١٠/ ٣٤٧٤) " جامع البيان " للطَّبريّ (٢٤/٧٣٦ – عالم الكتب)

فائدةٌ : اسمُ " السَّيِّد " مِن الأسماءِ المُخْتَصَّةِ باللَّهِ – تَعالَى – ولا يُجوزُ أنْ يُسَمَّى بها غيرُهُ ، وقد وَرَدَ في ذلكَ ما رواهُ البخاريُّ في " الأدب المُفْرد " (٢١١) وأبو داودَ (٤٨٠٦) والنَّسائيُّ في " الكبرى " (١٠٠٧٦) وأحمد في " المسند " (٢٤/٤و٢٥) وغَيْرُهُم عن مُطَرِّفِ بنِ عَبْدِ اللَّهِ بن الشِّخِّير – رحِمَهُ اللَّهُ – قال : قَالَ أَبِي : انْطَلَقْتُ فِي وَفْدِ بَنِي عَامِرٍ إِلَى النَّبِيِّ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – فَقَالُوا : أَنْتَ سَيِّدُنَا ! فَقَالَ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وسلَّم - : « السَّيِّدُ اللَّهُ » قَالُوا : وَأَفْضَلُنَا فَضْلاً وَأَعْظَمُنَا طَوْلاً ! فَقَالَ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وسلَّم - : « قُولُوا بِقَوْلِكُمْ وَلا يَسْتَجْرِيَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ »

فدلَّ تَعْريفُ طَرَفِ الكلامِ مِن المُبْتَدَأ والخَبَرِ عَلَى اخْتِصاصِ اللَّهِ – تَعالَى – باسم " السَّيِّد " * .

وهذا الحكمُ في اسم " السَّيِّد " إنَّما يكونُ في اللَّفْظِ المُحَلَّى بالألِفِ واللام " السَّيِّد " دون اللَّفْظِ المُنَكَّر " سيِّد " فإنَّ إطلاقَهُ وَرَدَ في عِدَّةِ نُصوصٍ ، منها :

ما أَخْرَجَهُ مُسلِمٌ (٢٢٧٨) وأبو داود (٤٦٧٣) وأحمد (٥٤٠/٢) وغَيْرُهُم عن أَبِي هُرَيْرَةَ – رضِيَ اللَّهُ عنه – قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - : " أَنَا سَيِّدُ وَلَدِ آدَمَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، وَأَوَّلُ مَنْ يَنْشَقُّ عَنْهُ الْقَبْرُ ، وَأَوَّلُ شَافِعٍ وَأَوَّلُ مُشَفَّعٍ " .

وأخرج البُخَارِيُّ (٣٠٤٣) ومسلمٌ (١٧٦٨) وغَيْرُهُما عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الخُدْرِيِّ – رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ – قَالَ : لَمَّا نَزَلَتْ بَنُو قُرَيْظَةَ عَلَى حُكْمِ سَعْدِ بْنِ مُعَاذٍ بَعَثَ رَسُولُ اللَّهِ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيهِ وسَلَّمَ – وَكَانَ قَرِيباً مِنْهُ ، فَجَاءَ عَلَى حِمَارٍ ، فَلَمَّا دَنَا قَالَ رَسُولُ اللَّهِ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيهِ وسَلَّمَ - : " قُومُوا إِلَى سَيِّدِكُمْ " فَجَاءَ فَجَلَسَ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ – صَلَّى اللَّه عَلَيهِ وسَلَّمَ – فَقَالَ لَهُ : " إِنَّ هَؤُلاَءِ نَزَلُوا عَلَى حُكْمِكَ " قَالَ : فَإِنِّي أَحْكُمُ أَنْ تُقْتَلَ مُقَاتِلَتُهُم ، وَأَنْ تُسْبَى ذَرارِيهِم ! فَقَالَ : " لَقَدْ حَكَمْتَ فِيهِمْ بِحُكْمِ المَلِكِ " .

وأخرج البخاريُّ في " الأدب المفرد " (٢٩٦) وغيرُهُ عن جَابِرِ بنِ عَبْدِ اللَّهِ – رضِيَ اللَّهُ عنهما – قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - : « مَنْ سَيِّدُكُمْ يَا بَنِي سَلِمَةَ ؟ » قَالوا : جُدُّ بْنُ قَيْسٍ عَلَى أَنَّا نُبَخِّلُهُ ! قَالَ : « وَأَيُّ دَاءٍ أَدْوَى مِنَ الْبُخْلِ ؟ بَلْ سَيِّدُكُمْ عَمْرُو بْنُ الْجَمُوحِ » وَكَانَ عَمْرٌو يُولِمُ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - إِذَا تَزَوَّجَ .

وأَخْرَجَ البُخَارِيُّ (٣٦٢٩) وأبو داود (٤٦٦٢) والترمذي (٣٧٧٣) والنَّسائي في " المجْتَبى " (١٤١٠) وفي " الكبرى " (١٧١٨ و ٨١٦٦) وغيرُهُم عَنْ أَبِي بَكْرَةَ – رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ – قَالَ : أَخْرَجَ النَّبِيُّ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيهِ وسَلَّمَ - ذَاتَ يَوْمٍ الحَسَنَ فَصَعِدَ بِهِ عَلَى المِنْبَرِ فَقَالَ : إِنَّ ابْنِي هَذَا سَيِّدٌ ، وَلَعَلَّ اللَّهَ أَنْ يُصْلِحَ بِهِ بَيْنَ فِئَتَيْنِ مِنَ المُسْلِمِينَ " ... والنُّصوصُ في ذلك كثيرةٌ .

---

* وبنحو هذا الاستِدلالِ اسْتَدلَّ جماعةٌ من العُلَماءِ على اخْتصاصِ اللَّهِ – تَعالَى – باسمِ " الحكم " كما رواه البُخاريُّ في " الأدب المُفْرد " (٨١١) وأبو داود في " سُنَنِهِ " (٤٩٥٥) والنَّسائيُّ في " الكُبْرى " (٥٩٤٠) وابنُ حِبَّانَ في " صحيحِهِ " (٥٠٤) وغَيْرُهُم عَنْ شُرَيْحِ بْنِ هَانِئٍ قَالَ : حَدَّثَنِي هَانِئُ بْنُ يَزِيدَ : أَنَّهُ لَمَّا وَفَدَ إِلَى النَّبِيِّ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – مَعَ قَوْمِهِ فَسَمِعَهُمُ النَّبِيُّ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – وَهُمْ يُكَنُّونَهُ بِأَبِي الْحَكَمِ ! فَدَعَاهُ النَّبِيُّ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – فَقَالَ : « إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَكَمُ وَإِلَيْهِ الْحُكْمُ ، فَلِمَ تَكَنَّيْتَ بِأَبِي الْحَكَمِ ؟ » قَالَ : لا ، وَلَكِنَّ قَوْمِي إِذَا اخْتَلَفُوا فِي شَيْءٍ أَتَوْنِي فَحَكَمْتُ بَيْنَهُمْ فَرَضِيَ كِلَا الْفَرِيقَيْنِ ، قَالَ : « مَا أَحْسَنَ هَذَا » أيْ : ما أحْسَنَ الإصْلاحَ بيْنَ النَّاسِ وفَضِّ مُنازعاتِهم والحُكْمُ بيْنَهم بالعَدْلِ والقِسْطِ ! ثُمَّ قَالَ : « مَا لَكَ مِنَ الوَلَدِ ؟ » قُلْتُ : لِي شُرَيْحٌ وَعَبْدُ اللَّهِ وَمُسْلِمٌ .

قَالَ : « فَمَنْ أَكْبَرُهُمْ ؟ » قُلْتُ : شُرَيْحٌ . قَالَ : « فَأَنْتَ أَبُو شُرَيْحٍ » ، وَدَعَا لَهُ وَلِوَلَدِهِ .

وإنَّما نَفَى عنه التَّكَنِّي بأبي الحَكَم لأنَّ اللَّهَ – تَعالَى – هُو الحَكَمُ وإلَيْهِ الحُكْمُ قَدَراً وشرعاً كما قالَ – تَعالَى - { إِنِ الحُكمُ إلَّا لِلَّهِ يَقُصُّ الْحَقَّ وَهُوَ خَيْرُ الْفَاصِلِينَ } [الأنْعَام/٥٧] والخَلْقُ جميعاً عَبِيدُهُ وصَنْعَتُهُ ، وأنفاسُهُم بأمْرِهِ ونَبْضُ قُلُوبِهِم بِيَدِهِ يَجْرِي عَلَيْهِم حُكْمُهُ ويَمْضِي فِيهِم أمرُهُ ، يُحْيِي مَنْ يَشاءُ ويُمِيتُ مَنْ يَشاءُ ، يُعِزُّ مَنْ يَشاءُ ويُذِلُّ مَنْ يَشَاءُ ، يُعافِي مَنْ يَشاءُ ويَهْدِيه بفضْلِهِ ، ويَبْتَلِي مَنْ يَشَاءُ ويُضِلُّهُ بِعَدْلِهِ ، ولا رادَّ لأمْرِهِ فِيهِم ولا مُعَقِّبَ لِحُكمهِ علَيْهِم {وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ } [الأنعام/١٨] .

وكذلك قالَ بعضُ أهْلِ العلْمِ في اسم " الطَّبيب " أنَّه من الأسْماءِ المختَصَّةِ باللَّهِ – تَعالَى - ، واسْتَدلَّ علَى ذلك بأدلَّةٍ منها : ما رواه أبو داود (٤٢٠٩) والنَّسائيُّ في " المُجْتَبَى " (أحمد (١٦٣/٤) وغَيْرُهُم عَنْ أَبِى رِمْثَةَ قَالَ : أَتَيْتُ النَّبِيَّ – صَلَّى اللَّهُ علَيْهِ وسلَّم – مع أبي فرأى التي بظَهْرِهِ – يَعْني خاتَمَ النُّبُوَّةِ – فَقَالَ لَهُ أَبِى : أَرِنِى هَذَا الَّذِى بِظَهْرِكَ فَإِنِّى رَجُلٌ طَبِيبٌ ! فَقَالَ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وسلَّم - : « اللَّهُ الطَّبِيبُ ، وأَنْتَ رَجُلٌ رَفِيقٌ ، طَبِيبُهَا الَّذِى خَلَقَهَا »

وقد وَرَدَتْ فيه نُصوصٌ أُخْرَى ، وأكثرُ المُصَنِّفينَ على أنَّهُ صِفةٌ لا اسمٌ ! وفيه بحثٌ ليْسَ هذا مَوْضِعَهُ ، واللَّهُ أعلم .

والتَّأسِّي والاقتداءُ – أيُّها الإخوةُ – مِن جملةِ أخلاقِ النَّاس وعاداتِهم في الدُّنيا ، وأنَّهم يُؤثِّرُ بعضُهم في بعضٍ ، ويتأسَّىٰ بعضُهم ببعضٍ ويُقَلِّدُ بعضُهم بعضاً في الخيرِ والشَّر ، والطَّاعةِ والمعصيةِ ، والبِرِّ والإثمِ والهُدىٰ والضَّلالِ ، والصَّبرِ والجَزَعِ :

ومن ذلك قولُ أبي ذؤيْبٍ الهُذَلي – رحمه اللَّهُ – لَمَّا مات أولادُهُ الخَمْسَةُ في وقتٍ واحدٍ بسَبَبِ الطَّاعون فأخذَ يُقَلِّبُهم بين يديه وهم موتىٰ جميعاً ، وهو يقولُ :

(١) أَوْدَىٰ بَنِيَّ وأعقبوني غُصَّةً *** بَعْدَ الرُّقادِ وعَبرةً لا تُقْلِعُ

(٢) سَبَقُوا هَوَيَّ وأعنقوا لهواهُمُ *** فَتُخِرِّمُوا ولكلِّ جنبٍ مَصْرَعُ

(٣) فغَبَرْتُ بَعْدَهُمُ بعَيْشٍ ناصِبٍ *** وإِخَالُ أنِّي لاحِقٌ مُسْتَتْبَعُ

(٤) لابدَّ مِنْ تَلَفٍ مُقيمٍ فانتَظِرْ *** أبأرضِ قومِكَ أَمْ بأُخْرَىٰ المَضجَعُ

(٥) كم مِن جَميعِي الشَّمْلِ مُلْتَئِمِي الهَوَىٰ *** كانوا بعيشٍ ناعِمٍ فتصدَّعُوا

معلومٌ عند الكُلِّ أنَّ كلَّ رجُلٍ في الدُّنيا يتمنَّىٰ لأولادِهِ طولَ العُمُرِ ودوامَ السَّلامةِ والعافيةِ .

وموتُ الوَلدِ مُصيبة كبيرةٌ علىٰ والدَيْه أبيهِ وأمِّهِ ، إذا ماتَ الولَدُ كأنَّك قطعتَ جُزءً من لحمِ أبيهِ وأُمِّهِ ودفنتَهُ في قبرٍ ، فالأولادُ هم الرُّوحُ التي تسْرِي في بدَنِهِ ، وتَجْرِي بَيْنَ ضُلُوعِهِ ، أو عَلَىٰ حَدِّ قوْلِ القائِلِ :

(١) جاءَني ابني يَوْمَاً وكُنتُ أُراهُ *** لي رَيْحَانَةً ومَصْدَرَ أُنسِي

(٢) قال : ما الرُّوحُ ؟ قلتُ : إنَّكَ روحِي *** قال : ما النَّفسُ ؟ قُلتُ : إنَّكَ نفسي

فهذا الرَّجُل – أبوذُؤَيْبٍ الهُذَلي – لم يَمُتْ له ولدٌ واحدٌ وإنَّما ماتَ أولادُهُ جميعاً ، ولم يموتوا متفرِّقين وإنَّما ماتوا دُفعةً واحدةً بالطَّاعون ، فكم كانتْ حسرتُه وحزنُه عليهِم ؟!

فأخذ يُقَلِّبُ أبدانَهم الميِّتةَ وهُو يَقُولُ :

سَبَقُوا هَوَيَّ وأعنقوا لهواهُمُ *** فَتُخِرِّمُوا ولكلِّ جنبٍ مَصْرَعُ

أيْ : كان أمَلِي فيهم أنْ تطولَ أعمارُهم ، وأنْ تقَرَّ عيني بهم ، كان أملي فيهم أنْ يكونوا قوَّةً لي عند ضعفي ، وعكَّازاً لي عند عجزي ، وأنْ يكونوا عوناً لي عند كِبَرِ سِنِّي ، كانتْ لي فيهم آمالٌ كَثيرةٌ وأحلامٌ كبيرة ، لكن واأسَفَىٰ عليهم ! سبقوا أمالي فيهم وتخطَّفهم الموتُ مني وحُرِمْتُ من كلِّ أمنياتي فيهم !

(سبقوا هَوَيَّ وأعنقوا لهواهُمُ) أيْ : الموت كأنَّهم كانوا يشْتَهُونَهُ ويتهافتونَ علَيهِ !

(فتُخِرِّمُوا) أيْ : ماتوا جميعاً ، وتُهَدَّمَتْ كُلُّ أحْلامِي !

ثُمَّ يُعَزِّي نَفْسَهُ ويصبِّرُها بقولِهِ : (ولكلِّ جنبٍ مَصْرعُ) أيْ : كلُّ ابنِ أنثىٰ مَهْمَا طالتْ حياتُهُ عُمُرُه ومَهما امتدَّت عافِيَتُهُ وسلامَتُهُ لَهُ مَوْضِعٌ فِي الأرْضِ كُتِبَ عليهِ أنَّهُ سيموتُ ويُدْفَنُ هنا !، فالنَّاسُ جميعًا مَوْتَىٰ أبْناءُ مَوْتَىٰ ، والكلُّ ميِّتٌ: إمَّا أنَّه ماتَ بالفعلِ أو أنَّه ينتظرُ الموتَ مع تَرَدُّدِ الأنفاس ، ولعلَّ موتَه يكونُ فجأةً ، وإنَّما هي أرحامٌ تدفَعُ وأرضٌ تبلَعُ ، وإلىٰ اللَّهِ المصيرُ . فهذا يُعَزِّي نَفْسَهُ فِي مَوْتِ أولادِهِ بأنَّ كلَّ النَّاسِ موتىٰ أو سيموتون ، ويتأسَّىٰ بذلك .

ومِن ذلك – أيْضًا – قولُ حُرَيثِ بنِ زَيْدِ الخيلِ الطَّائي في نَفْسِ هذا المعنىٰ :

فلا تَجْــزعِي يا أُمَّ أوسٍ فإنَّــــــه *** تُصيبُ المنايا كلَّ حافٍ وذي نَعْـلِ

ولولا الأَسَى ما عِشْتُ في النَّاسِ بعدَهُ *** ولكنْ إذا ما شِئْتُ أسْعَدَنِي مِثْلِي

يَعْني : لولا أنَّ لي بالنَّاسِ أُسْوةً في مَصَائِبِهِم فأورثني ذلك صبراً وتماسُكًا = لولا ذلك لمِتُّ مِن الكَمَدِ والحُزنِ ولم أَعِشْ ساعةً مِن عُمري بعدَ موْتِ ذلكَ الحبيبِ ، ولكنِّي مهما قلَّبْتُ بصري في النَّاسِ وجدتُ فِيهم مُصَابًا بمثلِ مصيبتي ومُبْتَلَىٰ بمثلِ بَلِيَّتي !

ومِن ذلك – أيضًا – قولُ الخَنْساء شاعرةِ الإسلامِ تُماضُر بنتِ عمرو بن الشَّريد وهي ترثي أخاها صخراً لمَّا قُتِلَ ، وقد كانَ سَيِّداً نَبيلاً ورَجُلاً فاضِلاً كَريمًا ، وقد رثَتْهُ بقصائدَ أبْكَتْها وأبْكَتْ قَبائلَ العَرَبِ مَعها ، ومِنْ جُملَةِ ذلكَ قَولُها :

(١) يُؤرِّقُني التَّذكُّرُ حينَ أُمْسِي *** ويَرْدَعُني مع الأحزانِ نُكسِي

(٢) على صَخْرٍ ، وأيُّ فتىً كصَخْرٍ *** ليومِ كريهةٍ وطِعانِ حِلسِ

(٣) يُذكِّرُني طُلُوعُ الشَّمْسِ صَخْراً *** وأذكُرُهُ لكلِّ غُروبِ شَمْسِ

(٤) ألا يا صَخْرُ لا أنساكَ حَتَّى *** أُفارقَ مُهجتي ويُشَقَّ رَمْسِي

(٥) ولولا كثْرةُ الباكينَ حولي *** على إخوانِهم لقتلتُ نفسي

(٦) ولا يَبْكون مثلَ أخي ولكنْ *** أُعَزِّي النَّفسَ معهم بالتَّأسِّي

يَعْنِي : مِمَّا يُهَوِّنُ عَلَيَّ مُصِيبتي ويُخَفِّفُ من حُزْنِي علَىٰ أخِي ويُصَبِّرُنِي كَثْرَةُ الباكينَ حولِي علَىٰ موتاهم وإخوانِهم ، فإنَّ مَنْ يَرَىٰ مَصَائبِ النَّاسِ تَهُونُ عنْدَهُ مُصِيبَتُهُ .

ومِن ذلك – أيْضًا – ما ذكَره أبوسَعدٍ السَّمعاني في كتابِ " **الأنسابِ** " (٢٩/١٣) عن الأديبِ العالم والفقيهِ الشَّاعر مُحَمَّدِ بنِ أبي العبَّاسِ الأبيوردي ، وهو مع علمه وفَضْلِهِ ونُبُوغِهِ وأدبه لم يكن مَشْهُوراً ، وضيَّعَهُ قَومُهُ وأهملوه، ولم يعرفوا فَضْلَهُ وقَدرَهُ ، ولم يستفيدوا من علمِهِ وأدبِهِ ، علىٰ حدِّ قولِ عكرمة مولَىٰ ابن عبَّاسٍ ويُنْسَبُ أيْضًا لعروة بن الزُّبَيْر –رحمةُ اللَّهِ على الجميعِ– قال : أزهدُ النَّاسِ في العالِمِ أهلُ مَحَلَّتِه !

يعني : أَكْثَرُ النَّاسِ عُقوقـًا له ولِفَضْلِهِ وإهْمالاً لَهُ ولِعِلْمِهِ أهْلُ بلدِهِ !

فقال الأبيوردي – رَحِمه اللَّهُ – وهو يُعزِّ نفسَهُ ويُصَبِّرُها علَىٰ عُقُوقِ النَّاسِ لهُ :

لَئِنْ ضِعتُ بينَ الأغْنِيَاءِ مِنَ الوَرَى *** فلي أُسْوةٌ في خالِدِ بنِ سِنانِ

يريدُ أنْ يقولَ : أنا وإنْ أهملني النَّاسِ وضيَّعوني وأعرضوا عنِّي ولم يعرِفوا قدرَ ما أحمِلُه من علمٍ وحكمةٍ وفقهٍ وأدَبٍ (فلِي أسْوةٌ في خالدِ بن سنانٍ) !

ويُحْكَىٰ أنَّ خالدَ بنَ سِنَانٍ هذا كان نبيًّا بعد عيسىٰ – عليه السَّلامُ – وجاء ذِكرُه في عِدَّةِ أحاديثَ لكن لا يصِحُّ منها شيءٌ لا مِن جهةِ الأسانيد ولا مِن جهةِ التَّاريخ ! و مِمَّا يُرْوَىٰ فىٰ ذلك :

ما أخرجه البزَّار في " مُسْنَدِهِ " (١١/ ٢٩٣) وغيرُه عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ – رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا – قَالَ : ذُكِرَ خَالِدُ بْنُ سِنَانٍ عِنْدَ النَّبِيِّ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيهِ وَسَلَّم – فَقَالَ : " ذَاكَ نَبِيٌّ ضَيَّعَهُ قَوْمُهُ " .

وعند ابن أبي شيبة في " مصنَّفِهِ " (١٢/ ٢٠٠) والحاكم في " المُسْتَدرك " (٢/٥٩٨) والطبراني في " معجمه الكبير " (١١/ ٤٤١) وغيرهِم عَنْ سَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ – ووصلَه بعضُهم عن ابن عبَّاس – رضيَ اللَّهُ عنهما – قال : جَاءَتِ ابْنَةُ خَالِدِ بْنِ سِنَانٍ الْعَبْسِيِّ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ – صَلَّى اللَّهُ عليه وسلَّم – فَبَسَطَ لَهَا ثَوْبَهُ ، وقَالَ : " مَرْحَبًا بِابْنَةِ أَخِي ، مَرْحَبًا بِابْنَةِ نَبِيٍّ ضَيَّعَهُ قَوْمُهُ " .

وكلُّ هذه الأخبارُ لا يصِحُّ منها شيءٌ مِنْ جِهةِ الأسانيدِ ، وهي مُخَالِفَةٌ لِمَا هو أثبتُ منها !

والشَّاهدُ مِن ذلك قولُ الأبيوردي – رحمه اللَّهُ – : (فلي أسْوةٌ في خالد بن سِنان) ومقصودُه : أنَّ النَّاسَ وإنْ لم يعرِفوا فضلي ، ولم يستفيدوا مِن علمي وضيَّعوني فلقد ضيَّعوا مَن هو أفضلُ مِني وأزكىٰ وأعلمُ وآدَبُ كخالِدِ بنِ سِنانٍ ، فلي أسوةٌ في هذا النَّبِيِّ الفاضلِ والرَّئيسِ الكاملِ !

وأعلىٰ مِن ذلك وأرفعُ وأثبتُ وأشْرفُ : ما رواه البخاريُّ (٣١٥٠) ومُسْلِم (١٠٦٢) وغيرُهما عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بنِ مَسْعُودٍ – رضِيَ اللَّهُ عنه – قَالَ : لَمَّا كَانَ يَوْمُ حُنَيْنٍ آثَرَ رَسُولُ اللَّهِ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – نَاسًا فِي الْقِسْمَةِ ، فَأَعْطَى الأَقْرَعَ بْنَ حَابِسٍ مِائَةً مِنَ الإِبِلِ وَأَعْطَى عُيَيْنَةَ بن حِصنٍ الفزاريَّ مِثْلَ ذَلِكَ ، وَأَعْطَى أُنَاسًا مِنْ أَشْرَافِ الْعَرَبِ ، وَآثَرَهُمْ يَوْمَئِذٍ فِي الْقِسْمَةِ – يعني يتألَّفُهم ويُثَبِّتُ قلوبَهم علىٰ الدِّينِ بالمالِ – .

فَقَالَ رَجُلٌ من الأنصار : وَاللَّهِ ، إِنَّ هَذِهِ لَقِسْمَةٌ مَا عُدِلَ فِيهَا وَمَا أُرِيدَ بِهَا وَجْهُ اللَّهِ !

يعني : أنَّ الرَّسولَ ظالمٌ في قسمتِهِ ولم يُراعِ الحِمةَ والعَدْلَ وأنَّه يُجاملُ بَعْضَ النَّاسِ ويُرائيهم علىٰ حسابِ الحقِّ ! فلا عدلٌ ولا إخْلاص !

وهذا كافٍ في ضلالِ مَن اعتقدَ ذلكَ وربَّما أخرجه مِن الدِّين !

قَالَ عبدُ اللَّهِ : فَقُلْتُ : يا عَدُوَّ اللَّهِ ! وَاللَّهِ لأُخْبِرَنَّ رَسُولَ اللَّهِ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ –

قَالَ : فَأَتَيْتُهُ فَأَخْبَرْتُهُ بِمَا قَالَ ، فَتَغَيَّرَ وَجْهُهُ حَتَّى كَانَ كَالصِّرْفِ* ، ثُمَّ قَالَ : " فَمَنْ يَعْدِلُ إِنْ لَمْ يَعْدِلِ اللَّهُ وَرَسُولُهُ " ثُمَّ قَالَ : " يَرْحَمُ اللَّهُ أَخِي مُوسَى ، قَدْ أُوذِيَ بِأَكْثَرَ مِنْ هَذَا فَصَبَرَ " **

فانظر كيفَ تأسَّىٰ – صَلَّىٰ اللَّهُ عليه وسَلَّم – بأخيهِ موسىٰ – عَلَيْهِ السَّلام – وتذكَّرَ صَبْرَهُ وحِلْمَهُ واحتسابَهُ ، واقْتَدَىٰ به في ذلك !

وهذا كُلُّه دليلٌ علىٰ أنَّ التَّأسِّيَ خُلُقٌ من أخلاقِ النَّاس ، وهو داخلٌ في عاداتِهم ، وأنَّه مهما كان الرَّجُلُ فاضلاً فإنَّه لا يَسْتَغْنِي عن أن يَقْتَدِيَ بِغَيْرِهِ ويَسْتَفيدَ منه وينتفعَ به في قليلٍ أو كثير .

هذا كلُّهُ في الدُّنيا ، وأمَّا في الآخرةِ فلا أُسْوةَ لأحَدٍ في أحد ، ولا قُدوةَ لأحَدٍ بأحَدٍ ، ولا ينفعُ ولا يَدفَعُ أحدٌ عن أحدٍ إلا ما أَذِنَ اللَّهُ فيه :

وقال – تَعَالَى – : { كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ } [المُدَّثِّر/٣٨] أيْ : مَحْبُوسَةٌ ومَرْهُونةٌ .

قال اللَّهُ – تَعَالَى – : { كُلُّ امْرِئٍ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ } [الطور/٢١]

وقال – تَعالَى – : { يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ (٣٤) وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ (٣٥) وَصَاحِبَتِهِ وَبَنِيهِ (٣٦) لِكُلِّ امْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ } [عبس/٣٤–٣٧]

وقال – تَعالَى – : { وَذَكِّرْ بِهِ } أيْ : بالقرآنِ العظيمِ { أَن تُبْسَلَ نَفْسٌ } أيْ : تُحْبَسَ وتُسْجَنَ وتُسْلَمَ للعذابِ المُهينِ { أَنْ تُبْسَلَ نفسٌ بِمَا كَسَبَتْ لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ اللَّهِ وَلِيٌّ وَلا شَفِيعٌ وَإِن تَعْدِلْ كُلَّ عَدْلٍ لا يُؤخَذْ منها } أيْ : مهما تدفَعُ كُلَّ ما تستطيعُ مِن فديةٍ لإنقاذِ نفسِها { لا يُؤخَذْ منها أُوْلَئِكَ الَّذِينَ أُبْسِلُواْ بِمَا كَسَبُواْ لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُواْ يَكْفُرُونَ } [الأنعام/٧٠]

وقال – تَعالَى – : { يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ وَاخْشَوْا يَوْماً لا يَجْزِي وَالِدٌ عَن وَلَدِهِ وَلا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَن وَالِدِهِ شَيْئاً إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَلا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلا يَغُرَّنَّكُم بِاللَّهِ الْغَرُورُ } [لقمان/٣٣]

وكذلك الظَّلَمةُ والمنافقون والكافرون يومَ القيامةِ يتبرَّأُ بعضُهم من بعضٍ ويَسُبُّ بعضُهم بعضًا ويلعنُ بعضُهم بعضًا كما قال اللَّهُ – تَعَالَىٰ – : { ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضاً وَمَأْوَاكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّاصِرِينَ } [العنكبوت/٢٥]

وقال – تَعالى – : { وَلَن يَنفَعَكُمُ الْيَوْمَ إِذ ظَّلَمْتُمْ أَنَّكُمْ فِي الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ } [الزخرف/٣٩]

كلُّ واحدٍ عذابُهُ شَكْلٌ وجحيمُهُ شكلٌ وسِجْنُهُ شكلٌ ، نعوذُ باللَّهِ من حالِ أهلِ النَّار .

---

* " حتى كان كالصِّرف " هو صِبغٌ أحمرُ يُصبَغُ به الجلود ، وقد يُسَمَّى الدَّمُ أيضاً صِرفاً . انظر : " شرح النَّوويُّ " (١٥٨/٧)

** " قد أوذِيَ بأكثرَ من هذا " أيْ : آذاه قومُهُ أكثرَ من هذا الإيذاءِ الذي وقعَ عليَّ في هذا المَوقِفِ لا عُموماً .

والأسوةُ – أيُّها الإخوةُ – في الكتابِ والسُّنَّةِ قِسْمانِ أو نوعان :

أمَّا النَّوعُ الأوَّلُ فهو الأسوةُ الحسَنةُ : وهي القُدوةُ الطيِّبةُ والمثالُ المُحْترَمُ الذي يَبْني ما هَدَمَهُ النَّاسُ ، ويُصْلِحُ ما أفسدَه الخَلقُ ، ويَسْلُكُ سبيلَ الخَيرِ ويعمَلُ به ، وينشُرُ الحَقَّ والوعيَ والعدلَ والأمنَ ، ويَحْرُسُ دِينَهُ ويرعىٰ دنياه : يدعون إلىٰ الإصلاحِ ويأمُرون به ، ويُحاربون الفسادَ وينهَوْنَ عنه ، ووجودُهم برَكَةٌ علىٰ شعوبِهم وأمَمِهم .

قال اللَّهُ – عَزَّ وجَلَّ – : { وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُوْلَئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ } [التَّوبَة/٧١] .

وقال اللَّهُ – عَزَّ وجَلَّ – : { وَالَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِالْكِتَابِ وَأَقَامُواْ الصَّلاَةَ إِنَّا لاَ نُضِيعُ أَجْرَ الْمُصْلِحِينَ } [الأعراف/١٧٠]

وأمَّا النَّوعُ الثَّاني فهو الأُسوةُ السَّيِّئةُ : وهي القدوةُ القبيحةُ والمثالُ غيرُ المُحْترَمُ الذي يَهْدِمُ ولا يبني ، ويُفسِدُ ولا يُصْلِحُ ، ويُضِلُّ ولا يَهدِي : يَسْلُكُون سبيلَ الشَّرِّ ويَعْمَلُون به ، ويَنْشُرون الضَّلالةَ والخُرافةَ ، يَعْمُرون دنياهم بخَرابِ دينِهم وتخريبِ دنيا غيرِهم وَدِينِهم !

يدعون إلىٰ الفسادِ ويأمُرون به ، ويُحاربون الإصلاحَ والمصلِحين وينهَوْنَ عن اتِّباعِهِم ، ووجودُهم نحسٌ علىٰ شعوبِهم وأُمَمِهم .

قال اللهُ – عَزَّ وجَلَّ – : { الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ بَعْضُهُم مِّن بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمُنكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ نَسُواْ اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ هُمُ الْفَاسِقُونَ } [التوبة/٦٧]

وقال اللَّهُ – عَزَّ وجلَّ – : { وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لاَ تُفْسِدُواْ فِي الأَرْضِ قَالُواْ إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ (١١) أَلا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَكِن لاَّ يَشْعُرُونَ } [البقرة/١٢]

وهذان النَّوعانِ من الأُسوَةِ والقدوةِ ذكَرَهما اللَّهُ – عزَّ وجلَّ – في أكْثَرَ مِن موضعٍ مِن كتابِهِ ، وذكرَهُما النَّبيُّ – صلَّىٰ اللَّهُ عليْهِ وسلَّم – في مواضعَ كثيرةٍ من سُنَّتِهِ ، بل جَمَعَهُمَا في سياقٍ واحدٍ لِيُظْهِرَ الفَرقَ الكبيرَ بين المُصْلِحِين والمُفْسِدين ، ومن ذلك :

قولُ اللَّهِ – تَعَالَىٰ – في جماعةٍ من أنبيائه ، وهم إبراهيم وابنُه إسْحاقُ وحفيدُه يعقوبُ وابنُ أخيه لوط = قال فيهم : { وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْرَاتِ وَإِقَامَ الصَّلاةِ وَإِيتَاءَ الزَّكَاةِ وَكَانُوا لَنَا عَابِدِينَ } [الأنبياء/٧٣]

وقال – تَعَالَىٰ – في بعضِ المُؤمنينَ مِن خلْقِهِ مِمَّن علَّمهم الحقِّ وأعانَهُم علَيْهِ وبَصَّرَهم بِسَبِيلِ الرَّشَادِ وهَدَاهُم إليْهِ ، وألزَمَهُم كلِمةَ التَّقوىٰ ، وصبَّرَهم علىٰ التَّمَسُّكِ بالوحْي واتِّباعِهِ = قال فيهم : { وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ } [السَّجْدة/٢٤]

فهؤلاء أئمَّةُ هُدَىٰ ، وعلاماتٌ علىٰ الحقِّ ، ومناراتٌ علىٰ البِرِّ والخَيْر ، ورموزٌ للإصلاحِ والعدلِ ، وقدوةٌ طيِّبةٌ وأسوةٌ حسَنةٌ .

وفي المقابل : قال اللَّهُ – عزَّ وجلَّ – في فرعونَ وقومِهِ لمَّا أغرقَهم في اليمِّ وأهلَكَهم وخرَّبَ ديارَهم ودمَّرَ أمْلاكَهم ، وأورثها قوماً آخَرين = قال : {وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ لَا يُنصَرُونَ (٤١) وَأَتْبَعْنَاهُمْ فِي هَذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ هُم مِّنَ الْمَقْبُوحِينَ} [القصص/٤١ – ٤٢]

{وجعلناهم أئمَّةً يدعون إلى النَّار} أيْ : جعلناهم في الدُّنيا أئِمَّةَ ضلالٍ ، وقادةً في الشَّرِّ والفسادِ ، وعلاماتٍ علىٰ الباطلِ والخُرافَةِ ، ومناراتٍ علىٰ الإثمِ والزُّورِ ، ورموزاً للفَسَادِ والظُّلم ، وأُسوةً قَبيحةً وقدوةً خبيثةً .

ولكلِّ قومٍ وارثٌ ، ولكلِّ إمامٍ أتباعٌ : {فَمِنْهُم مُّهْتَدٍ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ} [الحديد/٢٦] .

وروى الإمامُ أحمَدُ في " مُسْنَدِهِ " (٢/٢٩١) وابن ماجه في " سُنَنِهِ " (٤٠٣٦) والحاكم في " المسْتَدرك " (٤/٤٦٥ و٥١٢) وغيرُهم عن أبي هريرة – رضيَ اللَّهُ عَنْهُ – قال : قال رسُولُ اللَّهِ – صلَّى اللَّهُ عليْهِ وسلَّم – : " سيأتي على النَّاسِ سنواتٌ خدَّاعاتٌ يُصدَّقُ فيها الكاذبُ ويُكذَّبُ فيها الصَّادقُ ، ويُؤتَمَنُ فيها الخائنُ ويُخوَّنُ فيها الأمينُ ، ويَنْطِقُ فيها الرُّوَيْبضةُ " قالوا : وما الرُّوَيْبضَةُ يا رسُولَ اللَّهِ ؟ قال : " الرَّجُلُ التَّافِهُ يَتَكَلَّمُ في أمرِ العامةِ " *

وقد رواه نُعيمُ بن حمَّاد في كتابِ " الفتن " ولفظُهُ عنده : " تكونُ قبل خروجِ المسيحِ الدَّجَّال سنواتٌ خدَّاعة : يُكَذَّبُ فيها الصادقُ ، ويُصَدَّقُ فيها الكاذبُ ، ويُؤتَمَنُ فيها الخائِنُ ، ويُخَوَّنُ فيها الأمين ، ويَتكلَّمُ فيها الرُّوَيْبِضَةُ " قيل : وما الرُّوَيْبِضةُ يا رسولَ اللَّهِ ؟ قال : " الوضيعُ من النَّاسِ " أيْ : الحقيرُ في نَفْسِهِ ، سفيهُ العقلِ والرَّأيِ .

وفي حديثِ أنسِ بن مالكٍ – رضِيَ اللَّهُ عنه – في هذا المَعْنَىٰ لمَّا سُئِلَ – صَلَّىٰ اللَّهُ عليه وسَلَّم – عن الرُّوَيْبِضةِ ، قال : " الفُوَيْسِقُ يَتَكَلَّمُ في أمْرِ العامة " .

" الفُوَيْسِق " تَصْغيرُ فَاسِقٍ ، وهو الرَّجُلُ المَشْهُورُ بالمعصيةِ والفِسقِ ، المَعْرُوفُ بالذَّنْبِ والإثْمِ ، والتَّصغيرُ فيه لتحقيرِهِ .

وفي حَديثِ عوفِ بن مالكٍ – رضِيَ اللَّهُ عنه – في هذا المعنىٰ أيْضاً : قيل : ومَن الرُّوَيبضةُ يا رسولَ اللَّهِ ؟ قال : " مَن لا يُؤبَهُ له " أيْ : مَنْ لا حُرْمَةَ له في النَّاسِ ، لا يُعرَفُ بدينٍ ولا ورعٍ ، ولا بعلمٍ ولا حكمةٍ .

وقال الجَوْهَرِيُّ : " الرُّوَيْبِضة " : التَّافِهُ الحقيرُ .

وقال ابنُ الأثيرِ : " الرُّوَيْبِضةُ " : التَّافهُ الحقيرُ الخَسِيسُ .

---

* وهو حَسَنٌ بِشَواهِدِهِ ، وانظر " السِّلْسِلة الصَّحيحة " (١٨٨٧) .

فيَتَحَصَّلُ لنا من نُصُوصِ الأحاديث مع كلامِ أهلِ اللُّغةِ أنَّ الرُّوَيْبِضةَ هو : الإنسَانُ الفاسقُ ، والسَّفيه والتَّافِهُ ، والوضيعُ والحقيرُ والخَسيسُ .

وأصلُ " الرُّوَيْبِضة " مِن الفعلِ " ربَضَ " أيْ : قَعَدَ ، فالرُّوَيْبضةُ هو الإنْسَانُ التَّافِهُ الذي يَرْضَىٰ بالدُّونِ والخسائس ، ويَقْعُدُ عن معالي الأمورِ وأشرافِها ، ويتنافَسُ في الرَّذائِلِ والقَبائحِ ، ويَجْرِي خَلْفَ الأرْبَاحِ العاجِلَةِ وإنْ داسَ علَىٰ رِقَابِ الخَلْقِ !

فمِن المَصَائِبِ الكبيرةِ أنْ يكونَ هذا الرُّوَيبضةُ التَّافِهُ هو الذي يَتَكلَّمُ باسمِ الشَّعْبِ ويُمثِّلُ النَّاسَ في المَجَالِسِ العامَّةِ ويكونُ نائبًا عنهم ، وبئسَ النَّائب ! كأنَّه ليسَ في النَّاسِ عقلاءُ ولا عُلَماء ولا شُرَفاءُ ! فَيَنْطِقُ هذا الرُّوَيْبِضةُ ، ويَسْتَأسِدُ فِيها الضَّبُع ويَسْتَنْسِرُ فِيها البُغَاثُ !

ولِلَّهِ درُّ الشِّهابِ الخَفَاجي – رَحِمَهُ اللَّهُ – إذ يَقُولُ وهُو يُعاني ويَشْتَكِي من مِثْلِ ما نُعاني ونَشْتَكِي نحنُ مِنْهُ في هَذِهِ الأزْمَانِ :

رأيتُ الدَّهرَ يرفعُ كلَّ وَغْدِ *** ويَخْفِضُ كلَّ ذي شِيَمٍ شَرِيفَهْ

كَمِثْلِ البَحْرِ يَغْرَقُ فيه حَيٌّ *** ولا ينفكُ تطفو فوقَه جِيفَهْ

أوكالميزانِ يَخفِضُ كلَّ وافٍ *** ويرفَعُ كلَّ ذي زِنَةٍ خَفِيفَهْ

أو علَىٰ حَدِّ قولِ طَرَفَةَ بنِ العَبْدِ :

يا لكِ مِن قُبَّرةٍ بمَعْمَرِ *** قد رحل عنكِ الصَّيَّادُ فأبشِري

خلا لكِ الجَوُّ فبيضِي واصْفُرِي *** ونَقِّرِي ما شِئْتِ أنْ تُنَقِّرِي

قد رُفِعَ الفخُّ فماذا تحذُرِي *** لابدَّ يومًا أنْ تُصَادَيْ فاصْبِري !

ولو أَرَدْنا أنْ نَذكُرَ لهذهِ الأُسْوةِ السَّيِّئةِ والقُدوةِ الخاسِرةِ مِثالاً فلَنْ نَتَحَيَّرَ في ذلك فقد ضربَ اللَّهُ – عزَّ وجلَّ – لذلك الأمثالَ ، ونأخُذُ مِنْها مِثالاً واحِداً وهو الآباءُ والأمَّهاتُ المُغَفَّلُون ، الذين لا يعلمون لِماذا خلقهم اللَّهُ – تَعالَىٰ – ولا لِماذا وَهَبَ لَهم الأولادَ في حينِ أنَّه حرمَ غيرَهم منهم فإنَّ كثيراً من الآباءِ والأمَّهاتِ فشِلوا فشَلاً عمليَّاً في تربيةِ أولادِهم ، بل إنَّ كثيراً من الضَّلالِ والكفرِ والمعصيةِ والفِسقِ والجهلِ والظُّلم الذي في الأرضِ سببُهُ هؤلاءِ الآباءُ المُهْمِلون علِموا ذلكَ أو لم يعلموا ، قَصَدوا ذلكَ أو لَم يَقْصُدوا !

أكثرُ الفَسَادِ الذي في الدُّنيا هو مِن غرسِ أيديهم ، وثمرةٌ مُرَّةٌ لسُوءِ سِياسَتِهم في تربيةِ أولادِهم !

قال اللَّهُ – عزَّ وجلَّ – : { وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا } أيْ : ما وجدْنا { عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْئاً وَلَا يَهْتَدُونَ } [البقرة/١٧٠]

فيردُّون الحَقَّ ويعترضون علىٰ الوَحْي ويَصُدُّون عن سبيلِ الرُّسُلِ ، لِماذا ؟ هل عندَهم أثارةٌ من علم ؟ هل معهم بيِّنةٌ أو دليل ؟ لا ، وإنَّما اتِّباعـاً لآبائِهم الجَهَلَة وأسْلافِهم الضُّلالِ .

والعلم إنَّما يُؤخَذُ مِن العُلوِّ من جهةِ اللَّهِ ورسولِهِ ، لا مِن جِهةِ السُّفْل من آراءِ الرِّجَال ، ومعرفة الهُدىٰ والحَقِّ إنَّما تكونُ بالتَّعلُّم والاجتهادِ لا بالوراثةِ والتَّقليد { قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْئاً وَلَا يَهْتَدُونَ } [البَقَرة/١٧٠]

وقال اللَّهُ – عزَّ وجلَّ – : { وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَى مَا أَنزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ قَالُوا حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ شَيْئاً وَلَا يَهْتَدُونَ } [المائدة/١٠٤]

وقال اللَّهُ – عزَّ وجلَّ – : { وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ الشَّيْطَانُ يَدْعُوهُمْ إِلَى عَذَابِ السَّعِيرِ } [لقمان/٢١]

وقال اللَّهُ – عزَّ وجلَّ – : { وَإِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً قَالُوا وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءَنَا وَاللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا قُلْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ } [الأعراف/٢٨]

فكانوا يفعلون هذه الفواحشَ ويُمارسون هذه القاذوراتِ ويَتَجَرَّءون علىٰ هذه المُنْكراتِ ، فإذا لامهم اللائم أو عاتبَهم المُعَاتِبُ صرخوا في وجهِهِ وقالُوا : { وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءَنَا } المُجْتَمَعُ كلُّهُ كده ! { وَاللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا } أيْ : هذا لا يُعارِضُ دينـاً ولا شَرْعـاً ، بلْ هو من جملةِ الحُرِّيَّاتِ !

فذكروا حُجَّتَيْنِ عَلَىٰ فِعْلِهم ، فَرَدَّ اللَّهُ – عزَّ وجلَّ – عليهم إحْدىٰ هاتَيْنِ الحُجَّتَيْنِ إنكاراً لها ، وسكتَ عن الحُجَّةِ الأُخرىٰ تقريراً لها : { قَالُوا وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءَنَا وَاللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا } فقال اللَّهُ – تَعَالَىٰ – : { قُلْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ } [الأعراف/٢٨] وسكتَ عن قولِهم

{ وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءَنَا } فدلَّ عَلَىٰ أَنَّهم فعلاً ورثوا هذه الفواحشَ والجرائمَ عن آبائهم ، إمَّا لأنَّهم كانوا يفعلونها ، أو يتكلَّمون بها في مَجَالِسِهم ، أو يشاهدونها فيسكتون عليها ، أو يُهمِلُون تربيةَ أولادِهم علىٰ العَفَافِ والطُّهْرِ والحَيَاءِ والفضيلةِ { قالوا وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءَنَا } !

وقال اللهُ – عزَّ وجلَّ – : { وَكَذَلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِم مُّقْتَدُونَ } [الزخرف/٢٣]

أيْ : كلُّ الرُّسُل واجهوا نفسَ هذا الصَّنَم ، واعترض عليهم أُمَمُهم بسُنَّةِ الآباءِ وطريقتِهم { قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ } أيْ : علىٰ ملَّةٍ ودينٍ طريقةٍ ومذهبٍ* { وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِم مُّقْتَدُونَ } !

والشَّاهِدُ مِن هذا كُلِّهِ : أنَّ المُشْرِكِينَ الأوائلَ في كُلِّ أمَّةٍ من الأمَمِ كانوا يعترِضون علَىٰ الرُّسُل بنَفْسِ هَذِهِ الحُجَّةِ المَرِيضةِ والمَقُولةِ الخبيثة التي وَرِثَهَا المُجْرِمون جيلاً بعدَ جيلٍ { إِنَّا وجدنا آباءَنا على أُمَّةٍ } أيْ : علىٰ دينٍ ومِلَّةٍ { وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِم مُّقْتَدُونَ } !

وروى البُخَاريُّ (١٣٨٥) ومُسْلِمٌ (٢٦٥٨) وغَيْرُهُمَا عن أبي هُرَيْرةَ – رَضِيَ اللَّهُ عنه – أنَّ رسُولَ اللَّهِ – صَلَّى اللَّهُ عليه وسلَّم – قال : "كل مولودٍ يُولَدُ على الفِطرةِ ، فأبواهُ يُهَوِّدَانِهِ أو يُنَصِّرانِهِ أو يُمَجِّسانِهِ ، كما تُنتِجُ البهيمةُ بهيمةً جمعاءَ ، هل تُحِسُّون فيها مِن جدعاءَ حتى تكونوا أنتم تَجْدَعُونَها " ثُمَّ يقولُ أبو هُرَيْرةَ – رضيَ اللَّهُ عنه – : اقرأوا إنْ شِئْتُم : { فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ } [الروم/٣٠]

فأخبر النَّبيُّ – صَلَّىٰ اللَّهُ عليهِ وسَلَّم – أنَّ كُلَّ مولودٍ يُولَدُ عَلَىٰ أصْلِ الفِطرةِ وهي الإسْلامُ ، والإقرارُ باللَّهِ – تَعَالَىٰ – والخُضُوعُ له ، وحُبُّهُ والمَيْلُ إلىٰ عِبادتِهِ ، ولو تُرِكَ كلُّ مولودٍ وفِطرَتَهُ لكان مؤمنًا مُوحِّداً ، لكنْ أبواهُ يَنْقُلانِه عن هذه الفطرةِ والمِلَّةِ إلىٰ غيرِها بحَسَبِ البيئةِ التي يتربَّىٰ فيها الوَلَدُ : فَوَلَدٌ تربَّىٰ في بيتٍ يَهُودِيٍّ الغالبُ أنَّه سيأخذُ عن أبويهِ اليهوديَّةَ ويكونُ يهوديًّا ، وولدٌ تربَّىٰ في بيتٍ نَصْرانيٍّ الغَالِبُ أنَّة سيأخذُ عن أبويْهِ النَّصرانيَّةَ ويكون نصرانيًّا

---

* الأمَّةُ هنا بمعنى المِلَّةِ والدِّينِ كما في قولِهِ – تَعَالى – : { إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ } [الأنبياء/٩٢] والمعنى : إنَّ هذه مِلَّتُكم مِلَّةً واحدةً . وصنوُ هذه الآيةِ في سورةِ المؤمنون ، قال اللَّهُ – تَعَالَى – : { وَإِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّقُونِ } [المُؤمِنُون/٥٢] أيْ : إنَّ ملَّتَكم ملَّةٌ واحِدَةٌ ، وهي ملَّةُ الإسْلام .

وقال اللَّهُ – تَعَالَى – : { وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَهُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِن يُدْخِلُ مَن يَشَاءُ فِي رَحْمَتِهِ وَالظَّالِمُونَ مَا لَهُم مِّن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ } [الشُّورى/٨] أيْ : ولو شاء اللَّهُ لجَعَلَهم ملَّةً واحدةً ، لجعلهم جميعاً مُسْلِمين مؤمنين ، كما في قولِهِ – تَعَالَى – : { وَلَوْ شَاء اللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى الْهُدَى فَلا تَكُونَنَّ مِنَ الْجَاهِلِينَ } [الأنعام/٣]

وقال اللَّهُ – تَعَالَى – : { وَلَوْ شَاء رَبُّكَ لآمَنَ مَن فِي الأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعاً أَفَأَنتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُواْ مُؤْمِنِينَ } [يونُس/٩٩] .

وأشار إلى ذلك أبوزُرْعةَ العراقي في " منظومتِهِ " في غريبِ القرآنِ ، فقال :

والأمَّةُ المِلَّةُ والجماعهْ *** الحينُ أتباعُ النَّبِيِّ القامهْ

والجامعُ الخيرَ ومَن قد انفردْ *** بالدِّينِ لا يَشْرَكُهُ فيه أحَدْ

وولدٌ تربَّىٰ في بيتٍ مَجُوسِيٍّ الغالبُ أنَّه سَيأخُذُ عن أبَويهِ المَجُوسِيَّةَ ويكونُ مَجوسيًّا .... وهكذا في كلِّ مِلَّةٍ بِحَسَبِ البيئةِ التىٰ يتربَّىٰ فيها الوَلَدُ .

وبطبيعةِ الحال ليس المَقْصُودُ بالأبوين في هذا الحديثِ خُصوصَ الأبِ والأمِّ ، ولكِنَّ ذِكْرَهُما هنا خَرَجَ مَخْرَجَ الغالِبِ لأنَّهُمَا هُما الأصْلُ ، وهما أكثرُ مَنْ يُؤَثِّرُ علىٰ المولودِ ، والغالبُ أنَّ المولودَ يتبَعُ أباهُ وأمَّه ، ويأخُذُ الدِّينَ عنهما ، ولكنْ يَلْحَقُ بهما – أيْضًا – في هذا المعنىٰ كلُّ مَنْ يَتولَّىٰ تربيَةَ الوَلَدِ وتعليمَهُ سواءً الأبوان أو المدرِّسُ والمُعَلِّمُ أو المُرَبِّي أو الشَّارعُ وما فيه ، أو المَشَاهِدُ التي تُعْرَضُ في القنوات التليفزيونيَّةِ الأرضيَّةِ والفضائيَّةِ والفيديو والسينما والمَسْرَحُ ، أو الإذاعة والمواقع الإلكترونيَّةُ ، أوالكُتُبُ والمَجَلَّاتُ والجرائدُ ، أو غيرُ ذلك مِمَّا يتأثَّرُ به الإنْسانُ ويتعلَّمُ منه ويُشَكِّلُ ثقافَتَهُ ويبني تفكيرَهُ ، ويُغَيِّرُ فِطرَتَهُ مِن الإسْلامِ إلىٰ أيِّ مِلَّةٍ أُخرىٰ : "**كل مولودٍ يُولَدُ على الفِطرةِ ، فأبواهُ يُهَوِّدَانِهِ أو يُنَصِّرانِهِ أو يُمَجِّسانِهِ** " .

مثال : أبو طالبٍ عمُّ النَّبيِّ – صَلَّىٰ اللَّهُ عليْهِ وسَلَّم – ظلَّ طيلَةَ عُمُرِهِ يُدافِعُ عن النَّبيِّ – صلَّىٰ اللَّهُ عليْهِ وسلَّم – ويَحميهِ ويَرُدُّ عنه أذىٰ قريشٍ وكيدَهُم ، لكنْ قدَّر اللَّهُ – تَعَالَىٰ – أنَّه لا يُسْلِمُ وأنْ يموتَ كافراً .

وكان مِن أسبابِ كُفرِهِ وإصرارِه علىٰ شِركِهِ إلىٰ آخِرِ لحظاتِ عُمُرِه تَعْظِيمُهُ لطريقَةِ وسُنَّةِ الآباءِ المتقدِّمين ومِلَّتِهم المُحَرَّفةِ ، واتِّباعُهُ لهم في شِركِهم وعباداتِهِمُ المُزيَّفة !

وقد أخرج البُخَاريُّ (١٣٦٠و٤٧٧٢و٦٦٨١) ومُسْلِمٌ (٢٤) وغيرُهُما عن سَعِيدِ بْنِ الْمُسَيَّبِ عَنْ أَبِيهِ – المُسَيَّبِ بنِ حَزْنٍ – قَالَ : لَمَّا حَضَرَتْ أَبَا طَالِبٍ الْوَفَاةُ جَاءَهُ رَسُولُ اللَّهِ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – فَوَجَدَ عِنْدَهُ أَبَا جَهْلٍ وَعَبْدَ اللَّهِ بْنَ أَبِي أُمَيَّةَ بْنِ الْمُغِيرَةِ ، فَقَالَ له رَسُولُ اللَّهِ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – : "يَا عَمِّ قُلْ : لا إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ = كَلِمَةً أُحَاجُّ لَكَ بِهَا عِنْدَ اللَّهِ – عزَّ وجلَّ – " فَقَالَ أَبُو جَهْلٍ وَعَبْدُ اللَّهِ بْنُ أَبِي أُمَيَّةَ : يَا أَبَا طَالِبٍ أَتَرْغَبُ عَنْ مِلَّةِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ ؟ ! فَلَمْ يَزَلْ رَسُولُ اللَّهِ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – يَعْرِضُهَا عَلَيْهِ ، وَيُعِيدَانِ لَهُ تِلْكَ الْمَقَالَةَ حَتَّى قَالَ أَبُو طَالِبٍ آخِرَ مَا كَلَّمَهُمْ : هُوَ عَلَى مِلَّةِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ ، وَأَبَى أَنْ يَقُولَ : لا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ .

فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – : " أَمَا وَاللَّهِ لأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ مَا لَمْ أُنْهَ عَنْكَ "

فَأَنْزَلَ اللَّهُ – عَزَّ وَجَلَّ – قَوْلَهُ : { مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُولِي قُرْبَى مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ } [التَّوبة/١١٣]

وَأَنْزَلَ اللَّهُ – تَعَالَى – فِي أَبِي طَالِبٍ فَقَالَ لِرَسُولِ اللَّهِ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – : { إِنَّكَ لا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ } [القَصص/ ٥٦] .

وفي هذا السّياقِ أيضاً أخرجَ مُسلِمٌ (٤٢/٢٥) والترمذيُّ (٣١٨٨) وأحمد (٤٣٤/٢) وغيرُهم مِنْ حديثِ أَبِي هُرَيْرَةَ – رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ – قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ – صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – لِعَمّهِ أَبي طالبٍ – يعني حينَ وفاتِهِ – : "يا عمّ قُلْ : لا إلهَ إلا اللَّهُ = كَلِمةٌ أَشْهَدُ لَكَ بِهَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ " فقَالَ أبو طالبٍ : لوْلا أَنْ تُعَيِّرَنِي قُرَيْشٌ ، يقولون : إنَّمَا حَمَلَهُ عَلَى ذلك الْجَزَعُ – أيْ : الخوفُ من المَوتِ – لأَقْرَرْتُ بِهَا عَيْنَكَ !

فَأَنْزَلَ اللَّهُ – تَعَالَى – قَوْلَهُ : {إِنَّكَ لا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ} [القصص / ٥٦]

فهذا الرَّجلُ أصرَّ علىٰ كُفرِهِ حتَّىٰ وهو يُودِّعُ أنفاسَ الحَيَاةِ ، ورَضِيَ أن يَمُوتَ مُشْرِكًا ، لماذا ؟ هل لأنَّه كان جاهلاً بصحَّةِ نُبُوَّةِ ابن أخيهِ أو كانَ يَشُكُّ في رسالتِهِ ؟

الجواب : لا ، بل كان عارفًا بنبوَّتِهِ ، مُصدِّقًا بصِحَّةِ رسالتِهِ ، وكان يُعْلِنُ ذلك ولا يُخْفِيهِ .

وحينَ طلَبَتْ قريشٌ من أبي طالِبٍ أنْ يتخَلَّي عن رسُولِ اللَّهِ – صَلَّىٰ اللَّهُ عليهِ وسَلَّم – طَلَبَ هو مِن رسولِ اللَّهِ – صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وسَلَّم – أنْ يَتْرُكَ ما جاءَ به ، وتأرجَحَ في الاستمرار في نُصرتِهِ ، فقال له النَّبيُّ – صلَّىٰ اللَّهُ عليهِ وسَلَّمَ – : "يا عمِّ واللَّهِ لو وضعوا الشَّمسَ في يميني والقمرَ في شِمالي على أنْ أترُكَ هذا الأمرَ ما تركْتُهُ حتَّى يُظْهِرَهُ اللَّهُ – تَعالَى – أو أهلِكَ فيه "

فقال له عَمُّه : يا ابنَ أخِي قُل ما أحببتَ ، فواللَّهِ لا أُسْلِمُكَ لشَيءٍ أبداً – أيْ : لا أتخَلَّىٰ عنكَ ولا أتوقَّفُ عَنْ نُصرتِكَ والدِّفاعِ عنك – وفي ذلك يقول أبو طالبٍ :

(١) واللهِ لن يَصِلُوا إليكَ بجمعِهِم *** حتَّى أُوَسَّدَ في التُّرابِ دفيناً

(٢) فاصْدَعْ بأمْرِكَ ما عليكَ غَضاضَةٌ *** وأبشِرْ بذاكَ وقَرَّ منك عيوناً

(٣) ودعوتَني وعَلِمْتُ أنَّكَ ناصحي *** ولقد صَدَقْتَ وكُنْتَ ثَمَّ أميناً

(٤) وعَرَضْتَ ديناً قد علِمْتُ بأنَّه *** مِن خيرِ أديانِ البَرِيَّةِ ديناً

(٥) لولا الملامةُ أو حَذارُ مَسَبَّةٍ *** لوجدتَني سمحاً بذاكَ مبيناً

فبَيَّنَ تَصْديقَهُ للرَّسولِ – صَلَّىٰ اللَّهُ عليهِ وسلَّم – وبيَّنَ أيْضًا أنَّ المانعَ له مِن الدُّخولِ في الإسْلامِ واتِّباعِ الرَّسولِ – صلَّىٰ اللَّهُ عليهِ وسلَّم – لَيْسَ كَرَاهَتَهُ للدِّينِ الْحَقِّ ، وَإِنَّما هو الأَنَفَةُ وَالْخَوْفُ مِنْ مَلامَةِ قَوْمِهِ أَوْ سَبِّهِمْ لَهُ ، وخوفُهُ أنْ يُقَالَ : تركَ مِلَّةَ أبيه ، فتُعيِّرُه قُريشٌ بذلك :

لولا الملامةُ أو حَذارُ مسبَّةٍ *** لوجدتني سمحاً بذاك مبيناً .

وكان يقولُ أيْضًا في النَّبيِّ – صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيهِ وسَلَّمَ – في "لاميَّتِهِ" الطَّويلةِ :

(١) وأبيضُ يُستسقَى الغمامُ بوجهِهِ *** ثِمالُ اليتامَى عصمةٌ للأراملِ

(٢) يَلوذُ به الهُلَّاكُ مِن آلِ هاشِمٍ *** فهُم عندَهُ في نعمةٍ وفواضِلِ

(٣) لَعَمري لقد كَلِفْتُ وجداً بمحمَّد *** وإخوتِهِ دأبَ المُحِبِّ المُـــواصِلِ

(٤) حَدَبْتُ بنفسي دونَهُ وحَمَيْتُـهُ *** ودافَعْتُ عنه بالذُّرا والكـــلاكِلِ

(٥) فَمَن مِثْلُهُ في النَّاسِ أيُّ مُؤَمَّـــل *** إذا قاسَهُ الحُكَّامُ عند التَّفاضُل ؟ !

(٦) حَليمٌ رشيدٌ عادلٌ غيرُ طائشٍ *** يُوالي إلهاً ليسَ عنه بغــافـلِ

(٧) فوالله لولا أنْ أجـيءَ بِسُبَّـةٍ *** تُجَرُّ على أشياخِنا في المحافلِ

(٨) لَكُنَّا اتَّبَعْناهُ على كـلِّ حالـةٍ *** من الدَّهرِ جِدّاً غيرَ قولِ التَّهـازُلِ

(٩) ولقد علِموا أنَّ ابنَنا لا مُكَـذَّبٌ *** لدينا ولا يُعنى بقولِ الأبـاطِـلِ

فانظروا كيفَ كان تَمَسُّكُهُ بسُنَّةِ الآباءِ الأوَّلين سبباً في كُفرِهِ وضياعِه ، وكان يَعُدُّ مُخالفَتَهُم عاراً يخافُ أنْ يُعيَّرَ أو يُفضَحَ به ، وماتَ وهو كافر بسَبَبِ الأُسْوَةِ السَّيِّئةِ والقدوةِ الخاسِرةِ بجانبِ جُلساءِ السُّوءِ والصُّحبةِ الفاسدةِ ؟!

أيُّها الإخوةُ الكِرامُ : هل سَمِعْتُم عن السَّيِّئاتِ الجَاريَةِ !

إنَّنا كثيراً ما نَسْمَعُ في الخُطَبِ والمواعظِ والدُّروسِ عن الحَسَنَاتِ الجَاريةِ ، وأعمال الخَيرِ التي يَجْري ثَوابُها علىٰ أصحابِها حَتَّىٰ بعدَ موتِهم ، ولا يَنْقَطِعُ أجْرُها بَعْدَ دَفْنِهِم ، ومِن ذلك :

ما رواه مُسْلِمٌ في " صَحِيحِهِ " (٢٦٨٢) وأبوداود (٢٨٨٠) والتِّرمذيُّ (١٣٧٦) وغيرُهم عن أبي هريرةَ – رضِيَ اللَّهُ عنه – أنَّ رسُولَ اللَّهِ – صَلَّى اللَّهُ عليْهِ وسَلَّم – قال : " إذا ماتَ ابنُ آدمَ انقطعَ عملُهُ إلا مِن ثلاثٍ : صدقةٍ جاريةٍ ، أو علمٍ يُنتفعُ به ، أو ولدٍ صالحٍ يدعو له "

فهذه ثلاثةُ أبوابٍ مِن الخيرِ لا ينقطعُ ثوابُها بموتِ الإنسانِ ، بل يستمرُّ ثوابُهُ ويدُومُ أجرُه وهو ميِّتٌ في قَبْرِهِ لأنَّها مِن كَسْبِهِ وسَبَبِهِ .

وروى ابن ماجه في " سُنَنِهِ " (٢٤٢) وابنُ خُزَيْمة في " صحيحه " (٢٤٩٠) ومن طريقه البيهقيُّ في " الشُّعَب " (٣٤٤٨) وغيرُهم بإسْنادٍ فيه لِينٌ وضعفٌ* عن أبي هريرةَ – رضِيَ اللَّهُ عنه – أنَّ رسُولَ اللَّهِ – صَلَّى اللَّهُ عليهِ وسَلَّم – قال : " إنَّ مِمَّا يَلْحَقُ المؤمنَ من عَمَلِهِ وحسناتِهِ بَعْدَ موتِهِ : علماً علَّمَهُ ونَشَرَهُ ، وولداً صالحاً تَرَكَهُ ، ومُصْحَفاً ورَّثَهُ ، أو مَسْجِداً بَنَاهُ ، أو بيتاً لابن السَّبيلِ بناه ، أو نَهْراً أجْراهُ ، أو صَدقةً أخرجها من مالِهِ في صِحَّتِهِ وحَيَاتِهِ = يَلْحقُهُ من بَعْدِ مَوْتِهِ " .

وقد وردتْ خصالٌ أخْرَىٰ تبلُغُ العشَرةَ جمعها جلالُ الدِّينِ السُّيُوطِيُّ – رحمه اللَّهُ – بقولِهِ :

(١) إذا مَاتَ ابنُ آدَمَ لَيْس يَجْري *** عَلَيْهِ مِنْ فِعَالٍ غَيْرُ عَشْرِ

(٢) عُلُومٌ بَثَّهَا ، وَدُعَاءُ نَجْلٍ *** وَغَرْسُ النَّخْلِ والصَّدَقَاتُ تَجْري

(٣) ورَاثَةُ مُصْحَفٍ ورِبَاطُ ثَغْرٍ *** وَحَفْرُ البِئْرِ أَوْ إجْرَاءُ نَهْرِ

(٤) وَبَيْتٌ لِلْغَرِيبِ بَنَاهُ يَأْوي *** إلَيْهِ أَوْ بِنَاءُ مَحَلِّ ذِكْرِ

وزادَ عليها السَّفَّاريني – رحمه اللَّهُ – في " غِذاءِ الألْبابِ " (٤٠/١) خصلةً أخرىٰ فقال :

(٥) وَتَعْلِيمٌ لِقُرآنٍ كَرِيمٍ *** فَخُذْهَا مِنْ أَحَادِيثَ بِحَصْرِ

هذا كُلُّه في أبْوابِ الخَيْرِ وأعمالِ البِرِّ والحَسَنَاتِ الجَارِيَةِ ، وقد روى مُسْلِمٌ في " صحيحِه " (١٠١٧) والنَّسَائِيُّ في " المُجْتَبَى " (٢٥٥٤) وفي " الكبرى " (٢٣٣٥) وابنُ ماجه (٢٠٣) وأحمد (٣٥٨/٤) وغيرُهُم عَنْ جَرِيرِ بن عَبْدِ اللَّهِ – رضِيَ اللَّهُ عَنْهُ – أنَّ رسولَ اللَّهِ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وسلَّم – قالَ : " مَنْ سَنَّ في الإسْلامِ سُنَّةً حَسَنَةً فَلَهُ أَجْرُهَا وَأَجْرُ مَنْ عَمِلَ بِهَا بَعْدَهُ مِنْ غَيْرِ أَنْ يَنْقُصَ مِنْ أُجُورِهِمْ شَيْءٌ "

---

* وحَسَّنَه الألبانِيُّ في " صحيح ابن ماجه " (١٩٨) وفي " الإرواءِ " (٢٩/٦)

وفي المُقَابِلِ فإنَّ السيِّئاتِ الجَاريةَ أضعافُ أضْعَافِ هذا العَدَدِ :

فكم من رجُلٍ فاسِقٍ وامرأةٍ رخيصةٍ مَثَّلُوا مَشْهَداً خَليعاً فقلَّدَهُ ألوفُ الرِّجالِ والنِّساءِ ألوفَ المَرَّاتِ في أُلُوفِ الأماكِنِ في ألوفِ الأوقاتِ ، ووزرُهُ وعُقوبَتُهُ وإثْمُهُ ومَعَرَّتُهُ في المَنْحوسِ الأوَّلِ الذي سَنَّهُ في النَّاسِ ونَشَرَهُ من غيرِ أنْ يَنْقُصَ من أوزارِ هؤلاءِ شيءٌ !

كم مِنْ رجُلٍ أو امرأةٍ نَشَرَ فاحِشَةً بينَ النَّاسِ فَوَقَعَ فيها بِسَبَبِهِ ألوفُ البَشَرِ وعلَيه وزرها !

كم مِنْ مُغَنٍّ ماتَ وبَقِيَتْ أغانيهُ مَحفوظةً بَيْنَ النَّاسِ يأتِيه وزرُها ويُعاقَبُ بسَبَبِها عَشَراتِ السِّنين كُلَّما ردَّدَها أحَدٌ أو اسْتَمَعَ لَها مُسْتَمِعٌ !

كم مِنْ خُرافَةٍ وإشَاعَةٍ أطْلَقَها مُفْتَرٍ كذابٍ فصَدَّقَها ملايينُ البَشَرِ وكرَّروها في مَجَالِسِهِم واتَّهَموا بِسَبَبِها البُرَءاءَ ، وخُوِّنَ الأمِينُ وكُذِّبَ الصَّادقُ ، وسُجِنَ أو قُتِلَ مَنْ لا يَسْتَحِقُّ ذلِكَ !

كم من دجَّالٍ غَشَّاشٍ يَصْنَعُ الإشاعَةَ ويَحْمِي الخُرافةَ ويَزْرَعُ الأفخاخَ في المُجْتَمَعِ ويُدَحْرِجُ كُرَةَ النَّارِ بيْنَ أهْلِهِ لِيُعادِيَ بَعْضُهُم بَعضاً ويَصِلَ هُو إلَىٰ مصالِحِهِ الرَّخِيصةِ بلا مُنازِعٍ !

كم مِنْ مُبْتَدِعٍ ماتَ وبَقِيَتْ بِدْعَتُهُ حَيَّةً ضَلَّ بسَبَبِها ألوفُ البَشَرِ جيلاً بعد جيلٍ ! ...... وهكذا وقد ذكر أبو نُعيمٍ في " حليةِ الأولياءِ " (٦/ ١٥٣) عن أبي مُحَمَّدٍ حَبِيبٍ الفارسيِّ قال : إنَّ مِن سَعَادةِ المَرْءِ إذا ماتَ ماتَتْ مَعَهُ ذُنُوبُه !

وصَدَقَ – رَحِمَهُ اللَّهُ – فإنَّ مِنْ رحْمَةِ اللَّهِ – تعالَىٰ – بالعَبْدِ أنَّهُ إذا ماتَ ماتَتْ مَعَهُ قَبائِحُهُ وفَضائحهُ ونُسِيَتْ معهُ ذُنُوبُهُ وذِكْرُهُ السيِّئ ، وانْقَطَعَ حَبْلُ سَيِّئاتُهُ ، فلا يُحاسَبُ علَىٰ شهوةٍ حرامٍ فَعَلَهَا غَيْرُهُ ، أو كَلِمةٍ حرامٍ قَلَّدَهُ فيها غَيْرُهُ !

وفي حَديثِ جَريرِ بنِ عَبْدِ اللَّهِ – رضِيَ اللَّهُ عَنْهُ – السَّابق : أنَّ رسولَ اللَّهِ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وسلَّم – قالَ : " مَنْ سَنَّ في الإِسْلامِ سُنَّةً سَيِّئَةً فَعَلَيْهِ وِزْرُهَا وَوِزْرُ مَنْ عَمِلَ بِهَا بَعْدَهُ مِنْ غَيْرِ أَنْ يَنْقُصَ مِنْ أُجُورِهِمْ شَيْءٌ "

وأخرجَ الإمامُ مُسْلِم في " صحيحِهِ " (٢٦٧٤) وأبو داود (٤٦٠٩) والتِّرمِذِيُّ (٢٦٧٤) وأحمد (٢/٣٩٧) والدارمي (٥١٣) وأبو يَعْلَى (٦٤٨٩) وابن حِبَّان (١١٢) والبغويُّ في " شرحِ السُّنَّة " (١٠٩) وغَيْرُهُم عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ – رضِيَ اللَّهُ عَنْهُ – أَنَّ النَّبِيَّ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – قَالَ : " مَنْ دَعَا إِلَى هُدىً كَانَ لَهُ مِنَ الأَجْرِ مِثْلُ أُجُورِ مَنْ تَبِعَهُ لا يَنْقُصُ ذَلِكَ مِنْ أُجُورِهِمْ شَيْئاً ، وَمَنْ دَعَا إِلَى ضَلالَةٍ كَانَ عَلَيْهِ مِنَ الإِثْمِ مِثْلُ آثَامِ مَنْ تَبِعَهُ لا يَنْقُصُ ذَلِكَ مِنْ آثَامِهِمْ شَيْئاً "

وعلىٰ الجانبِ الآخَرِ : فإنَّ أشرفَ مثالٍ للقُدوةِ الطَّيِّبةِ ، وأروعَ نموذجٍ للأُسْوةِ الحَسَنَةِ ، وأفضلَ مَن نَجْمَعُ النَّاسَ حولَه ، ونأمُرُ النَّاسَ بمَحَبَّتِهِ واتِّباعِهِ ، ونربطُ قلوبَ النَّاسِ بشَخْصِهِ وهَدْيِهِ هو النَّبيُّ الأعظمُ والرَّسولُ الأكرمُ – صَلَّىٰ اللَّهُ عليهِ وسلَّم – .

خُصوصًا وأنَّ التَّأسِّيَ به وطاعتَهُ علىٰ العمومِ فرضٌ لازمٌ لا يَسَعُ أحداً أنْ يُخالِفَ أمرَهُ أو يُعارِضَ حُكْمَهُ أو أنْ يَخْرُجَ عن هَدْيِهِ وسنَّتِهِ :

قال اللَّهُ – عزَّ وجلَّ – : { وَمَا أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللَّهِ } [النّساء/٦٤]

وهذا هو معنىٰ شهادةِ " أنَّ مُحَمَّداً رَسُولُ اللَّهِ " ، فَإِنَّ مِفْتَاحَ مِلَّةِ الإسْلامَ وبُنْيانَ الدِّينِ كُلِّهِ داخلٌ في هاتين الكلمتين المَعْصومَتَيْنِ " أشْهَدُ أَلَّا إلهَ إِلَّا اللَّهُ وأشْهَدُ أنَّ مُحَمَّداً رَسُولُ اللَّهِ " !

أَمَّا قَوْلُنا : " أشْهَدُ أَلَّا إلهَ إِلَّا اللَّهُ " أيْ : أنَّهُ لا مَعْبُودَ بحَقٍّ إلا اللَّهُ – عزَّ وجلَّ – ، ولَيْسَ هُناكَ مَنْ يَسْتَحِقُّ أنْ يُعْبَدَ ، وأنْ تَتَعَلَّقَ بِهِ قُلُوبُ العِبادِ وآمَالُهم إِلَّا الخالقَ العظيمَ والمَعْبودَ الكريمَ – سبحانه وبحمدِهِ – ، وكُلُّ مَنْ عُبِدَ مِنْ دونِ اللَّهِ – تَعالَىٰ – فإنَّما عُبِدَ بالظُّلْمِ والطُّغْيانِ والزُّورِ والبُهْتَانِ { ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِ هُوَ الْبَاطِلُ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ } [الحج/٦٢]

وأَمَّا قَوْلُنا : " وأشْهَدُ أنَّ مُحَمَّداً رَسُولُ اللَّهِ " أيْ : أنَّهُ لا مَتْبُوعَ بحَقٍّ ولا مُطَاعَ بِصِدْقٍ إِلَّا المَعْصُومُ مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ – صَلَّىٰ اللَّهُ عليهِ وسلَّم – ، فكُلُّ إنْسانٍ يُمْكِنُ أنْ تَقُولَ له : " لا " دائمًا أو أحْيانًا إِلَّا هُو – صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وسلَّم – كما قالَ – تَعالَىٰ – : { وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْراً أَن يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَن يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلالاً مُّبِيناً } [الأحزاب/٣٦]

والحاصِلُ من ذلكَ : أنَّهُ كَمَا يَجِبُ تَوْحِيدُ اللَّهِ – عزَّ وجلَّ – بالعِبَادةِ وأَلَّا يُعبَدَ غيرُهُ أو يُشْرَكَ مَعَهُ سِواهُ = فإنَّهُ كذلكَ يَجِبُ توحيدُ النَّبيِّ – صَلَّىٰ اللَّهُ عليْهِ وسلَّم – بالاتِّباعِ والطَّاعةِ وأَلَّا يُعْصَىٰ أمرُهُ وأَلَّا يُخالَفَ حُكمهُ كما قال اللَّهُ – عزَّ وجلَّ – : { فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ } [النُّور/٦٣]

وقد تتابعتْ كلماتُ أهلِ العلمِ علىٰ تثبيتِ هذا المعنىٰ وتأكيدِه ، ومِن ذلك :

قَالَ سُفْيَانُ بْنُ عُيَيْنَةَ – رحِمَهُ اللَّهُ تَعالَىٰ – : إِنَّ رَسُولَ اللَّهِ – صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – هُوَ الْمِيزَانُ الْأَكْبَرُ ، فَعَلَيْهِ تُعْرَضُ الْأَشْيَاءُ : عَلَىٰ خُلُقِهِ وَسِيرَتِهِ وَهَدْيِهِ ، فَمَا وَافَقَهَا فَهُوَ الْحَقُّ وَمَا خَالَفَهَا فَهُوَ الْبَاطِلُ »

فكلُّ قَولٍ عارضَ قَولَهُ – صلَّىٰ اللَّهُ علَيْهِ وسلَّم – فهو هَدَرٌ ، وكُلُّ فِعْلٍ خالَفَ فِعْلَهُ – صلَّىٰ اللَّهُ علَيْهِ وسلَّم – فهو ردٌّ ، وكُلُّ سُنَّةٍ خالَفَتْ سُنَّتَهُ – صلَّىٰ اللَّهُ علَيْهِ وسلَّم – فهي سَيِّئةٌ ، وكُلُّ خُلُقٍ خالَفَ أخْلاقَهُ – صلَّىٰ اللَّهُ علَيْهِ وسلَّم – فهو قَبِيحٌ !

وأفْتَىٰ أبو حَنِيفَةَ – رحمه اللَّهُ – مرَّةً بفتْوَىٰ خالَفَ فيها رسولَ اللَّهِ – صَلَّىٰ اللَّهُ علَيْهِ وسلَّم – وهو لا يَدْري ولم يَصِلْ إلَيهِ الحديثُ ، فقيلَ لهُ : يا أبا حَنِيفةَ تُخالِفُ في حُكمِكَ حُكْمَ رَّسولَ اللَّهِ – صلَّىٰ اللَّهُ علَيْهِ وسلَّم – ؟! فانتَفَضَ أبو حَنِيفةَ وَرَجَعَ عن قولِهِ لَمَّا اسْتبانَ لهُ الحَقُّ ووصلَتْ إلَيْهِ السُّنَّةُ ، وقالَ : لَعَنَ اللَّهُ مَنْ خالَفَ رسولَ اللَّهِ ! بِرَسُولِ اللَّهِ – صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وسَلَّم – أكْرَمَنا اللَّهُ – عزَّ وجَلَّ – ، وبِهِ هَدانا ، وبِهِ اسْتَنْقَذَنا ! أيْ : من الضَّلالةِ والنَّارِ .

فإنَّ الحقَّ من الأقوالِ ما وافَقَ قَولَهُ ، والحقَّ من الأفعالِ ما وافَقَ فِعلَهُ ، والحقَّ مِن الآراءِ ما وافَقَ رأيَهُ ، والحَقَّ مِن الأحْكامِ ما وافَقَ حُكْمَهُ ، والحقَّ من الأحوالِ ما وافَقَ سُنَّتَهُ وهَدْيَهُ ، والحَسَنَ من الأخلاقِ ما وافَقَ خُلُقَهُ – صلَّىٰ اللَّهُ علَيْهِ وسلَّم – وما خالَفَهُ مِن ذلكِ فهو باطِلٌ في نَفْسِهِ ومَرْدودٌ عَلَىٰ أهْلِهِ ! {فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ} [النُّور/٦٣]

وقالَ الإمامُ مالكٌ – رحمه اللَّهُ – وقدْ أشارَ إلَىٰ قَبْرِ الرَّسُولِ – صلَّىٰ اللَّهُ علَيْهِ وسلَّم – : كُلُّ النَّاسِ يُؤْخَذُ مِنْ قَوْلِهِ ويُرَدُّ إلَّا صاحِبَ هذا القَبْرِ – صَلَّىٰ اللَّهُ علَيْهِ وسلَّم – .

وذكَرَ البَيْهَقِيُّ في " مناقب الشَّافعيِّ " (١/ ٤٧٤) وأبو نُعَيْمٍ في " الحِلْيَةِ " (٩/ ١٠٦) والسُّبْكِي في " طَبَقَاتِ الشَّافعِيَّةِ " (٢/ ١٣٨) وغيْرُهُم عن عبْدِ اللَّهِ بنِ الزُّبَيْرِ الحُمَيْدِي قالَ : سَأَلَ رجُلٌ الشَّافِعِيَّ – رَحِمَهُ اللَّهُ – بمِصْرَ عَن مَسْأَلَةٍ فأفْتاه ، وقال له : قال فيها النَّبِيُّ – صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وسَلَّم – كَذا وكذا ، فقال الرَّجُلُ : أتَقُولُ بهذا يا أبا عبْدِ اللَّهِ ؟! أيْ : أتَقُولُ بهذا الحديثِ وتُفْتِي بهِ ؟! فَغَضِبَ الشَّافِعِيُّ – رحمه اللَّهُ – وقال للرَّجُلِ : أتَراني خَرجْتُ من كَنيسة ؟! أتَراني أربِطُ في وَسَطِي زُنَّاراً ؟! أقول لكَ : قال رسولُ اللَّهِ – صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وسَلَّم – وتَقُولُ لي : أتقول بهذا ! وهلْ أرْوِي عَن رسُولِ اللَّهِ – صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وسَلَّم – ولا أقُولُ بهِ ؟!

إذا رأيْتُموني عَرَفْتُ حَديثاً لِرَسُولِ اللَّهِ – صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – وَلَمْ آخُذْ بِهِ فَأَنَا أُشْهِدُكُمْ أَنَّ عَقْلِي قَدْ ذَهَبَ ! أيْ : أصابنيَ الجُنُونُ والخَبَلُ أو أدْرَكَتْني السَّفاهةُ والعَتَهُ !

وقالَ الإمامُ الشَّافعيُّ – رحِمه اللَّهُ – أيضاً : أجْمَعَ المُسْلِمونَ عَلَىٰ أنَّ مَنْ اسْتَبانَتْ لَهُ سُنَّةُ رسولِ اللَّهِ – صَلَّىٰ اللَّهُ علَيْهِ وسلَّم – لم يَكُنْ لَهُ أنْ يَدَعَها – أيْ : يَتْرُكَها لِقَولِ أحَدٍ من النَّاسِ !

وقالَ الإمامُ أحْمَدُ – رحمه اللَّهُ – تَعالَىٰ – : نَظَرْتُ في المُصْحَفِ فوجَدْتُ فيهِ طاعةَ الرَّسولِ – صلَّىٰ اللَّهُ علَيْهِ وسلَّم – أيْ : وجُوبَ ولُزومَ طاعَتِهِ – في ثلاثةٍ وثلاثِينَ مَوْضِعاً .

وقالَ شَيْخُ الإسلامِ ابنُ تَيْمِيةَ – رحِمه اللَّهُ – : وقد أوجبَ اللَّهُ – عَزَّ وجَلَّ – طاعَةَ الرَّسولِ – صَلَّىٰ اللَّهُ علَيْهِ وسلَّم – عَلَىٰ جَميعِ الخَلْقِ – أيْ : فَرَضَها علَيْهِم وألْزَمَهُم بها – في قَريبٍ مِنْ أربعينَ مَوْضِعاً من القُرآنِ ، وطاعَتُهُ طاعةٌ للَّهِ – عزَّ وجلَّ – .

قالَ اللَّهُ – عزَّ وجَلَّ – : {مَنْ يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ وَمَن تَوَلَّى فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظاً} [النِّساء/٨٠]

{ وَمَن يُطِعْ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزاً عَظِيماً } [الأحزاب/٧١]

{ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَخْشَ اللَّهَ وَيَتَّقْهِ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ } [النُّور/٥٢]

{ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَمَن يَتَوَلَّ يُعَذِّبْهُ عَذَاباً أَلِيماً } [الفَتْح/١٧]

{ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ } [النِّساء/١٣]

{ وَأَطِيعُواْ اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ } [الأنفال/١]

{ وَأَطِيعُواْ اللَّهَ وَالرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ } [آل عمران/١٣٢]

{ وَأَقِيمُوا الصَّلاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ } [النُّور/٥٦]

{ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ أَطِيعُواْ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلاَ تَوَلَّوْا عَنْهُ وَأَنتُمْ تَسْمَعُونَ } [الأنفال/٢٠]

{ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَإِنَّمَا عَلَى رَسُولِنَا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ } [التَّغابن/١٢]

{ فَأَقِيمُوا الصَّلاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ } [المُجادلة/١٣]

{ وَأَطِيعُواْ اللَّهَ وَأَطِيعُواْ الرَّسُولَ وَاحْذَرُواْ فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَاعْلَمُواْ أَنَّمَا عَلَى رَسُولِنَا الْبَلاَغُ الْمُبِينُ } [المائدة/٩٢]

{ قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ فَإِن تَوَلَّوا فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ – أيْ : البَلاغُ – وَعَلَيْكُم مَّا حُمِّلْتُمْ – أيْ : الاستجابةُ والعَمَل – وَإِن تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلا الْبَلاغُ الْمُبِينُ } [النُّور/٥٤]

{ وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانتَهُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ } [الحشر/٧]

وأَخْرَجَ البخاري (٥٩٤٨) ومسلم (٢١٢٥) وغَيْرُهما عَنْ عَلْقَمَةَ بنِ وقَّاصٍ اللَّيْثي عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بنِ مَسْعُودٍ – رَضِيَ اللَّهُ عنه – قَالَ : لَعَنَ اللَّهُ الْوَاشِمَاتِ وَالْمُسْتَوْشِمَاتِ والنَّامِصاتِ وَالْمُتَنَمِّصَاتِ وَالْمُتَفَلِّجَاتِ لِلْحُسْنِ الْمُغَيِّرَاتِ خَلْقَ اللَّهِ ! قَالَ : فَبَلَغَ ذَلِكَ امْرَأَةً مِنْ بَنِي أَسَدٍ يُقَالُ لَهَا : أُمُّ يَعْقُوبَ ، وكانَتْ تَقْرَأُ القُرْآنَ فَجَاءَتْ إِلَيْهِ فَقَالَتْ : مَا حَدِيثٌ بَلَغَنِي عَنْكَ أَنَّكَ لَعَنْتَ الْوَاشِمَاتِ وَالْمُسْتَوْشِمَاتِ والنَّامِصاتِ وَالْمُتَنَمِّصَاتِ وَالْمُتَفَلِّجَاتِ لِلْحُسْنِ الْمُغَيِّرَاتِ خَلْقَ اللَّهِ ! فَقَالَ ابْنُ مَسْعُودٍ : ومَا لِي لا أَلْعَنُ مَنْ لَعَنَ رَسُولُ اللَّهِ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – وهو فِي كِتَابِ اللَّهِ – عَزَّ وَجَلَّ – ؟ ! فَقَالَتْ المرأةُ : لَقَدْ قَرَأْتُ ما بَيْنَ لَوحَي المُصْحَفِ فَمَا وَجَدْتُهُ ! فَقَالَ : لَئِنْ كُنْتِ قَرَأْتِيهِ فَقَدْ وَجَدْتِيهِ ، أَمَا قَرَأْتِ قَولَ اللَّهِ – عزَّ وجلَّ – : { وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا } [الحَشْر/٧] قَالَتْ : بَلَى . قَالَ : فَإِنَّ النَّبِيَّ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – نَهَى عَنْهُ . فَقَالَتِ الْمَرْأَةُ : فَإِنِّي أَرَى شَيْئاً مِنْ هَذَا عَلَى امْرَأَتِكَ الآنَ ! قَالَ : اذْهَبِي فَانْظُرِي . قَالَ : فَدَخَلَتْ عَلَى امْرَأَةِ عَبْدِ اللَّهِ فَنَظَرَتْ فَلَمْ تَرَ شَيْئاً ، فَجَاءَتْ إِلَيْهِ فَقَالَتْ : مَا رَأَيْتُ شَيْئاً فَقَالَ : أَمَا لَوْ كَانَ ذَلِكَ لَمْ نُجَامِعْهَا !

أيْ : لم أَجْتَمِعْ مَعَها في بَيْتٍ واحدٍ وتَحْتَ سَقْفٍ واحدٍ ، ولَكُنْتُ فَارَقْتُها !

ومِن المَعْلُومِ المَشهورِ عندَ جماهيرِ العُلَماءِ أنَّ سُنَّةَ الرَّسُولِ – صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وسلَّم – وَحْيٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ – تَعالَىٰ – كالقُرآنِ ، وأنَّها أصْلٌ في التَّشْريعِ والأحكامِ كالقُرْآنِ = سَواءً بسَواءٍ .

وقد أخْرَجَ الدَّارميُّ في " مُسْنَدِهِ " (٥٨٨) ومُحَمَّدُ بنُ نَصْرٍ المَرْوَزِيّ في كتاب " السُّنَّة " (١٠٢) وابنُ بَطَّةَ في " الإبانَةِ الكُبْرى " (١/٢٥٤ رقم ٩٠) والهَرَوِيُّ في " ذَمِّ الكَلامِ وأهْلِهِ " (٢١٦) وغَيْرُهُم عن حَسَّانَ بنِ عَطِيَّةَ – رحمه اللَّهُ تَعالَى – قالَ : كانَ جِبْرِيلُ يَنْزِلُ عَلَى النَّبيِّ – صلَّى اللَّهُ عليْهِ وسلَّم – بالسُّنَّةِ كما ينزلُ عليْهِ بالقُرآنِ ، ويُعَلِّمُهُ إيَّاها كما يُعَلِّمُهُ القُرْآنَ * وقدْ دلَّ عَلَىٰ هذا المَعْنَىٰ أيْضًا جُملَةُ أدلَّةٍ :

قالَ اللَّهُ – عزَّ وجَلَّ – : {وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى {٣} إِنْ هُوَ إِلا وَحْيٌ يُوحَى} [النَّجْم /٤]

أيْ : إنَّهُ – صَلَّىٰ اللَّهُ عليه وسلَّم – لا يَنْطِقُ عن هَوَىٰ نَفْسِهِ ، ولا يَتَكَلَّمُ بقَصْدِ التَّشريعِ إلَّا بوَحْيٍ عن ربِّهِ – عزَّ وجلَّ – ، والذي يَتَكَلَّمُ بهِ قد يكُونُ قُرْآنًا وقَدْ يكُونُ سُنَّةً ، وهو مَعْصومٌ فِيهِما جميعًا ، وكلاهُما وَحْيٌ {وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى {٣} إِنْ هُوَ إِلا وَحْيٌ يُوحَى} [النَّجْم /٤]

وأخرجَ أبو داود في " سُنَنِهِ " (٣٦٤٨) وأحْمَدُ في " مُسْنَدِهِ " (٢/ ١٦٢و١٩٢) والدَّارمي في " مسندِهِ " (٥٠١) والحاكم في " المُسْتَدْرك " (١/١٠٥–١٠٦) وغيْرُهُم عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرِو بن العاص – رَضِيَ اللَّهُ عنهما – قَالَ : كُنتُ أَكْتُبُ كُلَّ شَيْءٍ أَسْمَعُهُ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ – صلَّى اللَّهُ عليه وسلَّم – أُرِيدُ حِفْظَهُ فَنَهَتْنِي قُرَيْشٌ وَقَالُوا : أَتَكْتُبُ كُلَّ شَيْءٍ تَسْمَعُهُ ؟ ! وَرَسُولُ اللَّهِ – صَلَّى اللَّهُ عليْهِ وسَلَّم – بَشَرٌ يَتَكَلَّمُ فِي الْغَضَبِ وَالرِّضَا !

يَعْني : أنَّهُ – صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وسلَّم – ليْسَ مَعْصومًا في كُلِّ ما يتكلَّمُ به !

قالَ : فَأَمْسَكْتُ عَنِ الْكِتَابِ ، فَذَكَرْتُ ذَلِكَ لِرَسُولِ اللَّهِ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وسَلَّم – فَأَشَارَ بِأُصْبُعِهِ إِلَى فِيهِ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيهِ وسلَّم – وقَالَ : «اكْتُبْ فَوَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ مَا يَخْرُجُ مِنْهُ إِلا حَقٌّ»

وأخْرَجَ أبو داود في "سُنَنِهِ " (٤٦٠٦) والتّرمذي في " الجامِعِ " (٢٦٦٤) وابن ماجه في " سننه " (١٢) وأحمد في " المُسْنَد " (٤/١٣٢) وغَيْرُهُم عَنِ الْمِقْدَامِ بْنِ مَعْدِي كَرِبَ – رضِيَ اللَّهُ عنه – أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – أَنَّهُ قَالَ : «أَلا إِنِّي أُوتِيتُ الْكِتَابَ وَمِثْلَهُ مَعَهُ ، أَلا يُوشِكُ رَجُلٌ شَبْعَانُ مُتَّكِئٌ عَلَى أَرِيكَتِهِ يَقُولُ : عَلَيْكُمْ بِهَذَا الْقُرْآنِ فَمَا وَجَدْتُمْ فِيهِ مِنْ حَلالٍ فَأَحِلُّوهُ ، وَمَا وَجَدْتُمْ فِيهِ مِنْ حَرَامٍ فَحَرِّمُوهُ ! أَلا وَإِنَّ مَا حَرَّمَ رَسُولُ اللَّهِ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – مِثْلُ مَا حَرَّمَ اللَّهُ " – أيْ : مِثْلُهُ في الحُكمِ والتَّشْريعِ ، وأنَّهُ كُلُّهُ من عندِ اللَّهِ – عَزَّ وجَلَّ – ثُمَّ ضَرَبَ مثالاً مِمَّا انْفَرَدَت السُّنَّةُ بالحُكمِ فيهِ ، ولَيْسَ له بخُصوصِهِ ذكْرٌ في القرآنِ فَقالَ – صَلَّىٰ اللَّهُ عليْهِ وسلَّم – : " أَلا لا يَحِلُّ لَكُمْ لَحْمُ الْحِمَارِ الأَهْلِيِّ وَلا كُلُّ ذِي نَابٍ مِنَ السَّبُعِ وَلا لُقَطَةُ مُعَاهِدٍ إِلا أَنْ يَسْتَغْنِيَ عَنْهَا صَاحِبُهَا ، وَمَنْ نَزَلَ بِقَوْمٍ فَعَلَيْهِمْ أَنْ يَقْرُوهُ – أيْ : يَجِبُ عَلَيْهِم أنْ يُضَيِّفوهُ – فَإِنْ لَمْ يَقْرُوهُ فَلَهُ أَنْ يُعْقِبَهُمْ بِمِثْلِ قِرَاهُ »

فدلَّ ذلكَ علَىٰ أنَّ السُّنَّةُ تُؤَسِّسُ للأحْكام وتَدُلُّ علَيْها كالقُرآن ، وهِيَ أيْضـًا تُبَيِّنُ القُرآنَ وتُوَضِّحُهُ ، ولو أهْمَلنا السُّنَنَ لضاعَ القُرآنُ ونُقِضَتْ عُرَىٰ الإسلام عُرْوةً عُرْوةً وبَطَلَتْ أحْكامُهُ حُكمـًا حُكمـًا !

مثلاً : قالَ اللَّهُ – تَعالَىٰ – : {وَأَقِيمُواْ الصَّلاةَ وَآتُواْ الزَّكَاةَ} [البَقَرة/٤٣]

كيْفَ نُقيمُ الصَّلاةَ إذا تَرَكْنا وأهْملنا الأحاديثَ المُبَيِّنةَ والشَّارحةَ لعدَدِ الصَّلَواتِ وأوقاتِها وصِفةِ كُلِّ صلاةٍ ؟ ليْسَ في القُرآنِ بَيَانٌ لذلكَ ، إذاً سَتَبْطُلُ الصَّلاةَ !

وكَيْفَ سنُؤدِّي فريضةَ الزَّكاةِ : ما هي الأموالُ التي تَجِبُ فيها الزَّكاةُ أصْلاً ، وما هو نِصابُ الزَّكاةِ في كلِّ نوْعٍ من أنواعِ المالِ ؟ وما هو مقدارُ الزَّكاةِ في كُلِّ صنْفٍ منها ؟ وما هي المُدَّةُ الزَّمَنِيَّةُ التي كُلَّما تكرَّرتْ وجبَتْ الزَّكاةُ ؟ ليس في القُرآنِ بيانٌ لذلكَ ، إذا سَتَبْطُلُ الزَّكاة !

وقُلْ مِثْلَ ذلكَ في قَولِهِ – تَعالَى – : {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ} [البقرة/١٨٣]

وفي قَولِهِ – تعالَى – : {وَأَتِمُّواْ الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلَّهِ} [البَقَرة/١٩٦] ... وهكذا في أغْلَبِ الأحْكام .

وقد أخرجَ الحاكمُ في " المُسْتَدْرك " (١/ ١٠٩) والطَّبَراني في " مُعجَمِهِ الكبير " (١٨/ ١٦٥رقم ٣٦٩) والهَرَويُّ في " ذمِّ الكلامِ وأهْلِهِ " (٢٤١) وغيرُهُم عن الحَسَنِ البَصْري – رحمه اللَّهُ – قال : بَيْنَما عمرانُ بن الحُصَيْنِ – رَضِيَ اللَّهُ عنه – يُحَدِّثُ عن نَبِيِّنا – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وسَلَّم – إذْ قالَ لَهُ رَجُلٌ : يا أبا نَجِيدٍ حَدِّثْنا بالقُرْآنِ !

أيْ : دَعْنا مِن الأحاديثِ والسُّنَنِ ويكفينا القُرآنُ وَحْدَهُ فلا تُحَدِّثْنا بِغَيْرِهِ !

فقال له عِمْرانُ – رضِيَ اللَّهُ عنه – : «أرأيتَ أنتَ وأصْحَابُك تقرءون القُرآنَ أكُنْتُم مُحَدِّثِيَّ عَنِ الصَّلاةِ وَحُدُودِهَا وَمَا فِيهَا ؟ أكُنْتُم مُحَدِّثِيَّ كم الزَّكاةُ في الذَّهَبِ والإبلِ والبَقَرِ وأصْنافِ المَالِ ؟ ولكنِّي شَهِدْتُ – أيْ : حَضَرْتُ قَوْلَ الرَّسولِ – صَلَّى اللَّهُ علَيْهِ وسلَّم – وفِعْلَهُ وغِبْتُم أنْتُم ؟ ثُمَّ قالَ : فرضَ رسُولُ اللَّهِ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وسَلَّم – في الزَّكاةِ كذا وكذا » فقالَ الرَّجُلُ : يا أبا نَجِيدٍ أحْيَيْتَنِي أحْياكَ اللَّهُ ! قَالَ الحَسَنُ : فَما ماتَ ذلكَ الرَّجُلُ حتَّى كان من فُقَهاءِ المُسْلِمينَ»

وإنَّما نَقُولُ هذا ونُؤكِّدُ عَلَىٰ هذه المَعاني لأنَّنا مُبْتَلَوْنَ بقَومٍ جَهَلَةٍ مُفْتَرينَ ، وبَعْضُهُم يَحْمِلونَ شَهاداتٍ شَرْعِيَّةٍ وهم مِنْ عُلُومِ الشَّريعَةِ مَفالِيسُ ، أُلُوفٌ يَشْغَلُونَ المَناصِبَ الدِّينيَّةَ ويَمْلأونَ بُطُونَهُم بالمُرَتَّباتِ والرَّشَاوَىٰ = وظِيفَتُهم الرَّسْمِيَّةُ حِفْظُ عُلُومِ الكِتَابِ والسُّنَّةِ ولكنَّهم للأسْفِ في عُلُومِ الكِتابِ والسُّنَّةِ أقْزامٌ وأصْفارٌ ! فإنَّ حِفْظَ عُلُومِ هذا الدِّينِ والدَّعْوَةَ إلَيْهِ وإحْياءَ السُّنَنِ بَيْنَ المُسْلِمِين لَيْسَ بالمَناصِبِ والشَّهاداتِ وليْسَ بالجُلُوسِ علىٰ الكَراسي في المَشْيَخَةِ والوزارةِ والجامِعاتِ بقَدْرِ ما هِيَ بالحِفْظِ والفَهْمِ وأنْ تُوقِفَ عُمُرَكَ لِلَّهِ وأنْ يَكُونَ الدِّينُ قَضِيَّةَ حَياة !

إنَّنا نُعاني مِن مِئاتٍ مِنْ أصْحابِ الأقْلامِ المَسْمومةِ والأفْواهِ المَحْمُومَةِ الذينَ يُمارِسونَ العُهْرَ العِلْمِي كما يُمارِسُ غَيْرُهُم العُهْرَ الأخْلاقيَّ !

يُريدونَ هَدْمَ المِلَّةِ رُكْنـًا رُكْنـًا ، وتَشْويهَ الدِّينِ حُكْمـًا حُكْمـًا والطَّعْنَ في ثَوابِتِ الشَّريعةِ أمْراً أمْراً !

يُريدونَ مِنْكَ أنْ تَسْتَحْيِيَ أنْ تَقُولَ : أنا مُسْلِمٌ ! وأنْ تَخْجَلَ أنْ تَتَكَلَّمَ بشيءٍ من أحْكامِ الإسْلامِ !

وأنتَ يُمْكِنُ أنْ تَجِدَ في النَّاسِ مِنْ حَوْلِك مَنْ تتأَسَّىٰ به في جانبٍ من الجوانب : في إنجازٍ معيَّنٍ حقّقه أو علمٍ مخصوصٍ حصَّلَهُ ، أو في نَجاحٍ أو في ابتكارٍ أو إبداعٍ ، أو في اكتشافٍ أو اختراعٍ !

يمكن أن تجدَ مِن حولِك من تتأَسَّىٰ به في حِلْمِهِ وطولِ صَبْرِهِ ، في صِدْقِهِ ووفائِهِ بوَعْدِهِ ، في أمانتِهِ ورِعايتِهِ لعهدِهِ ، في تحمُّلِهِ لمسئوليَّتِهِ قلَّتْ أو كثُرَتْ ، صغُرَتْ أو كبُرَتْ !

يمكن أن تَجِدَ في أهْلِ عَصْرِك ومجتمعك أو غَيْرِهِ رئيسًا فاضلاً حريصًا علىٰ مصالح شعبِهِ وأمَّتِهِ ، أو سياسيًا بارعًا ، أو قائداً نابغًا وعسكريًا واعِيًا ، أو مُفكِّراً ومثقَّفًا عاقلاً ، أو قاضيًا عادلاً ، أو معلمًا مُبدِعًا ، أو عالمًا متميِّزاً أو عابداً زاهداً ، أو داعيةً أو مصلِحًا .

يمكن أن تجد فيمَن حولك صديقًا وفِيًّا أو زميلاً مخلِصًا ، والداً رحيمًا وأبًا رؤوفًا ، ابنًا بارّاً وولَداً وَصُولاً ، وأخًا حكيمًا ودوداً ، وزوجًا محبًّا لأهْلِهِ وفيًّا لهم = يمكنُ أنْ تجدَ كُلَّ هؤلاءِ وغيرَهم .

لكنَّك أبداً لا تستطيعُ أنْ تجدَ في الدُّنيا كلِّها شخصًا واحداً جمع كلَّ هذه الأخلاقِ العالية والصِّفاتِ الزاكيةِ في وقتٍ واحدٍ ، وقام بهذه الأدوارِ كلِّها في آنٍ واحدٍ ، ووفَّى بهذه الحقوقِ كلِّها لأهلِها ، وأدَّىٰ هذه الواجباتِ كلَّها إلىٰ أصحابِها ، ولم يُفرِّطْ أو يُخِلَّ بشيءٍ منها = اللهمَّ إلا أنْ يكونَ نبيًّا معصومًا أو رسُولاً مُؤيَّداً بالوحي من ربِّه ، وذاك هو رسولُ اللَّهِ – صَلَّىٰ اللَّهُ عليه وسلَّم – .

يا رسُولَ اللهِ حُبُّكَ في *** مهجتي كالدُّرِّ في الصَّدَفِ

والشَّذىٰ في الرَّوضةِ الأُنُفِ *** والفُراتِ العذبِ في الدِّيَمِ

ليس كالمختارِ في البَشَرِ *** فهو كلُّ السَّمعِ والبَصَرِ

واحدُ التَّاريخِ والسِّيَرِ *** وإمامُ الرُّسْلِ والأُمَمِ

دمعتْ عيني لرُؤْياهُ . . . وهفا قلبي لِلُقياهُ . . . وخَصَّهُ بالفضلِ مولاه

فَهُوَ في الأخيارِ كالعَلَمِ

فنحنُ عندما نتكلَّمُ عن شخصِ الرَّسُولِ الأكرم – صَلَّىٰ اللَّهُ عليْهِ وسلَّم – فإنَّنا نتكلَّم عن رسُولٍ بل عن أشرفِ رسولٍ يتنزَّلُ عليه الوحْيُ من السَّماءِ ويتلقَّىٰ كلامَ ربِّهِ ليربِطَ الأرضَ بالسَّماءِ بأطْهَرِ علاقةٍ وأشرفِ رباطٍ .

نتكلَّمُ عن سياسيٍّ بارعٍ اسْتطاعَ بتوفيقِ اللهِ له أنْ يجمعَ شعبَهُ حولَهُ ويُوَحِّدَ صفَّهم وكلمتَهم ويَلُمَّ شَمْلَهم ويُؤَلِّفَ بينَ قلوبِهم ، وينزِعَ فتيلَ الخِلافِ والنِّزاعِ من بينهم ، ويختصرَ همومَهم كُلَّها في همٍّ واحدٍ وهو إقامةُ دولتهم وتبليغُ دعوتِهم وحِراسةُ دينهم ورعايةُ دنْياهم !

وقد أفلحَ – صَلَّىٰ اللَّهُ علَيْهِ وسلَّم - الفلاحَ كُلَّه ونجحَ النَّجاحَ كُلَّه في تأسيسِ وتكوينِ دولتِهِ ، وتخريجِ جيلٍ من المُسْلِمينَ الأوفياءِ والمؤمنينِ الأتْقِياءِ الذين بلَّغوا رسالتَهم وأدَّوْا أمانَتَهم ونتكلَّم عن قائدٍ نابهٍ وعسكريٍّ خَبيرٍ يدرُسُ أحوالَ الأُمم والشُّعوبِ من حولِهِ ، ويضعُ الخُطَطَ الصائبةَ ، ويستشيرُ أصحابَه معه ، ويختارُ الزَّمانَ والمكانَ المناسبَ لهدفِهِ ، ويقودُ الجيوشَ بنفسِه ، حتَّىٰ إذا حَمِيَ الوطيسُ واشتدَّ البأسُ واحمرَّت الحَدَقُ وخرِسَتْ الألسنةُ وخطبت السُّيوفُ والرِّماحُ علىٰ الرِّقابِ والرُّؤوسِ والصُّدورِ والظُّهورِ = كان النَّبيُّ – صَلَّىٰ اللَّهُ عليه وسلَّم – في مقدِّمةِ أصحابِهِ وأقربَهم إلىٰ عدوِّهِ ، ويقولُ في إقدامٍ وقوَّةٍ وشجاعةٍ وجرأةٍ :

أنا النَّبيُّ لا كَذِبْ *** أنا ابنُ عبدِ المُطَّلِبْ

وهو مع ذلك كلِّهِ مُصلِحٌ عظيمٌ ورجلٌ إنسانيٌّ صاحبُ قلبٍ كبيرٍ يعيشُ أحوالَ النَّاسِ مِنْ حَوْلِهِ ، وتشغلُهُ آمالُهُم وآلامُهم ، ويُشارِكُهم أفراحَهم وأتراحَهم : فيفرَحُ لفرحِهم ويَحْزَنُ لحُزنِهم ويُحاوِلُ التَّخفيفَ عنهم وإصلاحَ أحوالِهم ، ويغمُرُهم بحبِّهِ لهم وعَطْفِهِ عليهم ، وإرشادِهِ وتوجيهِه ، وتعليمِهِ وتسديدِه .

نتكلَّمُ عن رجلٍ عابدٍ ، ومُتبتِّلٍ خاشعٍ ، أوَّابٍ منيبٍ ، لا يَكَلُّ ولا يَمَلُّ من عبادةِ ربِّهِ – عزَّ وجلَّ - وذكرِهِ وشُكرِهِ في كلِّ مجلسٍ وعلىٰ كلِّ حال ، قد أخذت العبادةُ بنفسِهِ كأنَّما فرَّغَ لها حياتَهُ ووقتَهُ ، وعقلَهُ وقلبَهُ .

نتكلَّم عن رجُلٍ أمِّيٍّ آتاه اللهُ الكتابَ وجوامعَ الكلِمِ ، وأمرَه أنْ يطلُبَ الزِّيادةَ من علمِهِ ، حتَّىٰ علَّمَ العلماءَ وأدَّبَ الأدباء ، وبهرَ بفصاحتِه البُلَغاءَ والحُكَماءَ .

وهو مع ذلك كُلِّهِ الزَّوجُ الرَّحِيمُ والوالدُ الحنونُ ، والصَّاحبُ المخلص والصَّديقُ الأمينُ علىٰ أصحابِهِ ومعارِفِهِ ، الوفيُّ لَهُم أحْياءً وأمواتًا *.

---

* كما قالَ الشَّاعرُ :

يامَنْ له الأخلاقُ ما تَهْوَى *** العُلا منها وما يتعشَّقُ الكُبَراءُ
زانَتْك فى الخُلُقِ العظيمِ شمائلُ *** يُغْرَى بِهِنَّ ويُولَعُ الكُرَماءُ
فإذا سخوَتَ بلَغتَ بالجودِ المَدَى *** وفَعَلْتَ ما لا تَفْعَلُ الأنواءُ
وإذا عفوْتَ فقادِراً ومُقَدَّراً *** لا يَسْتَهينُ بعفوكَ الجُهَلاءُ
وإذا رَحِمْتَ فأنْتَ أُمٌّ أو أبٌ *** هذانِ فى الدُّنيا هما الرُّحَماءُ
وإذا غَضِبْتَ فإنَّما هى غضبةٌ *** فى الحقِّ لا ضِغْنٌ ولا بغضاءُ
وإذا رَضِيتَ فذاكَ فى مرضاتِهِ *** ورضا الكثيرِ تَحَلُّمٌ ورياءُ
وإذا خطَبْتَ فللمَنابرِ هِزَّةٌ *** تَعْرُو النَّدَى وللقلوبِ بكاءُ

وقد شهد للنَّبيِّ – صلَّىٰ اللَّهُ عليهِ وسلَّم – البعيدُ قبلَ القريبِ والعَدوُّ قبلَ الصَّديقِ واعترفوا بفضلِهِ ، وكمالِ خُلُقِهِ وعدلِهِ ، وحِلمِهِ وصبرِه ، وسَدَادِ عقلِهِ وصِحَّةِ فهمِهِ ، وكلامُهم في ذلك كثيرٌ يَملأُ الدَّواوينِ ، ومن ذلك :

* يقولُ المُستشرقُ الأسباني جان ليك في كتابه " العرب " : لا يُمْكِنُ أنْ تُوصَفَ حياةَ مُحمَّدٍ بأحسَنِ مِمَّا وصفها اللهُ بقوله : { وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ } [الأنبياء/١٠٧] كان مُحمَّدٌ رحمةً حقيقيةً ، وإنِّي أُصَلي عليه بلهفةٍ وشَوْقٍ . اهـ

** ويقولُ المُؤَرِّخُ الإنْجِليزي وليام مُويَر في كتابِهِ " حياةُ مُحَمَّدٍ " : لقد امتاز مُحمَّدٌ – عليه السَّلامُ – بوضوح كلامِه ويُسْرِ دِينِهِ ، وقد أتَمَّ من الأعمالِ ما يُدْهِشُ العقولَ ، ولم يَعْهَدِ التَّاريخُ مُصْلِحًا أيقظَ النُّفوسَ وأحيَىٰ الأخلاقَ ورفعَ شأنَ الفضيلةِ في زمنٍ قصيرٍ كما فعل نَبِيُّ الإسلام محمَّد . اهـ

*** ويقولُ العالِمُ الأمريكي مايكل هارث : إنَّ مُحَمَّدًا – صلىٰ الله عليه وسلَّم – كان الرَّجُلَ الوحيدَ في التَّاريخ الذي نجح بشكلٍ أسْمىٰ وأبرزَ في كِلا المُستويَيْن الدِّيني والدُّنْيَوي ... إنَّ هذا الاتِّحادَ الفريدَ الذي لا نظيرَ له للتَّأثيرِ الدِّيني والدُّنْيَويِّ معًا يُخَوِّلُهُ لأنْ يُعتَبرَ أعظمَ شخصِيَّةٍ ذاتِ تأثيرٍ في تاريخ البشريَّة . اهـ

**** ويقولُ الفيلسوفُ الفرنسي كارديفو : إنَّ مُحمَّداً كان هو النَّبيَّ المُلْهَمَ والعبدَ المؤمِنَ ، ولم يَسْتَطِعْ أحدٌ أنْ يُنَازِعَهُ المكانةَ العاليةَ التي كان عليها ، إنَّ شُعُورَ المساواةِ والإخاءِ الذي أسَّسَهُ مُحَمَّدٌ بين أعضاءِ الكُتْلَةِ الإسْلامِيَّةِ كان يُطَبَّقُ عملِيًّا حتَّىٰ علىٰ النَّبيِّ نفْسِهِ . اهـ

***** ويقولُ الرِّوائيُّ الرُّوسيُّ والفيلسوفُ المَشْهور تُولِسْتُوي في مقالةٍ له بعنوان " مَنْ هو مُحمَّد ؟ " : إنَّ مُحَمَّداً هو مُؤَسِّسٌ ورسولٌ ، كان من عُظماءِ الرِّجالِ الذينَ خدموا المجتمعَ الإنسانيَّ خِدْمةً جليلةً ، ويكفيه فخراً أنَّه هَدَىٰ أُمَّةً برُمَّتِها إلىٰ نورِ الحَقِّ ، وجعلها تجنحُ إلىٰ السَّكينةِ والسَّلامِ ، وتُؤْثِرُ عِيْشَةَ الزُّهدِ ، ومنعها من سَفْك الدّماءِ و تقديمِ الضَّحايا البشريّةِ ، وفَتَحَ لها طريقَ الرُّقِيِّ و المدنيَّة ، وهو عمَلٌ عظيمٌ لا يُقْدِمُ عليه إلا شخْصٌ أُوتِيَ قُوَّةً ، ورَجُلٌ مِثْلُهُ جديرٌ بالاحتِرامِ والإجْلالِ . اهـ

ويُضيفُ قائلاً : ولذلك يُمكنني أنْ أؤكِّدَ نبوءَتي فأقول : إنَّ بوادرَ العصرِ الإسْلامي الأوروبي قريبةٌ لا محالةَ ، وإنِّي أعتقد أنَّ رجُلاً كمحمَّد لو تَسَلَّمَ زمامَ الحُكْمِ المُطلَقِ في العالم بأجمعِهِ اليومَ = لتَمَّ له النَّجاحُ في حُكْمِهِ ، ولقادَ العالَمَ إلىٰ الخيرِ ، وحلَّ مَشَاكِلَهُ علىٰ وجهٍ يُحَقِّقُ للعالم كُلِّهِ السَّلامَ والسَّعادةَ المنشودةَ .

****** ويقولُ أيضاً : إنَّ أتباعَ مُحمَّدٍ أوفرُ أدبًا في كلامهم عن المسيح . اهـ

****** ويقولُ الفيلسوف والكاتبُ الإنجليزي المعروفُ بِرْنانْدشو : إنَّ أوروبا الآنَ ابتدأتْ تُحِسُّ بحكمةِ مُحمَّدٍ ، وبدأتْ تعيشُ دينَه ، كما أنَّها ستُبَرِّئُ العقيدةَ الإسلاميَّة ممَّا اتَّهَمَتْها به من أراجيفِ رجالِ أوروبا في العصورِ الوُسْطىٰ .

هذا بعضُ ما قيلَ فيه – صلىٰ الله عليه وسلَّم – علىٰ ألسنةِ غيرِ المسلمين ، وهذا من عَدْلِهم وإنصافِهم وإنْ لم يكونوا مؤمنينَ بهِ ، والحقُّ ما شهدَتْ به الأعادي .

ونَحْنُ لا نَذْكُرُ ذلكَ افتخاراً بهِ ولا نَحْتاجُ إلَيْهِ ، وإنَّما نَقُولُهُ لِمَنْ لا يَفْهَمُ إلَّا لُغَةَ الأعاجِمِ ولا يَقْتَنِعُ إلَّا برَطَانَةِ الخواجاتِ ! ويَكْفِيهِ – صلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وسَلَّم – عَنْ تَزْكِيَةِ وشَهادةِ كُلِّ أهْلِ الأرضِ تَزْكِيةُ وشَهادةُ مَنْ في السَّماءِ : { وَإِنَّكَ لَعَلى خُلُقٍ عَظِيمٍ } [القَلَم/٤]

(٠١) يكفيكَ عن كلِّ مدحٍ مدحُ خالقِهِ *** واقرأْ بربِّك مبدأً سورةَ القَلَمِ

(٠٢) شهْمٌ تَشيدُ بهِ الدُّنيا برُمَّتِها *** على المنابرِ من عربٍ ومن عجَمِ

(٠٣) أحيا بك اللهُ أرواحاً قد اندثرتْ *** في تُربةِ الوَهمِ بين الكأسِ والصَّنمِ

(٠٤) نفضْتَ عنها غبارَ الجهلِ فاتَّقدَتْ *** وأبدعتْ ورَوَتْ ما قُلْتَ للأُمَمِ

(٠٥) ربَّيْتَ جيلاً أبيّاً مؤمناً يَقِظاً *** حَسَوْا شريعتَك الغرَّاءَ في نَهَمِ

(٠٦) محابرٌ وسجِلاتٌ وأنديةٌ *** وأحرفٌ وقوافٍ كُنَّ في صَمَمِ

(٠٧) فمَن أبو بكرٍ قبلَ الوحي مَنْ عُمَرُ ؟ *** ومَنْ عليٌّ ومَن عثمانُ ذو الرَّحِمِ ؟

(٠٨) مَن خالدٌ مَن صلاحُ الدِّينِ قبلَك ؟ *** مَنْ مالكٌ ومَنْ النُّعمانُ في القِمَمِ ؟

(٠٩) مَن البخاريُّ ومَن أهلُ الصِّحاحِ ؟ *** ومَنْ سُفيانُ والشَّافعيُّ ذو الحِكَمِ ؟

(١٠) مَن ابنُ حنبلٍ فينا وابنُ تيميَةَ ؟ *** بل الملايينُ أهلُ الفضلِ والشَّمَمِ ؟

(١١) مِنْ نَهْرِكَ العَذْبِ يا خَيْرَ الوَرَى اغْتَرَفُوا *** أنتَ الإمامُ لأهْلِ الفضلِ كُلِّهِمِ

أيُّها الإخوةُ الكرام : إنَّ الأرضَ أضاءَتْ وأشْرَقَتْ بِوَحْيِ ربِّها يَومَ بَعَثَ اللّهُ – تَعالَىٰ – مُحمَّداً – صلَّىٰ اللّهُ علَيْهِ وسلَّم – لِحُسْنِ أخلاقِهِ وكَمالِ أوصافِهِ وخِصَالِهِ الكريمةِ وفَضائِلِهِ العَظِيمَةِ ، وقَبْلَ مَبْعَثِهِ – صَلَّىٰ اللّهُ علَيْهِ وسلَّم – كانَ النَّاسُ جِيفةً في أحضانِ صَنَمٍ وجُثَّةً تَحْتَ أقْدامِ وَثَنٍ جِباهٌ قدْ انْحَنَتْ لِلَّاتِ والعُزَّىٰ ، ووجُوهٌ قَدْ خَضَعَتْ لِمَناةَ الثَّالِثةِ الأُخْرَىٰ !

قُلُوبٌ قَدْ تَعَلَّقَتْ بِغَيْرِ خَالِقِها ، ونُفُوسٌ قَدْ ذَلَّتْ لِغَيْرِ مَالِكَها !

فأرْسَلَ اللّهُ – عَزَّ وجلَّ – مُحَمَّداً – صَلَّىٰ اللّهُ عَلَيْهِ وسَلَّم – لِيُقِيمَ بِهِ المِلَّةَ العَوْجَاءَ ويَدْعُوَ إلَىٰ ربِّهِ ، ويَرُدَّ كُلَّ شيءٍ إلَىٰ نِصَابِهِ ، ويُعِيدَ كُلَّ أمْرٍ إلَىٰ حَقِيقَتِهِ وأصْلِهِ ، فجَعَلَ في العُقُولِ حِكْمةً ، وفي النُّفُوسِ رَحْمةً ، وفي القُلُوبِ إيمانـًا وفي الأرواحِ يَقِينـًا ، وتَرَكَ في أمَّتِهِ وَحْيـًا وعِلْمـًا ، وأقامَ في الكَوْنِ إنْصافـًا وعَدْلاً { وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ } [**الأنبياء/١٠٧**]

مُحَمَّدٌ أتْقىٰ النَّاسِ كُلِّهِمْ وأبَرُّهُم قَلْبـًا وأزْكَاهُم نَفْسـًا وأشْرَحُهُم صَدْراً وأكْمَلُهُم عَقْلاً وأسَدُّهُم رأيـًا ، وأقْوَمُهُم هَدْيـًا ، وأوسَطُهم مَذهَبـًا ، وأحْسَنُهُم طَرِيقةً ، وأقواهُم بَصِيرةً ، وأفْصَحُهم لِسانـًا وأوضَحُهم بَيانـًا ، وأثْبَتُهم حُجَّةً وأَصْدَقُهُم لَهْجةً ، وأنْصَحُهُم قِيلاً وأهْداهُم سَبيلاً ، وأكْرَمُهُم خُلُقـًا وأوْسَعُهم حِلْمـًا ، وأعْظَمُهُم رحمةً ، وأجْوَدُهُم يَداً ، وأسْلَمُهُم جَانِبـًا ، وأرضاهُم سَجِيَّةً ، وأجَلُّهُم قَدْراً وأعَزُّهُم فَخْراً – صلَّىٰ اللّهُ عَلَيْهِ وسلَّم –

أُثْنِي عَلَى مَنْ ؟ أَتَدْرِي مَنْ أُبَجِّلُهُ ؟ *** أَمَا عَلِمْتَ بِمَنْ أَهْدَيْتُهُ كَلِمِي

مُحَمَّدٌ أَبهَى مِنَ البَدْرِ فِي لَيْلِ التَّمامِ وقُلْ *** مُحَمَّدٌ أسْخَى من البحرِ بل أرسَى من العَلَمِ

مُحَمَّدٌ أَصْفَى مِنَ الشَّمْسِ فِي نُطْقٍ ومَوْعِظَةٍ *** مُحَمَّدٌ أمْضَى مِنَ السَّيْفِ فِي حُكْمٍ وفِي حِكَمِ

مُحَمَّدٌ أَشْجَعُ النَّاسِ قَلْبـًا غَيْرَ مُنْتَقِمٍ *** مُحَمَّدٌ أَصْدَقُ الخَلْقِ طُرّاً غَيْرَ مُتَّهَمِ

مُحَمَّدٌ أَغَرٌّ تُشْرِقُ مِنْ عَيْنَيْهِ مَلْحَمَةٌ *** مِنَ الضِّيَاءِ لِتَجْلُوَ الظُّلْمَ والظُّلَمِ

مُحَمَّدٌ مُحَرِّرُ العَقْلِ بَانِي المَجْدِ بَاعِثُنَا *** مِنْ رَقْدَةٍ فِي دِثَارِ الشِّرْكِ واللَّمَمِ

بِنورِ هَدْيِكَ كَحَّلْنا مَحَاجِرَنَا *** لَمَّا كَتَبْنَا حُرُوفاً صُغْنَها بِدَمِ

فِي هِمَّةٍ عَصَفَتْ كالدَّهْرِ واتَّقَدَتْ *** كَمْ مَزَّقَتْ مِنْ أَبِي جَهْلٍ ومِنْ صَنَمِ

مَنْ نَحْنُ قَبْلَكَ إلا نُقْطَةٌ غَرِقَتْ *** فِي الجَهْلِ بل دَمْعَةٌ خَرْسَاءُ فِي القِدَمِ

أَهْدَيْتَنَا مِنْبَرَ الدُّنْيَا وغَارَ حِرَا *** ولَيْلَةَ القَدْرِ والإسْرَاءَ لِلْقِمَمِ

والحَوْضَ والكَوْثَرَ الصَّافِي جِئْتَ بِهِ *** أَنْتَ المُزَمِّلُ فِي ثَوْبِ الهُدَى فَقُمِ

إنْ كُنْتُ أُحْبَبْتُ بَعْدَ اللّهِ مِثْلَكَ فِي *** بَدْوٍ وحَضَرٍ ومِنْ عَرَبٍ ومِنْ عَجَمِ

فلا اشْتَفَتْ عَيْنَيَّ مِنْ مَنْظَرٍ حَسَنٍ *** ولا تَفَوَّهَ بالقَوْلِ السَّدِيدِ فَمِي

ولذلك يُمْكِنُ أنْ أقولَ قولاً وأنا أعتقِدُ صِحَّتَهُ وصَوَابَهُ : إنَّ كثيراً من التُّهَمِ والذَّمِّ والنَّقْصِ والعَيْبِ الذي أُلصِقَ بالنَّبيِّ – صلَّىٰ اللَّهُ عليه وسلَّم – ونُشِرَ في الشَّرقِ أو في الغربِ في بلادِ المسلمين أو بلادِ غيرِهم = إنَّما المسؤولون عنها أوَّلاً هم المسلمون المعاصِرون ، وهيَ في الحقيقةِ تُهَمٌ لهم لا له – صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وسلَّم - ، وهيَ تُصَوِّرُ حالَهم أو حالَ كثيرٍ منهم ولا تُمَثِّلُ حالَهُ هُوَ – صَلَّىٰ اللَّه عليه وسلَّم - :

إنَّهم يتَّهِمون الرَّسولَ – صَلَّىٰ اللَّهُ عليهِ وسلَّم – بالتَّخلُّفِ والجهلِ والبُعْدِ عن الحضارةِ والعِلْمِ = وهذا مَرَدُّه إلىٰ التَّخلُّفِ والجهلِ الذي يعيشُهُ المسلمون المعاصرون بخلافِ أسلافِهم الذين ضربوا المَثَلَ الأروعَ في العلم والثَّقافةِ ، والفِكرِ والتَّقدُّمِ ، وشاركوا في العلومِ كُلِّها ، وأقاموا حضارةً ملأتْ سمعَ التَّاريخِ وبصرَهُ ، وبهَرَت القاصيَ والدَّانيَ ، والمُخالِفَ والموافقَ ، والعدوَّ والصَّديق ، ويَكْفي أنَّ أوَّلَ كَلِمةٍ نَزَلَتْ من الوَحْيِ فيها أمْرٌ بالعِلْمِ {اقرأ} ولكنَّ أمَّةَ اقرأ لا تَقرأُ ، وأمَّةُ العِلْمِ هَجَرَت العِلْمَ ، وَرَضِيَتْ بالجَهْلِ وأنْ تَقَلِّدَ غَيْرَها !

ويتَّهمون النَّبيَّ – صلَّىٰ اللَّه عليه وسلَّم – بالعُنفِ والإرهابِ ، والقَتْلِ وسفكِ الدِّماءِ : وهذا كلُّهُ بسببِ مُمارسةِ بعضِ المسلمين الجهَلةِ بالشَّرعِ أو المضحوكِ عليهم والمخدوعين ، والذين يتهوَّرون في ردودِ أفعالِهم ، أو يَستدرِجُهم غيرُهم إلي العنفِ والإرهابِ ، وليس هكذا أسلافُنا المُتقدِّمون أهلُ الفقهِ والعلمِ والحكمةِ والحلم .

ملكنا فكان العفوُ مِنَّا سجيَّةً *** فلمَّا ملكتُم سالَ بالدمِ أبطحُ
وأبحتُم قتلَ الأُسارىٰ وطالما *** غَدَوْنا على الأَسْرىٰ نعفو ونصفحُ
فحسبُكُمُ هذا التَّفاوتُ بيننا *** وكلُّ إناءٍ بالذي فيهِ ينضحُ

ويتَّهمون النَّبيَّ – صلَّىٰ اللَّهُ عليه وسلَّم – بالشَّهوة والإقبالِ علىٰ أمورِ النِّساء لكثرةِ زوجاتِه – رضيَ اللهُ عنهُنَّ - ! مع أنَّ النَّبيَّ – صلَّىٰ اللهُ عليه وسلَّم – لَمَّا تزوَّجَ وهو شابٌّ ابنُ خمسٍ وعشرين سنةٍ تَزَوَّجَ من خديجةَ – رَضِيَ اللَّهُ عنها - وهي بنتُ أربعين سنة ، فأينَ الشَّهوة أيُّها المَخْبولونَ ؟! وعاش معها خمسةً وعِشرين عاماً أخرىٰ حتىٰ صار عمرُهُ خمسين سنةً ولم يتزوَّجْ عليها أصْلاً حتىٰ ماتت وهيَ بنتُ خمسٍ وستِّين سنة ، فأينَ الشَّهوةُ أيُّها المَخْبولونَ ؟! وبعدما ماتتْ – رضِيَ اللَّهُ عنها - عاش بعدها قُرابةَ خَمسِ سنين بلا زوجةٍ أصلاً حتىٰ صارَ عُمُرُه خَمساً وخَمسينَ سنةً ، وكان بإمكانه أنْ يتزوَّج مَن شاء في شبابِه وقُوَّتِهِ و كَمالِ شَهْوتِهِ ، وقبلَ كِبرِه وشيخوخَتِهِ ، فأينَ الشَّهوة أيُّها المَخْبولونَ ؟!

وإنَّما تَزَوَّجَ بَقِيَّةَ زوجاتِهِ في آخِرِ تِسْعِ سنينَ منْ عُمُرِهِ لِمصالِحَ دينيَّةٍ كبيرةٍ ، وانْبَنىٰ عليها كثيرٌ من الأحْكامِ والتَّشْريعِ ، ولم يَكُنْ يتزوَّجُ زوجةً إلَّا بأمرٍ من ربِّهِ – عزَّ وجلَّ – : {قَدْعَلِمْنَا مَا فَرَضْنَا عَلَيْهِمْ فِي أَزْوَاجِهِمْ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ لِكَيْلَا يَكُونَ عَلَيْكَ حَرَجٌ وَكَانَ اللَّهُ غَفُوراً رَّحِيماً } [الأحزاب/٥٠]

وإنَّما هذا الاتِّهامُ يتوجَّه لكثيرٍ من المسلمين الذين يتقلَّبون بين أفخاذِ النِّساءِ ، عُبَّادِ الشَّهوةِ والجَسدِ !

هذا الاتِّهامُ سببُهُ أصحابُ المواقعِ السَّافلةِ والقنواتِ الهابطةِ التي تبُثُّ الرَّذيلةُ ومقدِّماتِها ، وتعرضُ الفاحشةَ بكلِّ صُوَرِها ، وتُهيِّجُ الغرائزَ الكامنة ، وتُسهِّلُ السُّبُلَ وتختصرُ الطُّرُق أمامَ أصحابِ الشَّهواتِ المسعورة ، وكثيرٌ من أصحابِها في الجملةِ مسلمون !

فهذا اتِّهامٌ لهم لا لرسولِهم ، وهذا تعبيرٌ عن سلوكِهم وواقعِ حياتِهم ، وسيرةُ الرَّسولِ الأكرمِ وسنَّتُهُ بريئةٌ من هذا الزُّورِ والخَنا والفُحْشِ والزِّنا ، ومن سُلوكِ مَنْ هذا سلوكُهُم .

فواقعُ المسلمين اليوم وفسادُ أحوالِهم وجهلُهم وتخلُّفُهم عن بِناءِ حضارتهم هو الذي يُقدِّمُ الشَّهادةَ الخاطئةَ والصُّورةَ السَّيِّئةَ عن الإسلامِ ونبيِّ الإسلامِ – صَلَّىٰ اللَّهُ علَيْهِ وسلَّم – !

أيُّها الإخوةُ الكِرامُ : إنَّ كثيراً من المسلمين اليومَ صاروا فتنةً للذين كفروا :
بحيثُ يقولُ الكافرون : لو كان في هذا الدِّينِ خيرٌ لانتفعَ به أهله ، واستفادَ منه أصحابُهُ ، ورفعَ المؤمنين به عن جهلِهم وتخلُّفِهم ، وفقرِهم وضعفِهم !
وإذا أردنا أنْ نُقدِّمَ الإسلامَ للعالم عَلَىٰ أنَّه هُو الحلُّ فإنَّهم سيقولون : لماذا لا تُطبِّقونه علىٰ أنفُسِكم وبلادِكم أنتم أولاً ، فإذا نجح عندكم فاعرِضوه بعد ذلك علىٰ غيرِكم ؟!
إنَّ بعضَ الذين ينتسبون إلىٰ الإسلامِ اليوم يخرجون من الإسلام جهلاً منهم بحقيقةِ هذا الدِّين ، أو بُغْضًا في بعضِ الجَماعاتِ والحِزبِيِّين ، وأيضًا بسببِ سوءِ أخلاقِ وفسادِ أحوالِ كثيرٍ من المتديِّنين ورموزِ الدِّين فضلاً عن عموم المسلمين !
وقد ذكروا أنَّ الحجَّاجَ بنَ يوسُفَ الثَّقفي - وكان جبَّاراً وظالمًا - قال لغلامٍ يومًا : اقرأْ عليَّ من القرآن ، فقرأ الغلامُ : " إذا جاءَ نصرُ اللهِ والفتح (١) ورأيتَ النَّاسَ يخرجون من دينِ اللهِ أفواجًا } ! وأرادَ أنْ يُكمِلَ السُّورةَ .
فقال الحجَّاجُ : ويلك ، إنَّما هيَ { ورأيتَ النَّاسَ يدخلون فيْ دينِ اللهِ أفواجًا " !
فقال له الغلام : هذا كان فيْ زمانِ أبيْ بكرٍ وعمر ، كان النَّاسُ يدخلون في دينِ اللَّهِ أفواجًا ، أمَّا في إمارتِكَ وحكمِك فإنَّ النَّاسَ يخرُجون من دين اللَّهِ أفواجا !
وسَمِعْتُ مرَّةً من بعضِ المشايخ الذين كانوا يُسافرون إلىٰ أمريكا للدَّعــــوةِ والتَّعليم قال : أنَّه رأىٰ بعضَ الأمريكيين الذين أسلموا وسمَّىٰ نفسَهُ محمَّداً ، وتعلَّم شيئًا من علومِ الشّريعة وأحكامِها ، فإذا به ينظرُ إلىٰ أحوالِ المسلمين العرب الذين هاجروا إلىٰ أمريكا فلا يكادُ يرىٰ فرقًا بينهم وبين اليهودِ أو النّصارىٰ وسائرِ المشركين ، لا في شَكلِهم ولا في ملابِسِهم وزِيِّهم ولا في أخلاقِهم ومعاملاتِهم : يشربون الخمرَ كغيرِهم ، ويُعاقِرون الفواحشَ كغيرِهم ، ويتعاملون بالرّبا كغيرِهم ، ولا يُقيمون شعائرَ دينهم !
فوقفَ هذا المسلم الأمريكي في خطبةٍ خطبَها وهو يقولُ : أيُّها المسلمون العرب اخرجوا من بلادِنا وارجعوا إلىٰ بلادِكم مرَّةً أخرىٰ ، فقد شوَّهتم صورةَ الإسلامِ ، وصددتُم النّاسَ عن الدُّخول فيْ هذا الدّين !
نعم ، فقد صدقَ في كثيرٍ منَّا قولُ الرَّسول - صلَّىٰ اللَّهُ عليه وسلَّم - : "**إنَّ منكم منفّرين** "*
أيْ : إنَّ منكم مَن يكون سببًا في كُفْرِ غَيْرِهِ أو صُدُودِهِ عن الدِّينِ وبُعْدِهِ : { **رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا وَاغْفِرْ لَنَا رَبَّنَا إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ** } [المُمتحنة/٥]

---

* أخرجه البخاريُّ (٩٠ و٧٠٢ و ٧٠٤ و ٧١٥٩) ومسلمٌ (٤٦٦) وغَيْرُهما من حديثِ أبي مَسْعودٍ الأنْصاريِّ البَدْري - رضِي اللَّهُ عنه - .

ونقل الدُّكتور زغلول النَّجَّار – وفَّقَهُ اللَّهُ – في كتابه " قضيةالتَّخلُّفِ العلمي والتّقَنِي في العالَمِ الإسْلامي " ( ) عن البروفيسور " إيرفنج " وهو أستاذٌ بجامعة " تِنِسِي " الأمريكيَّة أنَّه وقف يومًا مخاطبًا لطائفةٍ كبيرةٍ من المسلمين ، فقال في خطابه : أيُّها المسلمون إنَّكم لن تستطيعوا أنْ تُنافِسُوا الدُّوَلَ الكبرىٰ علميًّا أو تقنيًّا أو اقتصاديًّا أو سياسيًّا أو عسكريًّا ، لكنَّكم تستطيعون أن تجعلوا هذه الدُّوَلَ تجثوا – أيْ : تَبْرُكُ – علىٰ الرُّكَبِ أمامكم بالإسلامِ .

أفيقوا من غفلتكم لقيمةِ هذا النُّورِ الذي تحملون والذي تتعطَّشُ إليه أرواحُ النَّاسِ في مختَلَفِ جنباتِ الأرضِ ! تعلَّموا الإسلامَ جيِّداً وطبِّقوه علىٰ أنفُسِكم أوَّلاً ، واحمِلوهُ لغيرِكم من البَشَرِ تتفتَّحْ أمامكم الدُّنيا ، ويَدِنْ – أيْ : يَذِلُّ ويخضعْ – لكم كُلُّ ذي سلطان .

أعطوني أربعين شابًّا يفهمُ هذا الدِّينَ فهمًا عميقًا ، ويُطبِّقونَه علىٰ حياتِهم تطبيقًا دقيقًا ويُحسِنون عَرضَه علىٰ النَّاسِ بلُغةِ العصرِ وأسلوبِهِ وأنا أفتحُ بهم الأمريكتين ! اهـ

أيُّها الإخوةُ الكرامُ : إنَّ الذين فتحوا ثلاثةَ أرباعِ الدُّنيا هم أجدادُنا ونحن أحفادُهم لكن ما أبعدَ الفرقَ بين أصلٍ وفرعِه !

كانَ أجْدادُنا الأوائلُ فَوْقَ النَّاسِ كُلِّهم وقادتَهم بالإسْلامِ ، فَصِرْنا نَحْنُ اليَومَ أسْفَلَ النَّاسِ كُلِّهم وجَهَلَتَهُم بَعْدَ استعمارِ العُقولِ والأفْكارِ !

كانَ أجْدادُنا الأوائلُ أعَزَّ النَّاسِ كُلِّهم وسادَتَهُم بالإسْلامِ ، فَصِرنا نَحْنُ اليَومَ أذَلَّ النَّاسِ كُلِّهم وأوضَعَهم بعدَ احتلالِ القُلُوبِ والضَّمائرِ !

كانَ أجْدادُنا الأوائلُ أعْلَمَ النَّاسِ كُلِّهم وأقواهُم بالإسلامِ فَصِرْنا نَحْنُ اليَومَ عَبِيدَ العَبِيدِ وأضعفَ النَّاسِ بَعْدَ غُرْبَةِ الدِّينِ والشَّرْعِ !

وابْتُلِينا بضَعْفٍ عِلْميٍّ وتَفَرُّقٍ دينيٍّ ونِزاعٍ فِكري وصِراعٍ حِزبيٍّ وانْحلالٍ خُلُقِيٍّ واحْتِلالٍ سِياسِيٍّ وضَغْطٍ وتَسَلُّطٍ أجْنَبيٍّ !

إنِّي تَذَكَّرْتُ والذِّكْرَى مُؤَرِّقَــةٌ *** مَجْداً تَلِيداً بأيدِينا أضَعْنــاهُ

وَيْحَ العُروبةِ كَانَ الكَوْنُ مَسْرَحَها *** فَأصْبَحَتْ تَتَوارى في زواياهُ

أنَّى اتَّجَهْتَ إلى الإسْلامِ في بَلَدٍ *** تَجِدْهُ كالطَّيْرِ مَقْصوصاً جَناحاهُ

كَمْ صَرَّفَتْنا يَدٌ كُنَّا نُصَرِّفُها *** وباتَ يَمْلِكُنا شَعْبٌ مَلَكْنـاهُ

كُنا أُسُوداً مُلُوكُ الأرضِ تَرْهَبُنا *** والآنَ أصْبَحَ فأرُ الدَّارِ نَخْشـاهُ

وَرَحَّبَ النَّاسُ بالإسْلامِ حِينَ رَأَوْا *** أنَّ الإخاءَ وأنَّ العَدْلَ مَغْـزاهُ

هِيَ الشَّريعةُ عَيْنُ اللَّهِ تَحْفَظُها *** فَكُلَّما حَاولوا تَشْويهَها شَاهُوا

سَلْ المَعالِي عَنَّا إنَّنا عَــــرَبٌ *** شِعارُنا المَجْدُ يَهْوانا ونَهْــواهُ

هِيَ العُـــروبةُ لَفْظٌ إنْ نَطَقْتَ بِهِ *** فالشَّرْقُ والضَّادُ والإسْلامُ مَعْنـاهُ

اسْتَرْشَدَ الغَرْبُ بالماضِي فأرْشَدَهُ *** ونَحْنُ كانَ لنا مَاضٍ نَسِينــــاهُ

إنَّا مَشَيْنا وَراءَ الغَــرْبِ نَقْتَبِسُ *** مِنْ ضِيائِهِ فأصابتنا شظايــاهُ

هَلْ تَطْلُبونَ من المُخْتارِ مُعْجِزَةً *** يَكْفِيهِ شَعْبٌ من الأجْداثِ أحْياهُ

اللَّهُمَّ قَدْ أصْبَحَتْ أهْواؤنا شِيَعاً *** فامْنُنْ عَلَيْنا براعٍ أنْتَ تَرْعـــاهُ

راعٍ يُعيدُ إلى الإسْلامِ سِيرَتَــهُ *** يَرْعَى بَنِيهِ وعَيْنُ اللهِ تَرْعَــــاهُ

فمَن مِنَّا اليومَ أيُّها المسلمون يتحمَّلُ أمانةَ هذا الدِّينِ تَعَلُّماً وتَعْلِيماً ويَحْمِلُ همَّ نشرِهِ والدَّعوةِ إليه ؟

مَن منَّا اليومَ يا شبابَ المسلمين يتعلَّمُ وحيَ السَّماءِ من الكتابِ والسُّنَّةِ ، ويُحْيِيهِ في نفوسِ النَّاسِ من جديد ؟ مَن منَّا اليومَ يعملُ بهذا النُّورِ بلا غُلوٍّ ولا شَطَطٍ ، ولا فُتورٍ ولا كَسَلٍ ؟

مَن منَّا اليومَ يدعو إليه بأخلاقِه وأفعالِه قبل تصريحاتِه وأقوالِه ؟ يدعو إليهِ على بصيرةٍ ووعيٍ بالحكمة والموعظةِ الحسنةِ ، فإذا تكاسلنا نحنُ اليومَ فمَن يا تُرَىٰ ينوبُ عنَّا ؟!

{ وَإنْ تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْماً غَيْرَكُمْ ثُمَّ لا يَكُونُوا أمْثالَكُمْ } [محمَّد /٣٨]

يا أُمَّةَ المَجْدِ قُومِي مَزِّقِي الحُجُــبا *** وأشْعِلِي في لَيَالِي دَهْرِكِ الشُّهُــبَا

هَلْ تَذْكُرينَ صَلاحَ الدِّينِ سَفْسَــطَةً *** مِنْ غَيْرِ بَذْلٍ ؟ صَلاحُ الدِّينِ قَدْ ذَهَبَا

قَبْرُ العَظِيمِ إذا مَــــا زارَهُ ذَنَبٌ *** أرْغَى وأزْبَدَ ! لا حُيِّيتَ يَا ذَنَــبا

لَوْ أسْمَعُوا عُمَرَ الفــاروقَ نِسْبَتَهُم *** وأخْبَروه الرَّزايا لأنْكَرَ النَّسَـــبا

أبوابُ أجْدادِنا مَنْحــــوتةٌ ذَهَباً *** وهَذِي هَيَاكِلُنا قَدْ أصْبَحَتْ خَشَبَا

مِنْ زمزمٍ سَقَيْنا النَّـــاسَ قاطِبةً *** وجِيلُنا اليَومَ مِنْ أعْدائنا قَدْ شَرِبَا

لكِنْ تُبَشِّرُ هذا الكَــوْنَ أجْمَعَهُ *** أنَّا صَحَوْنا وسِرْنا للعُلا عَجَــبا

بِفِتْيَةٍ طَهَّرَ القُــــرآنُ أنْفُسَهُم *** كالأُسْدِ تَزْأرُ في غاباتِها غَضَــبا

عَافَوْا حياةَ الخَنا والرِّجْسَ واغْتَسَلُوا *** بِتَوْبَةٍ لا تَرَى في صَفِّهِم جُنُـــبا

إنَّ جماهِيرَ المُسْلِمِين المُعَاصرين فرَّطوا كثيراً في جنابِ الرَّسولِ الأكرمِ – صَلَّىٰ اللَّهُ عليهِ وسَلَّم – وأهملوا كثيراً من حَقَّه ، ولم يُوقِّروه التَّوقيرَ الواجبَ له ، ولم يُراعُوا عُلُوَّ قدرِه ورِفعةَ شأنِه ، ووجاهتَه عِنْدَ ربِّهِ والمنصبَ العاليَ الذي أحَلَّهُ اللَّهُ فيه ، وهذا بخِلافِ أسلافِهم الأوَّلين وأجيالِهم المُتَقَدِّمِين :

والنَّبيُّ – صلَّىٰ اللهُ عليه وسلَّم – هو الذىٰ نقتدي بهَدْيِهِ وفِعلِه وتَرْكِهِ ، ونتأسَّىٰ به بعددِ الأنفاسِ !

حتىٰ إنَّ النَّبيَّ – صلىٰ اللهُ عليه وسلَّم – كان يفعَلُ الفِعلَ أحيانـًا بقصدِ التَّشريعِ مع خُلُوِّهِ من المُقتضِي الدَّاعىٰ له ، لكن ليتأسَّىٰ به أصحابُهُ ويفعلوا مِثلَ فعلِه . ومِن ذلك : " إنىٰ لا أُصَافِحُ النساء " & " غُسله عندما رأىٰ امرأةً وقولِهِ " إن المرأة تقبل فىٰ صورة شيطان ... "
وكان أحيانـًا يترك الفعل مع محبَّتِه له رفقـًا بأمَّتِهِ وخشيةَ أن يَشُقَّ عليهم أو أنْ يلحقَهم العَنَتُ بسببِ فعلِه ! ومن ذلك : " لولا أن أشق علىٰ أمتىٰ ... " تَرك التطويل في الصلاة الجهرية ، ترك التراويح جماعة في رمضان ... إلخ .

وكان أحيانـًا يفعلُ الفِعلَ يترخَّصُ فيه فيبلُغه أنَّ بعضَ أصحابِهِ يتنزَّهُ عنه فيزجرُهم زجراً شديداً ، ومن ذلك : ما بال أقوامٍ .... حديث عائشة وأنس .

فإذا كان التَّأسِّي بالرَّسُولِ الأكْرَمِ – صلىٰ الله عليه وسلَّم – علىٰ العموم فرضًا لازمًا ، فإنَّه مِمَّا يعينُ علىٰ طاعتِهِ والتَّأسِّي به – صَلَّىٰ اللَّهُ عليه وسلَّم – واتِّباعِهِ أمورٌ أوَّلُها وأوجبُها وألزمُها كمالُ محبَّتِهِ – صَلَّىٰ اللَّهُ عليه وسلَّم – فإنَّ الطَّاعةَ أسهلُ شيءٍ علىٰ قلوبِ المحبِّين ، والمُحِبُّ لا يجِدُ أبداً كُلْفَةً ولا مشقَّةً في طاعةِ حبيبه ، بل يستمتعُ بطاعةِ حَبِيْبِهِ ويُسارِعُ في مَرْضَاتِهِ ويتقرَّبُ إليه بذلك .

وكلَّما كانت المحبَّةُ في القلوبِ أتمَّ كانت الطَّاعةُ أكملَ وأوفىٰ ، وبقدر نقصانِ الحُبِّ في القلبِ تقعُ المخالَفةُ والعِصْيَان .وهذا هو قانونُ المَحَبَّةِ الذي لا يَخْتَلِفُ عَلَيْهِ أحَدٌ لا عَرَبيٌّ ولا عَجَمِيٌّ لا أبْيَضَ ولا أسْوَدَ لا مُسْلِمٌ ولا غَيْرُ مُسْلِمٌ = بلْ الكُلُّ يَقُولُ : لا تَتِمُّ المَحَبَّةُ ولا تَدُومُ إلَّا مَعَ الاسْتِجابةِ والطَّاعةِ .

وأوَّلُ مَنْ أسَّسَ هذا القانونُ في هذه الأمَّةِ وأشارَ إلَيْهِ ربُّ العَالَمينَ – سُبْحانَهُ وبحَمْدِهِ – كما في قَوْلِهِ – تَعالَىٰ – : {قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ} أيْ : بِحَقٍّ وصِدْقٍ لا بالكَلِماتِ الفارغةِ والدَّعاوَىٰ الكاذبةِ {فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ} [آل عِمران/٣١]

تَعْصِي الإلَهَ وأنْتَ تَزْعُمُ حُبَّهُ ؟ *** ذاكَ لَعَمْرِي في القِيَاسِ بَدِيعٌ !
لَوْ كَانَ حُبُّكَ صادقًا لأطَعْتَـــهُ *** إنَّ المُحِبَّ لِمَنْ يُحِبُّ مُطِيعُ

المذاكرة في ألقاب الشعراء (ص: ١٩، بترقيم الشاملة آليا)

وقفَ الهوىٰ بي حيثُ أنتِ فليسَ لي ... متأخرٌ عنهُ، ولا متقدمُ

وأهَنْتِنِي فأهَنْتُ نَفْسِيَ جَاهِداً *** مَا من يهونُ عليكِ ممن أكرمُ

أجدُ الملامةَ في هواكِ لذيذةً ... حبًا لذكركِ، فليلمني اللومُ

لو تَصَوَّرْتَ مَثلاً رجُلاً مُتَزَوِّجٌ بامرأةٍ كُلَّما قالَ لَها : يمين = تقولُ له : لا ، شمال ! يَقولُ لها : شمالٌ = تَقولُ هي : لا ، يمين ! يَقُولُ لَها : اقْتَرِبي فتبتعِد ، أو ابْتَعِدِي فتقتَرب ! ادْخُلِي فتخْرُجُ ، أو اخْرُجِي فتدخُل ! اسْكُتي فلا تَسْكُتُ ، تَكَلَّمي فلا تَتَكَلَّمُ ، " امرأة رذلة " تُخالِفُهُ علَىٰ طولِ الخَطِّ = هَلْ يُمْكِنُ لهذه العَلاقةِ أنْ تَسْتَمِرَّ ؟ أو لِهَذِهِ الحَياةِ أنْ تَدُومَ ؟!

الجوابُ : لا ، بل سَيَنْهَدِمُ البَيْتُ عاجلاً أو آجِلاً ، أو في النِّهايةِ سَيَخْرُجُ الأوْلادُ بنفْسِيَّاتٍ مُحَطَّمةٍ بِسَبَبِ هَذه العَلاقاتِ المُشَوَّهَةِ بينَ الأبِ والأُمِّ !

ومحبّةُ الرَّسَولِ – صلَّىٰ اللَّهُ عليه وسلَّم – ليست نافلةً وتطوُّعـًا ، ولا هي زيادةٌ واختيارٌ ، بل هي حتمٌ لازمٌ ، وفرضٌ واجبٌ ، ولا يتِمُّ الإيمانُ إلا بها :

وقد رَوَىٰ البخاريُّ (١٥) ومُسلمٌ (٤٤) وغَيْرُهُما عن أنسِ بن مالكٍ – رضيَ اللَّهُ عنه – قال : قال رسولُ الله – صلَّى اللَّهُ عليه وسلَّم – : " **لا يُؤمِنُ أحدُكم حتى أكون – أيْ : الرَّسُولُ – صلَّى اللَّهُ عليه وسلَّم – أحبَّ إليهِ من ولدِهِ ووالدِهِ والنَّاسِ أجمعين** " .

فنفىٰ النَّبيُّ – صلَّىٰ اللَّهُ عليهِ وسلَّم – الإيمانَ عمَّنْ لم يُحِبَّهُ ، بل نَفَىٰ الإيمانَ عمَّن لم يكن الرَّسُولُ – صلَّىٰ اللَّهُ عليه وسلَّم – أحبَّ إليهِ مِن كلِّ حبيبٍ : أحبَّ إليهِ من روحِهِ ونفسِهِ ، أحبَّ إليه من أولادِهِ وزوجِهِ ، أحبَّ إليه من أبيهِ وأُمِّهِ وأخيهِ وأختِهِ ، أحبَّ إليه من مالِهِ وتجارتِهِ وعملِهِ ووظيفتِهِ ، أحبَّ إليه من دارِهِ ومُلكِهِ ، وبلَدِهِ ووطنِهِ ، أحبَّ إليه من كُلِّ ما سِواهُما .

" **لا يُؤمِنُ أحدُكم حتَّى أكونَ أحبَّ إليهِ من ولدِهِ ووالدِهِ والنَّاسِ أجمعين** " .

والصَّحَابَةُ – رضيَ اللَّهُ عنهم – قد ضربوا المَثَلَ الأروعَ في محبَّةِ الرّسُولِ الأكْرَمِ – صلىٰ اللهُ عليه وسلَّم – وتعظيمِهِ توقيرِهِ ، وطاعَتِهِ والاسْتِجابَةِ لهُ وإنفاذِ أمرِه في حالِ حضورِه أو غيابِهِ ، وفي حالَ حياتِه أو بَعدَ وفاتِهِ ! ومِن ذلك :

- يقولُ المُستشرقُ الأسباني جان ليك في كتابه " العرب " :
لا يُمْكِنُ أنْ تُوصَفَ حياةُ محمَّدٍ بأحسَنِ مِمَّا وصفها اللهُ بقوله : { وَمَا أرْسَلْنَاكَ إلا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ } [الأنبياء/١٠٧] ، كان محمَّدٌ رحمةً حقيقيةً ، وإنِّي أصَلي عليه بلهفةٍ وشَوْقٍ . اهـ

- ويقولُ المُؤَرِّخُ الإنجليزي وليام مُويَر في كتابه " حياة محمَّد " :
لقد امتاز محمَّد – عليه السَّلامُ – بوضوح كلامِه ويُسْرِ دِينِهِ ، وقد أتَمَّ من الأعمالِ ما يُدْهِشُ العقولَ ، ولم يَعْهَدِ التَّاريخُ مُصْلِحاً أيقظ النُّفوسَ وأحيَى الأخلاقَ ورفعَ شأنَ الفضيلةِ في زمنٍ قصيرٍ كما فعل نَبيُّ الإسلام محمَّد . اهـ

- ويقولُ العالِمُ الأمريكي مايكل هارث :
إنَّ مُحَمَّدًا – صلى الله عليه وسلَّم – كان الرَّجُلَ الوحيدَ في التَّاريخ الذي نجح بشكلٍ أسْمى وأبرزَ في كِلا المُستويَيْن الدِّيني والدُّنْيَوي ... إنَّ هذا الاتِّحادَ الفريدَ الذي لا نظيرَ له للتَّأثير الدِّيني والدُّنْيَويِّ معًا يُخَوِّلُهُ أنْ يُعتَبرَ أعظمَ شخصيَّةٍ ذاتَ تأثيرٍ في تاريخ البشريَّة . اهـ

- ويقولُ الفيلسوفُ الفرنسي كارديفو :
إنَّ مُحمَّداً كان هو النَّبيَّ المُلْهَمَ والعبدَ المؤمِنَ ، ولم يَسْتَطِعْ أحدٌ أنْ يُنَازِعَهُ المكانةَ العاليةَ التي كان عليها ، إنَّ شُعُورَ المساواةِ والإخاءِ الذي أسَّسَهُ مُحَمَّدٌ بين أعضاءِ الكُتْلَةِ الإسْلامِيَّةِ كان يُطبَّقُ عملِيَّاً حتَّى على النَّبيِّ نفْسِهِ . اهـ

- ويقولُ الرِّوائيُّ الرُّوسيُّ والفيلسوفُ الكبيرُ تُولِسْتُوي في مقالةٍ له بعنوان " مَنْ هو مُحمَّد ؟ " : إنَّ مُحَمَّداً هو مُؤَسِّسٌ ورسولٌ ، كان من عُظَماءِ الرِّجالِ الذينَ خدموا المجتمعَ الإنسانيَّ خِدْمةً جليلةً ، ويكفيه فخراً أنَّه هَدَى أمَّةً برُمَّتِها إلى نورِ الحَقِّ ، وجعلها تجنحُ إلى السَّكينةِ والسَّلامِ ، وتُؤْثِرُ عِيْشَةَ الزُّهدِ ، ومنعها من سَفْك الدِّماءِ و تقديمِ الضَّحايا البشريَّةِ ، وفَتَحَ لها طريقَ الرُّقِيِّ و المدنيَّة ، وهو عمَلٌ عظيمٌ لا يُقْدِمُ عليه إلا شخْصٌ أوتِيَ قُوَّةً ، ورَجُلٌ مِثْلُهُ جديرٌ بالاحتِرامِ والإجْلالِ . اهـ

- ويقولُ الفيلسوف والكاتبُ الإنجليزي المعروفُ برْناندشو : إنَّ أوروبا الآنَ ابتدأتْ تُحِسُّ بحكمةِ مُحمَّدٍ ، وبدأتْ تعيشُ دينَه ، كما أنَّها ستُبَرِّئُ العقيدةَ الإسلاميَّة ممَّا اتَّهَمَتْها بها من أراجيفِ رجالِ أوروبا في العصور الوُسْطى .
ويُضيفُ قائلاً : ولذلك يُمكنني أنْ أؤكِّدَ نبوءَتي فأقول : إنَّ بوادرَ العصرِ الإسْلامي الأوروبي قريبةٌ لا محالة ، وإنِّي أعتقد أنَّ رجُلاً كمحمَّد لو تَسلَّمَ زمامَ الحُكْمِ المُطلَق في العالم بأجمعِهِ اليومَ = لتَمَّ له النَّجاحُ في حُكْمِهِ ، ولقادَ العالَمَ إلى الخير ، وحلِّ مَشَاكلِهِ على وجهٍ يُحَقِّقُ للعالم كُلِّهِ السَّلامَ والسَّعادةَ المنشودة .
ويقولُ أيضاً : إنَّ أتباعَ مُحمَّدٍ أوفرُ أدباً في كلامهم عن المسيح . اهـ

وهذا بعضُ ما قيلَ فيه – صلى الله عليه وسلَّم - على ألسنةِ غيرِ المسلمين ، وهذا من إنصافِهم وإنْ لم يكونوا مسلمين ، والحقُّ ما شهدَتْ به الأعادى .

(١) يامَــنْ لـه الأخـــــلاقُ مـا تَـهْـــوَى *** الـعُـلا مـنـهـا ومـا يـتـعـشَّـقُ الـكُـبَـراءُ
(٢) زانَـتْـك فـى الـخُـلُـق الـعـظـيـم شـمـائـلُ *** يُـغْـرَى بـهـنَّ ويُـولَـعُ الـكُـرَمـــاءُ
(٣) فـإذا سـخـوتَ بـلَـغـتَ بـالـجـودِ الـمَـدَى *** وفـعَـلْـتَ مـا لا تَـفْـعَـلُ الأنـــــواءُ
(٤) وإذا عـفـوْتَ فـقـــادِراً ومُـقَــــدَّراً *** لا يَـسْـتَـهـيـنُ بـعـفـوِكَ الـجُـهَـــلاءُ
(٥) وإذا رَحِـمْـتَ فـأنْـــــتَ أمٌّ أو أبٌ *** هـذانِ فـى الـدُّنـيـا هـمـا الـرُّحَـمـــاءُ
(٦) وإذا غَـضِـبْـتَ فـإنَّـمـا هـى غـضـبـةٌ *** فـى الـحـقِّ لا ضِـغْـنٌ ولا بـغـضـــاءُ
(٧) وإذا رَضِـيـتَ فـذاكَ فـى مـرضـاتِـهِ *** ورضـا الـكـثـيـر تَـحَـلُّـمٌ وريـــــاءُ
(٨) وإذا خـطَـبْـتَ فـلـلـمَـنـابـر هِــــزَّةٌ *** تَـعْـرُو الـنَّـدَى ولـلـقـلـوبِ بـكـــاءُ

أرشيف ملتقى أهل التفسير (ص: ٠)

ثالثا: مناصحة أصحاب المواقع الشخصية ..

يمكنك أن تناصح أخوة لك في الدين والعقيدة عن طريق المراسلة فقط مراسلة أصحاب المواقع التي تجد فيها كثيراً من الخير وشيئاً من المنكرات وكما هو ملاحظ نجد أن غالبية المواقع الشخصية وللأسف تبث الأغاني والمنكرات وتضع روابط لبعض القنوات الفضائية
حيث يمكنك توجيه رسالة مختصرة جداً لأصحاب هذه المواقع تذكرهم فيها بالله عز وجل وتحذرهم مما هم واقعين فيه ومثال لهذه الرسالة:

(بسم الله الرحمن الرحيم

الأخ الفاضل: مسؤول موقع (..............) السلام عليكم ورحمة الله وبركاته

لقد قمت بزيارة موقعكم فأعجبني التصميم ومدى الاهتمام به فأحببت أن أبعث لكم هذه الرسالة وبها خاطرة ونصيحة: كما لا يخفى عليكم أن الإنسان في هذه الحياة يسعى جاهداً لتقديم الأفضل ... والأهم من ذلك تقديم ما يرضى الله سبحانه وتعالى فالإنسان مرتهن يوم القيامة بعمله إن خيراً فخير وإن شراً فشر. والعياذ بالله وإن الإنسان لتكفيه ذنوبه ويرجو من الله أن يغفر له ... فما بالكم بأناس نذروا أنفسهم لجمع سيئات غيرهم وكأن سيئاتهم لا تكفيهم؟!

وعندما زرت موقعكم وتجولت فيه تذكرت حديث المصطفى صلى الله عليه وسلم: (من سن سنة حسنة فله أجرها وأجر من عمل بها إلى يوم القيامة لا ينقص ذلك من أجورهم شيئا ومن سن سنة سيئة فعليه وزرها ووزر من عمل بها إلى يوم القيامة لا ينقص من أوزارهم شيئا) فهل أنت ممن سن سنة حسنة في موقعك؟ أو ممن سن سنة سيئة؟

فوالله إن ذنوب المرء تكفيه ولا حاجة لاكتساب سيئات الآخرين

فلو عملت في هذا الموقع لنشر الخير والفضيلة ونشر القرآن والسنة فإنك تكسب أجر كل مستمع، وكم سيكون لك من أجور لا يعلمها إلا الله فاليوم عمل ولا حساب وغداً حساب ولا عمل ..

هذه ... وغيرها من وسائل تسخير التقنية في الدعوة الى الله ...

http://almajd.islamacademy.net/magazin/qutoof5/001.gif

وهذا هو طرفنا الأول .. أجور وحسنات ورضوان من الله ..

http://almajd.islamacademy.net/magazin/qutoof5/001.gif

ـــوعلى الطرف الآخرالنقيضـــ

(http://www.knoon.com/rwasn/)http://farm4.static.flickr.com/3242/2458332465_26fea82eb0_o.gif
((http://farm4.static.flickr.com/3242/2458332465_26fea82eb0_o.gif

* التقنية و الأوزار *: (
(http://farm4.static.flickr.com/3242/2458332465_26fea82eb0_o.gif

فبالمقابل نرى من المسلمين من انبرى لخدمة الشيطان ايما خدمة ..
فكان ..
الضرر المتعدي .. والإنغماس في أوحال من المعاصي والذنوب .. والأوزار والأثقال .. تحمل إلى يوم يبعثون ..
ولا عجب ..

أرشيف ملتقى أهل التفسير (ص: ٠)
فـ ((من دعا إلى ضلاله كان عليه من الأثم مثل آثام من تبعه لاينقص ذلك من آثامهم شيئا) ..
لان (الله لا يحب الفساد) و (كل نفس بما كسبت رهينة)

http://farm4.static.flickr.com/3242/2458332465_26fea82eb0_o.gif

فالظالم لنفسه من سخر ما وهبه الله من تلك النعم والتقنيات والمواهب والطاقات في نشر الشر والفساد ... وخدمة أعداء الدين الذين أعلنوها حربا ضروسا ..
ثم لا يكتفي .. بل ينقب عن دواعي الفساد و لا يألو جهدا في ذلك
وهذا هو والله من أعظم الجور على النفس والخلق ..
تزني جوارحه وهو غافل غارق في نومه ... عياذا بالله .. وان العجب اشد العجب من أولئك الذين لا يكتفون بأوزار أنفسهم .. بل يسعون لأوزار غيرهم ...
والانترنت هو خادمهم بأيسر وأسرع الطرق فكما أنه من أيسر طرق كسب الاجور فهو من أيسر سبل الشيطان وصنع الأوزار، سواء بالشبهات أو الشهوات ..

http://farm4.static.flickr.com/3242/2458332465_26fea82eb0_o.gif
وفي ذلك يقول د. باسم عامر:
الناس بعد الممات ينقسمون لقسمين، باعتبار جريان الحسنات والسيِّئات عليهم:
القسم الأول: من يَموت وتنقطع حسناته وسيئاته على السَّواء، فليس له إلا ما قدَّم في حياته الدُّنيا.
القسم الثاني: من يَموت وتبقى آثارُ أعماله من حسناتٍ وسيئاتٍ تجري عليه، وهذا القسم على ثلاثة أصناف:
الأول: من يَموت وتجري عليه حسناتُه وسيئاته، فمثل هذا يتوقَّف مصيره على رجحان أيٍّ من كِفَّتَي الحسنات أو السيئات.

الثاني: من يَموت وتنقطع سيئاته، وتبقى حسناته تَجري عليه وهو في قبره، فينال منها بقدر إخلاصه لله - تعالى - واجتهاده في الأعمال الصَّالحة في حياته الدُّنيا، فيا طيب عيشه، ويا سعادته.
الثالث: من يموت وتنقطع حسناته، وتبقى سيئاته تجري عليه دهرًا من الزَّمان إن لم يكن الدَّهر كله، فهو نائم في قبره ورصيده من السيئات يزدادُ يومًا بعد يوم، حتَّى يأتي يوم القيامة بجبال من السيئات لم تكن في حُسبانه، فيا ندامته ويا خسارته.
إنَّ الحديث عن الحسنات والسيئات أمرٌ لا مفرَّ منه؛ لأنَّ الحساب يوم القيامة يكون بالموازين؛ يقول الله - تعالى-: {وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَإِنْ كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَى بِنَا حَاسِبِينَ} [الأنبياء: ٤٧].
وكثيرٌ من النَّاس يغفلون عن مسألة السيِّئات الجارية وخطورة شأنِها؛ لأنَّ من السيئات ما إذا مات صاحبها، فإنَّها تنتهي بموته، ولا يَمتد أثر تلك السيئات إلى غير صاحبها، ولكنْ من السيئات ما تستمر ولا تتوقف بموت صاحبها، بل تبقى وتجري عليه،
وفي ذلك يقول أبو حامد الغزالي: "طوبى لمن إذا مات ماتت معه ذنوبه، والويل الطويل لمن يَموت وتبقى ذنوبه مائة سنة ومائتي سنة أو أكثر يُعذَّب بها في قبره، ويُسْأل عنها إلى آخر انقراضها"؛
وقد جاءت النصوصُ الشرعيةُ محذِّرة من هذا النوع من السيئات؛ منها قوله - تعالى -: {لِيَحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ أَلا سَاءَ مَا يَزِرُونَ} [النحل: ٢٥]، وقوله - صلَّى الله عليه وسلَّم -: «مَن دعا إلى ضلالة، كان عليه من الإثم مثل آثام مَن تَبِعَه لا ينقص ذلك من آثامهم شيئًا»؛ وفي رواية: «ومن سن في الإسلام سنة سيئة، كان عليه وزرها ووزر من عَمِلَ بها من بعده من غير أنْ ينقص من أوزارهم شيء»
وبما أنَّنا نعيش في عصرٍ تيسَّرتْ فيه وسائلُ الاتِّصالات، ونقل المعلومات، أصبح من الأهمية بمكان التَّذكير بشناعة السيِّئات الجارية، ومدى خطورتِها على صاحبها، فكم من إنسان أهلك نفسه، وحمَّل كاهله سيئاتٍ لم تكن محسوبة عندما نصَّب نفسه داعيًا إلى الضَّلال وناشرًا إلى المنكر من حيث يشعر أو لا يشعر!
ومِنْ ثَمَّ؛ فإنَّه بسبب ما نشهده من تقدم وتطوُّر في سائر نواحي الحياة - لا سيما في مجال نقل المعلومات - كانت صور السيئات الجارية متعددة ومن أهمها الانترنت إذا استخدم في الشرِّ، وخاصة أنَّه يُعدُّ مكتبة متنقلة يُمكن الاستفادة منها في أي وقت، فكل ما يُنشر في هذه الشبكة يُمكن استعادته والرجوع إليه، فضلاً عن سرعة انتشار المعلومة فيها

أرشيف ملتقى أهل التفسير (ص: ٠)
فلا أظن عاقلاً إلا ويبادر إلى غلق باب الشرِّ هذا عليه قبل فوات الأوان، ويستبدله بفتح الجانب الآخر المعاكس له

http://farm4.static.flickr.com/3242/2458332465_26fea82eb0_o.gif
(http://farm4.static.flickr.com/3242/2458332465_26fea82eb0_o.gif)... التقنية وتحصيل الأوزار ...
(.. كيف ذلك؟ ..):
عرفت الشر لا للشر ولكن لتوقيه .. ومن لا يعرف الشر من الناس يقع فيه ..
يقول د. باسم:
ولعلَّ من أبرز الاستخدامات التي تندرج في باب السيئات الجارية ما يلي
- إنشاء المواقع والمنتديات الفاسدة والضَّارة، كالمواقع الإباحية ومواقع أهل الفسق والضلال، وهذه المواقع ثَبَتت أضرارها وآثارها الخطيرة على المجتمعات الغربية قبل المسلمة.
- الدلالة على تلك المواقع السيئة، ورفعها على بقيَّة المواقع عن طريق التصويت لها.

- نشر مقاطع الفيديو المخلة والمحرمة في المواقع المشهورة كاليوتيوب وغيره.
- تعليم الآخرين طريقة فتح المواقع المحجوبة السيئة واختراق البروكسي.
- وضع صور سيِّئة كخلفية لمنتدى، أو موقع معين، أو على هيئة توقيع عضو.
- إنشاء المجموعات البريدية من أجل نشر المواد والمقاطع السيئة.
- الإسهام في نشر الشبه والأفكار المنحرفة عن طريق المشاركة في المنتديات
فهذه بعض صور السيئات الجارية في عصرنا الحاضر، والمتأمِّل في آثارها يعرف مدى خطورتها في إضلالِ الناس وإفسادهم، نسأل الله السلامة والعافية.
للمزيد: http://www.islamway.com/?iw_s=Article&iw_a=view&article_id=5894 ((http://www.islamway.com/?iw_s=Article&iw_a=view&article_id=5894))

http://farm4.static.flickr.com/3242/2458332465_26fea82eb0_o.gif

http://sub3.rofof.com/img3/03yqzkj8.gif ((http://sub3.rofof.com/img3/03yqzkj8.gif))

وهذا هو الطرف الآخر .. ذنوب وآثام وغضب من الله ..

http://farm4.static.flickr.com/3242/2458332465_26fea82eb0_o.gif

....(فأي الفريقين خير)؟؟؟؟ ....

منقول للفائدة: موقع الراسخون في العلم،

أرشيف ملتقى أهل الحديث - ١ (١٢٩/ ١٤٩)
الحسنات والسيئات الجارية

-[حاتم الحاجري]ــــــ[١١ - ٠٧ - ١٠، ١١:٠٤ م]-
يقول الله -سبحانه وتعالى-: {إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي الْمَوْتَى وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَآثَارَهُمْ} [يس: ١٢].

الناس بعد الممات ينقسمون قسمين باعتبار جريان الحسنات والسيِّئات عليهم:

القسم الأول: من يَموت وتنقطع حسناته وسيئاته على السَّواء، فليس له إلا ما قدَّم في حياته الدُّنيا.
القسم الثاني: من يَموت وتبقى آثارُ أعماله من حسناتٍ وسيئاتٍ تجري عليه، وهذا القسم على ثلاثة أصناف:

الأول: من يَموت وتجري عليه حسناتُه وسيئاته، فمثل هذا يتوقَّف مصيره على رجحان أيٍّ من كفَّتَي الحسنات أو السيئات.

الثاني: من يَموت وتنقطع سيئاته، وتبقى حسناته تَجري عليه وهو في قبره، فينال منها بقدر إخلاصه لله -تعالى- واجتهاده في الأعمال الصَّالحة في حياته الدُّنيا، فيا طيب عيشه، ويا سعادته.

الثالث: من يموت وتنقطع حسناته، وتبقى سيئاته تجري عليه دهرًا من الزَّمان إن لم يكن الدَّهر كله، فهو نائم في قبره ورصيده من السيئات يزدادُ يومًا بعد يوم، حتَّى يأتي يوم القيامة بجبال من السيئات لم تكن في حُسبانه، فيا ندامته ويا خسارته.

موقع طريق الإسلام (http://www.islamway.com/)

-[المسيطير]ـــــ[١٢ - ٠٧ - ١٠، ٠٢:٣٠ م]-
بارك الله فيك أخي الكريم وزادكم من واسع فضله.

مقالة مهمة ومؤثرة (http://www.almeshkat.net/index.php?pg=art&cat=10&ref=385) للدكتور / باسم عامر .. فأستأذنك* بإكمالها لأهمية الأمثلة التي أشار إليها الكاتب وفقه الله .. حيث قال:

إنَّ الحديث عن الحسنات والسيئات أمرٌ لا مفرَّ منه، لأنَّ الحساب يوم القيامة يكون بالموازين، يقول الله تعالى: (وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَإِنْ كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَى بِنَا حَاسِبِينَ) [الأنبياء: ٤٧] ...
كثيرٌ من الناس يغفلون عن مسألة السيئات الجارية وخطورة شأنها، لأنَّ من السيئات ما إذا مات صاحبها فإنها تنتهي بموته، ولا يمتد أثر تلك السيئات إلى غير صاحبها، ولكنْ من السيئات ما تستمر ولا تتوقف بموت صاحبها، بل تبقى وتجري عليه، وفي ذلك يقول أبو حامد الغزالي: " طوبى لمن إذا مات ماتت معه ذنوبه، والويل الطويل لمن يموت وتبقى ذنوبه مائة سنة ومائتي سنة أو أكثر يعذب بها في قبره ويسئل عنها إلى آخر انقراضها " (إحياء علوم الدين ٢/ ٧٤) ...
وقد جاءت النصوصُ الشرعيةُ محذِّرة من هذا النوع من السيئات، منها قوله تعالى: (لِيَحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ أَلا سَاءَ مَا يَزِرُونَ) [النحل: ٢٥]، وقوله r : (مَنْ دَعَا إِلَى ضَلاَلَةٍ كَانَ عَلَيْهِ مِنَ الإِثْمِ مِثْلُ آثَامِ مَنْ تَبِعَهُ لاَ يَنْقُصُ ذَلِكَ مِنْ آثَامِهِمْ شَيْئًا) صحيح مسلم برقم (٦٩٨٠)، وفي رواية: (وَمَنْ سَنَّ فِى الإِسْلاَمِ سُنَّةً سَيِّئَةً كَانَ عَلَيْهِ وِزْرُهَا وَوِزْرُ مَنْ عَمِلَ بِهَا مِنْ بَعْدِهِ مِنْ غَيْرِ أَنْ يَنْقُصَ مِنْ أَوْزَارِهِمْ شَىْءٌ) صحيح مسلم برقم (٢٣٩٨)، وقد رُوي: (الدال على الشر كفاعله) أخرجه أبو منصور الديلمي في مسند الفردوس من حديث أنس بإسناد ضعيف جداً ...
وبما أننا نعيش في عصرٍ تيسَّرتْ فيه وسائل الاتصالات ونقل المعلومات أصبح من الأهمية بمكان التذكير بشناعة السيئات الجارية ومدى خطورتها على صاحبها، فكم من إنسان أهلك نفسه وحمَّل كاهله سيئاتٍ لم تكن محسوبة عندما نصَّب نفسه داعياً إلى الضلال وناشراً إلى المنكر من حيث يشعر أو لا يشعر ...
وبالتالي فإنه بسبب ما نشهده من تقدم وتطور في سائر نواحي الحياة لا سيما في مجال نقل المعلومات كانت صور السيئات الجارية متعددة، لعل من أبرزها ما يلي:

- القنوات الفضائية:
حيث يشاهدها الملايين في سائر أنحاء العالم، والأثر المتعدي لهذه القنوات فوق مستوى الخيال، ويمكن إجمال صور السيئات الجارية في هذه الوسيلة فيما يلي:

- إنشاء القنوات الفاسدة التي تبث الأفكار المخالفة للإسلام وتروج للأخلاق المنحرفة كقنوات أهل البدع وقنوات الأفلام الهابطة والأغاني الماجنة، فأصحاب تلك القنوات والمساهمين فيها مادياً ومعنوياً يتحملون آثام هذه القنوات وآثارها السيئة، وهم فتحوا على أنفسهم باباً لا يكاد يُغلق من السيئات الجارية إلا أن يتويوا.
- إرسال الرسائل النصية (SMS) لكي تظهر على الشاشة، فإذا كانت الرسائل تحتوي على كلامٍ بذيء أو دعوةٍ إلى الشر فإنَّ ذلك يدخل في باب السيئات الجارية، لأنَّ مُرسِل تلك الرسائل قد يسهم في نشر شرٍ يجهله الناس، فيكون بذلك معلماً للشر ناشراً له.
- الإسهام في القنوات الفضائية الفاسدة ودعمها بأي صورة من الصور ودلالة الناس عليها يندرج في باب السيئات الجارية.

- الانترنت (الشبكة العنكبوتية):
وهي لا تقل خطورة عن القنوات الفضائية إذا استخدمت في الشر، وخاصة أنَّ الانترنت يُعد مكتبة متنقلة يمكن الاستفادة منها في أي وقت، فكل ما يُنشر في هذه الشبكة يمكن استعادته والرجوع إليه فضلاً عن سرعة انتشار المعلومة فيها، ولعل من أبرز الاستخدامات التي تندرج في باب السيئات الجارية ما يلي:
- إنشاء المواقع والمنتديات الفاسدة والضارة كالمواقع الإباحية ومواقع أهل الفسق والضلال، وهذه المواقع ثبتت أضرارها وآثارها الخطيرة على المجتمعات الغربية قبل المسلمة.
- الدلالة على تلك المواقع السيئة ورفعها على بقية المواقع عن طريق التصويت لها.
- نشر مقاطع الفيديو المخلة والمحرمة في المواقع المشهورة كاليوتيوب وغيره.
- تعليم الآخرين طريقة فتح المواقع المحجوبة السيئة واختراق البروكسي.
- وضع صور سيئة كخلفية لمنتدى أو موقع معين أو على هيئة توقيع عضو.
- إنشاء المجموعات البريدية من أجل نشر المواد والمقاطع السيئة.
- الإسهام في نشر الشبه والأفكار المنحرفة عن طريق المشاركة في المنتديات.

- هواتف الجوال:
وهي كذلك وسيلة تتطور يوماً بعد يوم بتطور تقنيات الهواتف، وأصبح من السهل عن طريق هذا الجوال أن ترسل ما تشاء إلى من تشاء، وذلك عن طريق الرسائل النصية (SMS) والرسائل المتعددة الوسائط (MMS) والبلوتوث وغيرها من التقنيات المتقدمة، فكل إسهام عن طريق الجوال في نشر الشر والفساد يندرج في باب السيئات الجارية.

- الكتابة والتأليف:
وهي وسيلة ليست جديدة بالمقارنة مع ما سبق، إلا أن المؤلفات والكتب أصبحت تُطبع بأعداد كبيرة في وقت وجيز، وأصبح كل من هب ودب كاتباً ومؤلفاً، بالإضافة إلى سهولة انتشار الكتب عن طريق دور النشر والمعارض الدولية، فضلاً عن تنزيل الكتب في شبكة الانترنت. فالكتابة والتأليف أصبحت أداةً خطيرةً إذا سُخِّرت في ترويج الأفكار المنحرفة عن الإسلام، فكل كلمة يكتبها المؤلف فهو مرهون بها ويتحمل تبعاتها يوم الحساب.
هذه بعض صور السيئات الجارية في عصرنا الحاضر، والمتأمل في آثارها يعرف مدى خطورتها في إضلال الناس وإفسادهم نسأل الله السلامة والعافية.

فلا أظن عاقلاً إلا ويبادر إلى غلق باب الشر هذا عليه قبل فوات الأوان، ويستبدله بفتح الجانب الآخر المعاكس له وهو الحسنات الجارية، وذلك عن طريق تسخير تلك الوسائل في الخير

وفيما ينفع الناس، وفي ذلك فليتنافس المتنافسون، قال تعالى (وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ) [سورة التوبة: ١٠٥].

--

(*) لم أجد إشارة من أخي الكريم / حاتم الحاجري وفقه الله لإكمال المقالة .. فأكملتها - معتذرا -.

أيُّـها الإخـوةُ : هل سمـعتـم عن السيئـاتِ الجـاريـةِ !
إنَّـنـا كـثـيـراً مـا نسمـعُ فى الخُـطَـبِ والـدُّروسِ والـمـواعـظِ عـن الحـسـنـاتِ الجـاريـةِ ،
وأعـمـال الخيـرِ الـتى يجـرى ثـوابُـهـا عـلى أصحـابـهـا بـعـد مـوتِـهـم ، ومِـن ذلك :
مـا رواه مسلمٌ فى " صحيحه " (٢٦٨٢) وأبوداودَ (٢٨٨٠) والترمذىُّ (١٣٧٦) وغيـرُهـم :
عـن أبى هـريـرةَ – رضى اللـهُ عنـه – أنَّ رسُولَ اللـهِ صـلى اللـهُ عليه وسـلَّـم – قـال : " إذا مـاتَ ابـنُ آدمَ انـقـطـعَ عـمـلُـه إلا مِـن ثـلاثٍ : صـدقـةٍ جـاريـةٍ ، أو عـلـمٍ يُـنـتـفـعُ بـه ، أو ولـدٍ صـالـحٍ يـدعـو لـه "
فـهـذه ثـلاثـةُ أبـوابٍ مِـن الخيـرِ لا يـنـقـطـعُ ثـوابُـهـا بـمـوتِ الإنـسـان ، بـل يـسـتـمـرُّ أجـرُه ويـدُومُ ثـوابُـه وهـو فى قـبـره مـيِّـتٌ ، لأنَّـهـا مِـن كـسـبـه وسـبـبـه .
وروى ابـن مـاجـه فى " سننه " (٢٤٢) وابـنُ خُـزيْـمة فى " صحيحه " (٢٤٩٠) ومـن طريـقه البيهـقي في " الشُّـعَب " (٣٤٤٨) وغيـرُهـم بإسنـادٍ فيه لِـينٌ وضعفٌ* :
عـن أبي هـريـرةَ - رضى اللـهُ عنـه – أنَّ رسُولَ اللـهِ صـلى اللـهُ عليه وسـلَّـم – قـال : " إنَّ مِـمَّـا يَـلْـحَـقُ المؤمـنَ مـن عَـمَـلِهِ وحسناتِهِ بعد مـوتِـهِ : عـلـمـاً عـلَّـمه ونَشَـرَهُ ، وولـداً صـالحـاً تـركـه ، ومصحفـاً ورَّثَـه ، أو مسجداً بـنـاه ، أو بـيـتـاً لابـن السـبـيـلِ بـنـاه ، أو نَـهـراً أجـراه ، أو صدقـةً أخـرجـهـا مـن مالـهِ في صحَّته وحياتِهِ = يَـلحَـقُـهُ مـن بعد مـوتِـهِ " .
ووردتْ خـصالٌ أخـرى تـبـلُـغُ الـعـشَـرةَ جـمـعـهـا جـلالُ الـدِّيـن السيوطى – رحـمه اللـه – بـقـولِه :

(١)إذا مَـاتَ ابْـنُ آدَمَ لَـيْـسَ يَجْـري *** عَـلَـيْهِ مِـنْ فِـعَـالٍ غَـيْـرُ عَـشْـــــرِ
(٢)عُـلُـومٌ بَـثَّـهَـا ، وَدُعَـاءُ نَجْـــلٍ *** وَغَـرْسُ الـنَّـخْـلِ والصَّـدَقَـاتُ تَجْـري
(٣)وِرَاثَـةُ مُـصْـحَـفٍ وَرِبَـاطُ ثَـغْـرٍ *** وَحَـفْـرُ الـبِـئْـرِ أَوْ إِجْـرَاءُ نَـهْـــــرِ
(٤)وَبَـيْـتٌ لِـلْـغَـرِيـبِ بَـنَـاه يَـــأْوي *** إِلَـيْـهِ أَوْ بِـنَـاءُ مَـحَـلِّ ذِكْــــــــرِ

وزادَ عـلـيـهـا الـسَّـفَّـاريـنى – رحـمه اللـه – فى " غـذاءِ الألـبـابِ " (٤٠/١) خـصـلـةً أخـرى فـقـال:

(٥)وَتَـعْـلِـيـمٌ لِـقُـرآنٍ كَـرِيـــــــمٍ *** فَـخُـذْهَـا مِـنْ أَحَـادِيـثَ بِـحَـصْــــــرِ

هذا كُـلُّـه فى أعـمـالِ الخيـرِ والحسنـاتِ الجـاريـةِ .
من سن سنة حسنة فله أجرها وأجر من عمل بها إلي يوم القيامة لا ينقص ذلك من أجورهم شيئا
وفـى الـمـقـابـلِ فـإنَّ السيِّـئـاتِ الجـاريـة أضعـافُ أضعـافُ هـذا الـعـددِ

• وحسَّـنه الألـبـانى فى " صحيح ابن ماجه " (١٩٨) و" الإرواءِ " (٢٩/٦)
** ذكر أبو نُعيم فى " حلية الأولياء " (١٥٣/٦) عن أبى محمد حبيبٍ الفارسى قال : إنَّ مِن سعادة المرءِ إذا ماتَ ماتت معه ذنوبُه .

أرشيف منتدى الألوكة - ١ (ص: ٠)
سبع يجري للعبد أجرهن وهو في قبره بعد موته

-[المغربي أبو عمر]ــــــ[١٩ - Feb-2009، مساء ٠٤:٥٤]-
عبدالرزاق بن عبد المحسن البدر (٢٠٠٨ - ٠٨ - ٠٢)

سبع يجري للعبد أجرهن وهو في قبره بعد موته ...

الحمد لله المحمود على كل حال، الموصوف بصفات الكمال والجلال، له الحمد في الأولى والآخرة، وإليه الرجعى والمآل.

أما بعد: فإن من عظيم نعمة الله على عباده المؤمنين أن هيّأ لهم أبواباً من البر والخير والإحسان عديدة، يقوم بها العبد

الموفق في هذه الحياة، ويجري ثوابها عليه بعد الممات، فأهل القبور في قبورهم مرتهنون، وعن الأعمال منقطعون،

وعلى ما قدّموا في حياتهم محاسبون ومجزيون، وبينما هذا الموفق في قبره الحسنات عليه متوالية، والأجور والأفضال

عليه متتالية، ينتقل من دار العمل، ولا ينقطع عنه الثواب، تزداد درجاته، وتتنامى حسناته وتتضاعف أجوره وهو في قبره، فما أكرمها من حال، وما أجمله وأطيبه من مآلٍ.

وقد ذكر الرسول أموراً سبعةً يجري ثوابها على الإنسان في قبره بعد ما يموت، وذلك فيما رواه البزار في مسنده من حديث أنس بن مالك أن النبي قال:

{سبع يجري للعبد أجرهن وهو في قبره بعد موته: من عَلّم علماً، أو أجرى نهراً، أو حفر بئراً، أو غرس نخلاً، أو بنى مسجداً، أو ورّث مصحفاً، أو ترك ولداً يستغفر له بعد موته} [حسّنه الألباني في صحيح الجامع:٣٥٩٦]

وتأمل أخي المسلم ملياً هذه الأعمال، واحرص على أن يكون لك منها حظ ونصيب مادمت في دار الإمهال، وبادر إليها أشد المبادرة قبل أن تنقضي الأعمار وتتصرم الآجال.

وإليك بعض البيان والإيضاح لهذه الأعمال:

أولاً: تعليم العلم،
والمراد بالعلم هنا العلم النافع الذي يبصر الناس بدينهم، ويعرفهم بربهم ومعبودهم، ويهديهم إلى

صراطه المستقيم، العلم الذي به يعرف الهدى من الضلال، والحق من الباطل والحلال من الحرام، وهنا يتبينُ عظمُ فضلِ

العلماء الناصحين والدعاة المخلصين، الذين هم في الحقيقة سراج العباد، ومنار البلاد، وقوام الأمة، وينابيع الحكمة،

حياتهم غنيمة، وموتهم مصيبة، فهم يعلمون الجاهل، ويذكرون الغافل، ويرشدون الضال، لا يتوقع لهم بائقة، ولا يخاف

منهم غائلة، وعندما يموت الواحد منهم تبقى علومه بين الناس موروثة، ومؤلفاته وأقواله بينهم متداولة، منها يفيدون،

وعنها يأخذون، وهو في قبره تتوالى عليه الأجور، ويتتابع عليه الثواب، وقديماً كانوا يقولون يموت العالم ويبقى

كتابه، بينما الآن حتى صوت العالم يبقى مسجلاً في الأشرطة المشتملة على دروسه العلمية، ومحاضراته النافعة، وخطبه القيمة فينتفع به أجيال لم يعاصروه ولم يكتب لهم لُقِيُّه.

ومن يساهم في طباعة الكتب النافعة، ونشر المؤلفات المفيدة، وتوزيع الأشرطة العلمية والدعوية فله حظ وافر من ذلك الأجر إن شاء الله.

ثانياً: إجراءُ النهر،

والمراد شق جداول الماء من العيون والأنهار لكي تصل المياه إلى أماكن الناس ومزارعهم، فيرتوي

الناس، وتسقى الزروع، وتشرب الماشية، وكم في مثل هذا العمل الجليل والتصرف النبيل من الإحسان إلى الناس،

والتنفيس عنهم بتيسير حصول الماء الذي به تكون الحياة، بل هو أهم مقوماتها، ويلتحق بهذا مد الماء عبر الأنابيب إلى أماكن الناس، وكذلك وضع برادات الماء في طرقهم ومواطن حاجاتهم.

ثالثاً: حفر الآبار،
وهو نظير ما سبق وقد جاء في السنة أن النبي قال: {بينما رجل في طريق فاشتد عليه العطش، فوجد

بئراً فنزل فيها فشرب، ثم خرج، فإذا كلب يلهث يأكل الثرى من العطش، فقال الرجل: لقد بلغ هذا الكلب من العطش مثل

الذي كان بلغ مني، فنزل البئر فملأ خفه ماء فسقى الكلب، فشكر الله له فغفر له}، قالوا: يا رسول الله وإن لنا في البهائم أجراً؟ فقال: {في كل ذات كبدٍ رطبةٍ أجرٌ} [متفق عليه].

فكيف إذاً بمن حفر البئر وتسبب في وجودها حتى ارتوا منها خلقٌ، وانتفع بها كثيرون.

رابعاً: غرس النخل،
ومن المعلوم أن النخل سيد الأشجار وأفضلها وأنفعها وأكثرها عائدة على الناس، فمن غرس نخلاً وسبل ثمره للمسلمين فإن أجره يستمر كلما طعم من ثمره طاعم، وكلما انتفع بنخله منتفع من

إنسانٍ أو حيوانٍ، وهكذا الشأن في غرس كلما ينفع الناس من الأشجار، وإنما خص النخل هنا بالذكر لفضله وتميزه.

خامساً: بناء المساجد
التي هي أحب البقاع إلى الله، والتي أذن الله جلا وعلا أن ترفع ويذكر فيها اسمه، وإذا بُني المسجد أقيمت فيه الصلاة، وتُلي فيه القرآن، وذكر فيه الله، ونشر فيه العلم، واجتمع فيه المسلمون، إلى غير ذلك من المصالح العظيمة، ولبانيه أجرٌ في ذلك كلّه، وقد ثبت في الحديث عن النبي أنه قال: {من بنى مسجداً يبتغي به وجه الله بنى الله له بيتاً في الجنة} [متفق عليه].

سادساً: توريث المصحف،
وذلك يكون بطباعة المصاحف أو شرائها ووقفها في المساجد، ودور العلم حتى يستفيد منها المسلمون، ولواقفها أجرٌ عظيمٌ كلما تلا في ذلك المصحف تالٍ، وكلما تدبر فيه متدبر، وكلما عمل بما فيه عامل.

سابعاً: تربية الأبناء،
وحسن تأديبهم، والحرص على تنشأتهم على التقوى والصلاح، حتى يكونوا أبناء بررةً وأولاد صالحين، فيدعون لأبويهم بالخير، ويسألون الله لهما الرحمة والمغفرة، فإن هذا مما ينتفع به الميت في قبره.

وقد ورد في الباب في معنى الحديث المتقدم مارواه ابن ماجه من حديث أبي هريرة قال: قال رسول الله: {إن مما يلحق

المؤمن من عمله وحسناته بعد موته علماً علمه ونشره، وولداً صالحاً تركه، ومصحفاً ورثه أو مسجداً بناه، أو بيتاً لابن

السبيل بناه، أو نهراً أجراه، أو صدقة أخرجها من ماله في صحته وحياته تلحقه من بعد موته} [حسنه الألباني في

صحيح ابن ماجه: ١٩٨].

وروى أحمد والطبراني عن أبي أمامة قال: قال رسول: {أربعة تجري عليهم أجورهم بعد الموت: من مات مرابطاً في سبيل الله، ومن علّم علماً أجرى له عمله ما عمل به، ومن تصدق بصدقة فأجرها يجري له ما وجدت، ورجل ترك ولداً صالحاً فهو يدعو له} [صحيح الجامع: ٨٩٠].

وفي صحيح مسلم من حديث أبي هريرة أن رسول الله قال: {إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاث: صدقةٍ جاريةٍ، أو علم ينتفع به أو ولدٍ صالح يدعو له}.

وقد فسر جماعةٌ من أهل العلم الصدقة الجارية بأنها الأوقاف، وهي أن يحبس الأصل وتسبل منفعته، وجل الخصال المتقدمة داخلة في الصدقة الجارية.

وقوله: {أو بيتاً لابن السبيل بناه} فيه فضل بناء الدور ووقفها لينتفع بها المسلمون سواءً ابن السبيل أو طلاب العلم، أو الأيتام، أو الأرامل، أو الفقراء والمساكين. وكم في هذا من الخير والإحسان.

وقد تحصل بما تقدم جملةٌ من الأعمال المباركة إذا قام بها العبد في حياته جرى له ثوابها بعد الممات، وقد نظمها السيوطي في أبيات فقال:

إذا مات ابن آدم ليس يجري ... عليه من فعال غير عشرِ

علومٌ بثها، ودعاء نَجْلِ ... وغرس النخل، والصدقات تجري

وراثة مصحفٍ، ورباط ثغر ... وحفر البئر، أو إجراءُ نهرِ

وبيتٌ للغريب بناه يأوي ... إليه، أو بناءُ محلِ ذكرِ

وقوله: (ورباط ثغر) شاهده حديث أبي أمامة المتقدم، وما رواه مسلم في صحيحه من حديث سلمان الفارسي رضي الله

عنه: قال سمعت رسول الله يقول: {رباط يوم وليلة خير من صيام شهر وقيامه وإن مات جرى عليه عمله الذي كان يعمله

وأجري عليه رزقه، وأمن الفتَّان} أي ينمو له عمله إلى يوم القيامة، ويأمن من فتنة القبر.

ونسأل الله جل وعلا أن يوفقنا لكل خير، وأن يعيننا على القيام بأبواب الإحسان، وأن يهدينا سواء السبيل، وصلى الله على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين

أرشيف ملتقى أهل التفسير (ص: ٠)
~**~ التقنية ... مابين طرفي نقيض ..... ~**~ أوزار وأجور ~**~

-[فجر الأمة]ـــــــ[٠٦ May 2010, 01:23 ص]-
http://aaaaaaaaaaccccc.googlepages.com/r3c3p9v6e3mclzugr6m3.gif
(http://aaaaaaaaaaccccc.googlepages.com/r3c3p9v6e3mclzugr6m3.gif)

مدخل:
قد أوفى الله سبحانه وتعالى لعباده النعم .. وان من عظيم تلك النعم التقنية بشتى منافذها وصورها كالاذاعة والتلفاز والقنوات والصحف والمجلات واهم من هذا وذاك ثورة الانترنت في عصرنا هذا ومفرداتها من الصور والفيديو والصوتيات وغيرها من التطبيقات التي يفرزها تسارع الزمن جيلا بعد جيل لتخدم ذلك التسارع الهائل .. وما هذه التقنية الا ادوات تترجم مقاصد المستخدم فتنبئ عن احدى غايتين ..
إما نفع واما هدم ... ولا قيمة لمحايد ...

http://almajd.islamacademy.net/magazin/qutoof5/001.gif
((http://almajd.islamacademy.net/magazin/qutoof5/001.gif

التقنية وطرفي النقيض:

~~ التقنية والأجور ~~:
نفع متعدي .. بحور من الحسنات ... وسيل هادر من الاجور .. إلى يوم يبعثون ..
.. تعددت وسائل الدعوة الى الله .. والمقصد واحد ... والله سبحانه خير شاهد ..
فـ ((من دعا إلى هدى كان له من الأجر مثل أجور من تبعه لا ينقص ذلك من أجورهم شيئاً ..))
فـ ((.. والله لأن يهدي بك رجلاً واحداً خير لك من حُمر النَّعم)) بل ((خير لك مما طلعت عليه الشمس وغربت) ..
وان العاقل الحصيف هو ذلك الذي يطوع ما حوله من أسباب الدنيا التي سخرها الله له ..
فيما يعود عليه وعلى غيره بالنفع بل قد يتعدى ذلك مع صلاح النية للأجر .. فيجتمع الأجر والنفع .. وهذا هو والله الابداع الحقيقي ..
فالمبدع الحق من وفقه الله لاستدعاء طاقاته الكامنة من المواهب والقدرات التي لا تنضب لعمارة هذه الأرض بالخير والنفع،
وسد أبواب الفتن والشر بشتى الوسائل ولو كان بمجرد فكرة صغيرة ..
ولا يجعل الظروف تقف عائقا له عن الانطلاق نحو هدفه الاسمى (ادع الى سبيل ربك) ..
و لاينكفىء على نفسه ويطوى أفكاره وينتظر سقوط فرض الكفاية بغيره ..
بل يَقدُم ويقدِّم لنفسه (وما تقدموا لأنفسكم من خير تجدوه عند الله هو خيرا وأعظم أجرا) ..
ويسخر تلك الأسباب في تحقيق ذلك الهدف ..

http://almajd.islamacademy.net/magazin/qutoof5/001.gif

وفي ذلك يقول الدكتور ناجي:
إن التطور المذهل التي يشهده عالم التقنية الإلكترونية في هذا العصر وظهور الوسائل و المواد و الأدوات والبرامج والأجهزة والمعدات والآلات الحديثة التي يمكن من خلالها تبادل المعلومات والتواصل المباشر وغير المباشر مع الآخرين، مثل الحاسب الآلي وبرامجه وتطبيقاته الكثيرة، و شبكة الإنترنت وأجهزة الجوال و البلوتوث، وتطور وانتشار الوسائط المتعددة (Multi-media) وأجهزة العرض الإلكترونية، جعل التعامل معها والاستفادة منها في خدمة الإسلام والمسلمين بشكل عام والدعوة إلى الله بشكل خاص ضرورة ملحة يقتضيها الواقع المعاصر ومصلحة الأمة.
وان من وسائل وبرامج التقنية الالكترونية:
١. الحاسب الآلي (وبرامجه وتطبيقاته العديدة ومنها):
. برنامج كتابة النصوص (Word).
. برنامج العرض التقديمي (Powerpoint).
. برنامج تصميم المواقع (Front page).
. برامج قواعد البيانات والرسم والفوتوشوب وغيرها.
٢ ـ شبكة الإنترنت (وبرامجها وتطبيقاتها العديدة ومنها):
* المواقع الإلكترونية.
* البريد الإلكتروني.
* الساحات الحوارية
* محركات البحث.
* المجموعات البريدية الإلكترونية. ...

وغيرها من وسائل التقنية التي يمكن ان تسهم في ذلك ...
ويشير جوان قالفين إلى فاعلية وتأثير استخدام هذه البرامج والأساليب والوسائل الإلكترونية التي تمتاز بسهولة
استخدامها وقلة تكلفتها في التواصل مع غير المسلمين وتبليغ رسالة الإسلام بشكل واسع يصل إلى الملايين من البشر.
ويؤكد أحمد البدوي أن " إنشاء موقع على شبكة الإنترنت هو أحد أهم وسائل الدعوة الإلكترونية ".
حيث يقول: " تعتبر عملية إنشاء موقع إسلامي من أهم الوسائل الدعوية عبر الإنترنت وأكثرها فائدة، وتكمن أهمية هذه الوسيلة في كون
الموقع الإسلامي عبارة عن مكتبة كبيرة وغنية جدا بالمعلومات عن الدين الإسلامي، معروضة بالمجان للملايين من البشر وبعدة لغات، يطلع عليها الناس في أي زمان ومكان.
ويكفيك أن أحد هذه المواقع يتضمن في محتواه ١٢٤ ألف حديث نبوي شريف، وآخر يتضمن ترجمة لكتاب الله تعالى بسبع لغات عالمية، وثالث يحتوي على ٤٠٠٠ آلاف فتوى لهيئة كبار العلماء في السعودية،
ورابع به ما يزيد على ٩٠٠ شريط إسلامي بمختلف اللغات لعدد لا بأس به من العلماء والدعاة كالشيخ عبدالعزيز بن باز والشيخ ابن عثيمين والإمام الألباني رحمهم الله ". ....
كما يقول محمد سعيد مبارك " لقد حدث تراكم معرفي كبير، وزيادة غير مسبوقة في التاريخ للمعلومات بمختلف أفرعها، ومنها الدعوة.
ومن المفيد إدارة هذا الكم الضخم من المعلومات بأسلوب مناسب للدعوة من حيث التبويب، والتخزين، والاسترجاع، والإضافة، والحذف، والتحليل، والتعديل،
وتهيئة الدعاة للاستفادة من هذا الكم الهائل من المعلومات التي من صفاتها الرئيسية عدم قابليتها للاستهلاك، أو النفاد لأنها تتراكم، ويتوالى تراكمها باستمرار ".

للمزيد:
(http://almajd.islamacademy.net/magazin/qutoof5/001.gif)http://www.lahaonline.com/articles/view/15983.htm (http://www.lahaonline.com/articles/view/15983.htm)

http://almajd.islamacademy.net/magazin/qutoof5/001.gif
ويقول (.. ؟ ..) صاحب المقال:

لا يخفى على أحد أهمية هذه التقنيات، حيث إنها انتشرت انتشاراً واسعاً فقربت المسافات، ووفرت الكثير من الجهود، وصار الداعية من خلالها يستطيع الوصول إلى شريحة كبيرة من المدعوين، حيث أنها تنقل الدعوة بطريقة جديدة وشيقة وممتعة، فاستخدام تلك التقنيات في الدعوة بديل عن الاستخدامات الأخرى قليلة النفع.
وممارسة الدعوة إلى الله تعالى من خلال التقنيات الحديثة والإنترنت خاصة لا تحتاج لشهادات أو دورات معقدة، فلقد تعلم الكثيرون من الدعاة أصحاب الشهادات الشرعية الكثير من وسائل
وأساليب استغلال هذه الشبكة في الدعوة إلى الله في أيام قليلة، واهتدى على أيديهم خلق كثير لا يعلمهم إلا الله، فخصوصية التعامل مع الشبكة في أناس متخصصين قد اضمحلت لما تتمتع به هذه الشبكة من المرونة في التعامل معها لدى جميع شرائح المثقفين.
فالإنترنت مثلاً في أحيان كثيرة ليست وسيلة احتكاك مباشر بالناس، وهذا الأمر يعطي قدراً كبيراً من المرونة للدعاة فإن الناس سيستفيدون من موقعك الدعوي و المعلومات المتوفرة فيه ...

و هذا أمر يختلف عن الشيخ الذي يجلس في المسجد و يعلم الناس فإنه في حال سفره أو مرضه تنقطع الاستفادة من علمه، ثم أيضاً لو سألك إنسان بطريقة مباشرة عن حكم من أحكام الإسلام و لا تعرفه فتجيبه بعدم المعرفة .... أما عبر الإنترنت و الاحتكاك غير المباشر فإنه ينفع في إعطائك وقتا كافياً للبحث أو سؤال العلماء ثم الرجوع على السائل بالإجابة وهكذا ...
كما يمكن الاشارة الى أن من أبرز العقبات التي تواجه بعض الدعاة والمشايخ وطلبة العلم حول استخدام التقنيات الحديثة في الدعوة إلى الله وخاصة الانترنت:
١ ـ ضعف القناعة: فمن أهم النقاط التي تقف أمام استخدام التقنيات الحديثة وخاصة الإنترنت لدى بعض الدعاة .. ضعف أوعدم القناعة في استخدام التقنيات أصلا، إما بسبب عدم إتقانهم لهذه الخدمة أو بسبب عدم معرفتهم بالخدمات التي تقدمها.
٢ ـ الخوف: ويقصد به الخوف السلبي لدى البعض، وخاصة ممن وهبه الله العلم والصلاح، فهو يخاف من الدخول إلى عالم التقنيات الحديثة خوفا من الوقوع في معصية، أو مشاركة في منكر، ومع أن الاحتياط مطلوب إلا أن مثل هذا الفعل يفرح به أهل الفساد ليمارسوا دورهم بعيدا عن معرفة أهل الخير والصلاح، وتبقى الساحة خالية لهم وحدهم ....

بتصرف يسير جدا .. (ووجدت المقال باسم د. نباتة البرغش .. وسلمان مبارك .. ولا اعلم لايهما هو .. لكن ما يهمنا مفاده)
وللمزيد ...

http://www.islamweb.net/ver2/archive/readArt.php?id=75586
(http://www.islamweb.net/ver2/archive/readArt.php?id=75586)

او
(
http://almajd.islamacademy.net/magazin/qutoof5/001.gif)http://www.islamway.com/?iw_s=Article&iw_a=view&article_id=1784
(http://www.islamway.com/?iw_s=Article&iw_a=view&article_id=1784)
(http://almajd.islamacademy.net/magazin/qutoof5/001.gif)
http://almajd.islamacademy.net/magazin/qutoof5/001.gif

.. التقنية وتحصيل الأجور ...

أرشيف ملتقى أهل التفسير (ص: ٠)
(.. كيف ذلك؟ ..):

ألا تحبون أن يغفر الله لكم ..

فتصوم وتصلي وتستغفر وتسبح وتأتيك الأجور والحسنات تترى وتبني قصورا في الجنة وأنت على وسادت نومك ..

قبل أن نبدأ في عرض الطرق والأساليب المقترحة احببت أن اخذكم معي في جولة قصيرة لهذه النافذة الصغيرة ..
(http://almajd.islamacademy.net/magazin/qutoof5/001.gif)

(
http://almajd.islamacademy.net/magazin/qutoof5/001.gif)http://sub3.rofof.com/img3/
(03ymtus4.gif (http://sub3.rofof.com/img3/03ymtus4.gif

موقع قامت بانشاءه الاخت كنون وفقها الله وجزاها من الخير ما يرضيها ..

وهو موقع مختص بالفلاشات الدعوية بحيث يقوم بانتاج وعرض الفلاشات من خلال اختصار أشرطة المحاضرات ودمجها مع مقاطع الآيات والأحاديث وإخراجها بالصور والتصاميم الجذابة للدعوة الى الله بالكلمة الطيبة والموعظة الحسنة ..

وهي بذلك أصبحت تستقطب الكثير من المستخدمين من الشباب والكبار، فتؤتي ثمارها بعون الله تعالى ...
فرغم بساطة الفكرة لم تقف حائرة امام فكرتها .. ترجمتها لواقع مشرف
.. رغبت في الخير .. فكان القبول ..
و لك أن ترى الـ ٨٠٠ الف .. ذلك العداد المتضاعف .. عداد الزوار .. بل عداد الأجور ..

فهنيئا لك يا كنون ... تلك الأجور ..

(ماشاء الله لا قوة الا بالله)

http://almajd.islamacademy.net/magazin/qutoof5/001.gif

فالموفق لا يقف عاجزا متحيرا .. فالدعوة مجالها واسع والطرق والاساليب في مجالها أكثر من أن تحصى .. فـ .. (استعن بالله ولا تعجز) ..

http://almajd.islamacademy.net/magazin/qutoof5/001.gif

وإن من أهم الطرق والأساليب التي يمكن من خلالها تسخير التقنية في الخير والدعوة الى الله ..
ما جاء في مجلة الفرقان في عددها ٢٦١ تحت مقال بعنوان الدعوة الإسلامية ومواقعها على الإنترنت بين الواقع والطموح
للكاتب ذياب عبد الكريم .. نورد منها مايلي:
أولاً: النشر ..
١- نشر عنوان موقع إسلامي جديد وما يحتويه من مواد شرعيه وأهم ميزاته
٢- نشر بعض محتويات موقع إسلامي متميز

٣ - نشر جديد المواقع الإسلامية مع روابط متكاملة للمواضيع الجديدة

٤ - المشاركة الفعالة عن طريق مقال جيد

٥- تشجيع كاتب متميز مقل
٦ - جمع روابط موضوع معين تمس الحاجة إليها
٧ - تذكير الناس بعبادة يحين وقتها قريباً كصيام عاشوراء والأيام البيض
٨ - تذكير الناس بأحكام فقهية يحين وقتها كالحج وصيام رمضان

٩ ـ تنبيه الناس على بدعه أو منكر أو خطأ يقع فيه بعض الناس
١٠ـ تنبيه الناس على منكر معين والمساعدة الفعلية في محاولة إزالته
١١ـ تنبيه الناس على خطأ وقع فيه صاحب مقال في حدود آداب الإسلام في الحوار والنصيحة بالتي هي أحسن
١٢ ـ وعظ الناس وتذكيرهم بالله عز وجل والتنويع في كل مرة ما بين آية وحديث وموعظة وقصة وفلاش دعوي
١٣ـ الدلالة على باب من الخير كمشروع خيري من جمعية أو مؤسسة خيرية
١٤ـ التعاون في مجال الدعوة ونقاش أفضل الطرق والوسائل في باب معين
١٥ـ نجدة الزوار من محتاجين المساعدة بالدلالة على موقع أو مقال أو أي مساعدة
١٦ـ إصلاح ذات البين بالحسنى بين من تحصل بينهم مشاحنات أو مناقشات حادة .....

ثانياً: المساهمة مع أصحاب المواقع في الدعوة إلى الله ..
فهناك الكثير من المواقع الإسلامية النافعة التي نقوم بزيارتها والاستفادة منها ولكن هل فكرنا في أن تكون زيارتنا لهذه المواقع أكثر إيجابية فنستفيد ونفيد حيث نساهم مع أصحاب المواقع في الدعوة إلى الله إليك بعض الطرق ..
١ ـ كتابة كلمة شكر وثناء على الموقع أو على أفضل ما في هذا الموقع في سجل الزوار أو برسالة إلكترونية ...

٢ ـ بذل النصيحة للموقع باقتراح سديد أو نقد صائب أو فكرة إبداعية لتطوير الموقع أو النصح بحذف ما لا ينبغي وجوده أو إرسال مادة علميه مناسبة ككتاب أو مقال أو رابط ليستفيد منه أصحاب الموقع أو الإبلاغ عن صفحة لا تعمل أو بها خلل تقني أو فني .... الخ

أرشيف ملتقى أهل التفسير (ص: ٠)
٣ ـ التعاون مع الموقع في نشاطاته المختلفة ... فالكثير من الناس يعتقد أنه لكي يمارس الدعوة عبر الإنترنت لابد أن يكون له موقع خاص وهذا فهم خاطئ والصواب أنه يمكنك أن تساهم بالدعوة بالتعاون مع أصحاب المواقع الموجودة الآن في مجالات مختلفة كل بحسب تخصصه فابحث عن موقع تميل إليه وتحبه وتعاون معه بما تستطيع من خبراتك ومهاراتك وقدراتك ...

٤ ـ المساهمة في نشر الموقع بإرسال عنوان المواقع لمن تعرفهم من زملائك وأقربائك بصورة مبسطة وغير مزعجة فمشكلة المواقع الإسلامية الكبرى هي التسويق والنشر والانتشار وقلة الزوار ..
٥ ـ نشر الموقع عن طريق المجموعات الإخبارية وهذا باب يكاد يكون مهملاً للأسف مع أنه وسيلة إعلامية جيدة ورخيصة وتدوم طويلاً ..
٦ ـ التبرع بقيمة إعلانات لرابط أو شعار للموقع توضع في مواقع بوابيه مشهورة مثل موقع الرادادي أو نسيج أو غيرها أو التبرع للموقع للظهور في محركات البحث بشكل جيد في أعلى النتائج لا سيما مع المواقع المواجهة لغير المسلمين مثل محرك goto.com ....
٦ ـ وضع ملصق صغير عليه عنوان الموقع في مكتبك أو بيتك أو خلف سيارتك وهذه فكرة جيده ..
٧ ـ الحرص على عدم إزعاج أصحاب المواقع والإزعاج يكون بأشياء منها:
الأسئلة المتكررة أوالسؤال عن شيء موجود في الموقع ولكن الكسل يمنع من البحث عنه وكذلك إرسال الرسائل الطويلة للموقع ..

ثالثا: مناصحة أصحاب المواقع الشخصية ..

يمكنك أن تناصح أخوة لك في الدين والعقيدة عن طريق المراسلة فقط مراسلة أصحاب المواقع التي تجد فيها كثيراً من الخير وشيئاً من المنكرات وكما هو ملاحظ نجد أن غالبية المواقع الشخصية وللأسف تبث الأغاني والمنكرات وتضع روابط لبعض القنوات الفضائية
حيث يمكنك توجيه رسالة مختصرة جداً لأصحاب هذه المواقع تذكرهم فيها بالله عز وجل وتحذرهم مما هم واقعين فيه ومثال لهذه الرسالة:
(بسم الله الرحمن الرحيم
الأخ الفاضل: مسؤول موقع (..............) السلام عليكم ورحمة الله وبركاته
لقد قمت بزيارة موقعكم فأعجبني التصميم ومدى الاهتمام به فأحببت أن أبعث لكم هذه الرسالة وبها خاطرة ونصيحة: كما لا يخفى عليكم أن الإنسان في هذه الحياة يسعى جاهداً لتقديم الأفضل ... والأهم من ذلك تقديم ما يرضى الله سبحانه وتعالى فالإنسان مرتهن يوم القيامة بعمله إن خيراً فخير وإن شراً فشر ـ والعياذ بالله وإن الإنسان لتكفيه ذنوبه ويرجو من الله أن يغفر له ... فما بالكم بأناس نذروا أنفسهم لجمع سيئات غيرهم وكأن سيئاتهم لا تكفيهم؟!

وعندما زرت موقعكم وتجولت فيه تذكرت حديث المصطفى صلى الله عليه وسلم: (من سن سنة حسنة فله أجرها وأجر من عمل بها إلى يوم القيامة لا ينقص ذلك من أجورهم شيئا ومن سن سنة سيئة فعليه وزرها ووزر من عمل بها إلى يوم القيامة لا ينقص من أوزارهم شيئا) فهل أنت ممن سن سنة حسنة في موقعك؟ أو ممن سن سنة سيئة؟

فوالله إن ذنوب المرء تكفيه ولا حاجة لاكتساب سيئات الآخرين

فلو عملت في هذا الموقع لنشر الخير والفضيلة ونشر القرآن والسنة فإنك تكسب أجر كل مستمع، وكم سيكون لك من أجور لا يعلمها إلا الله فاليوم عمل ولا حساب وغداً حساب ولا عمل ..

هذه ... وغيرها من وسائل تسخير التقنية في الدعوة الى الله ...

http://almajd.islamacademy.net/magazin/qutoof5/001.gif

وهذا هو طرفنا الأول .. أجور وحسنات ورضوان من الله ..

http://almajd.islamacademy.net/magazin/qutoof5/001.gif

ـــوعلى الطرف الآخر النقيضـــ

(http://www.knoon.com/rwasn/)http://farm4.static.flickr.com/3242/2458332465_26fea82eb0_o.gif (http://farm4.static.flickr.com/3242/2458332465_26fea82eb0_o.gif)

* التقنية و الأوزار *: (http://farm4.static.flickr.com/3242/2458332465_26fea82eb0_o.gif)

فبالمقابل نرى من المسلمين من انبرى لخدمة الشيطان ايما خدمة ..

فكان .. الضرر المتعدي .. والإنغماس في أوحال من المعاصي والذنوب .. والأوزار والأثقال .. تحمل إلى يوم يبعثون .. ولا عجب ..
فـ ((من دعا إلى ضلاله كان عليه من الأثم مثل آثام من تبعه لاينقص ذلك من آثامهم شيئا) ..
لان (الله لا يحب الفساد) و (كل نفس بما كسبت رهينة)

http://farm4.static.flickr.com/3242/2458332465_26fea82eb0_o.gif

فالظالم لنفسه من سخر ما وهبه الله من تلك النعم والتقنيات والمواهب والطاقات في نشر الشر والفساد ... وخدمة أعداء الدين الذين أعلنوها حربا ضروسا ..
ثم لا يكتفي .. بل ينقب عن دواعي الفساد و لا يألو جهدا في ذلك
وهذا هو والله من أعظم الجور على النفس والخلق ..
تزني جوارحه وهو غافل غارق في نومه ... عياذا بالله .. وان العجب اشد العجب من أولئك الذين لا يكتفون بأوزار أنفسهم .. بل يسعون لأوزار غيرهم ...
والانترنت هو خادمهم بأيسر وأسرع الطرق فكما أنه من أيسر طرق كسب الاجور فهو من أيسر سبل الشيطان وصنع الأوزار، سواء بالشبهات أو الشهوات ..

http://farm4.static.flickr.com/3242/2458332465_26fea82eb0_o.gif
وفي ذلك يقول د. باسم عامر:
الناس بعد الممات ينقسمون لقسمين، باعتبار جريان الحسنات والسيِّئات عليهم:
القسم الأول: من يَموت وتنقطع حسناته وسيئاته على السَّواء، فليس له إلا ما قدَّم في حياته الدُّنيا.
القسم الثاني: من يَموت وتبقى آثارُ أعماله من حسناتٍ وسيئاتٍ تجري عليه، وهذا القسم على ثلاثة أصناف:
الأول: من يَموت وتجري عليه حسناتُه وسيئاته، فمثل هذا يتوقَّف مصيره على رجحان أيٍّ من كِفَّتَي الحسنات أو السيئات.
الثاني: من يَموت وتنقطع سيئاته، وتبقى حسناته تَجري عليه وهو في قبره، فينال منها بقدر إخلاصه لله - تعالى - واجتهاده في الأعمال الصَّالحة في حياته الدُّنيا، فيا طيب عيشه، ويا سعادته.
الثالث: من يموت وتنقطع حسناته، وتبقى سيئاته تجري عليه دهرًا من الزَّمان إن لم يكن الدَّهر كله، فهو نائم في قبره ورصيده من السيئات يزدادُ يومًا بعد يوم، حتَّى يأتي يوم القيامة بجبال من السيئات لم تكن في حُسبانه، فيا ندامته ويا خسارته.
إنَّ الحديث عن الحسنات والسيئات أمرٌ لا مفرَّ منه؛ لأنَّ الحساب يوم القيامة يكون بالموازين؛ يقول الله - تعالى-: {وَنَضَعُ المَوَازِينَ القِسْطَ لِيَوْمِ القِيَامَةِ فَلا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَإِنْ كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَى بِنَا حَاسِبِينَ} [الأنبياء: ٤٧].
وكثيرٌ من النَّاس يغفلون عن مسألة السيِّئات الجارية وخطورة شأنِها؛ لأنَّ من السيئات ما إذا مات صاحبها، فإنَّها تنتهي بموته، ولا يَمتد أثر تلك السيئات إلى غير صاحبها، ولكنْ من السيئات ما تستمر ولا تتوقف بموت صاحبها، بل تبقى وتجري عليه،
وفي ذلك يقول أبو حامد الغزالي: "طوبى لمن إذا مات ماتت معه ذنوبه، والويل الطويل لمن يَموت وتبقى ذنوبه مائة سنة ومائتي سنة أو أكثر يُعذَّب بها في قبره، ويُسْأل عنها إلى آخر انقراضها"؛
وقد جاءت النصوصُ الشرعيةُ محذِّرة من هذا النوع من السيئات؛ منها قوله - تعالى -: {لِيَحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ القِيَامَةِ وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ أَلا سَاءَ مَا يَزِرُونَ} [النحل: ٢٥]، وقوله - صلَّى الله عليه وسلَّم -: «مَن دعا إلى ضلالة، كان عليه من الإثم مثل آثام مَن تَبِعَه

لا ينقص ذلك من آثامهم شيئًا»؛ وفي رواية: «ومن سن في الإسلام سنة سيئة، كان عليه وزرها ووزر من عَمِلَ بها من بعده من غير أنْ ينقص من أوزارهم شيء»
وبما أنَّنا نعيش في عصرٍ تيسَّرتْ فيه وسائلُ الاتِّصالات، ونقل المعلومات، أصبح من الأهمية بمكان التَّذكير بشناعة السيِّئات الجارية، ومدى خطورتِها على صاحبها، فكم من إنسان أهلك نفسه، وحمَّل كاهله سيئاتٍ لم تكن محسوبة عندما نصَّب نفسه داعيًا إلى الضَّلال وناشرًا إلى المنكر من حيث يشعر أو لا يشعر!
ومِنْ ثَمَّ؛ فإنَّه بسبب ما نشهده من تقدم وتطوُّر في سائر نواحي الحياة - لا سيما في مجال نقل المعلومات - كانت صور السيئات الجارية متعددة ومن أهمها الانترنت إذا استخدم في الشرِّ، وخاصة أنَّه يُعدُّ مكتبة متنقلة يُمكن الاستفادة منها في أي وقت، فكل ما يُنشر في هذه الشبكة يُمكن استعادته والرجوع إليه، فضلاً عن سرعة انتشار المعلومة فيها
أرشيف ملتقى أهل التفسير (ص: ٠)
فلا أظن عاقلاً إلا ويبادر إلى غلق باب الشرِّ هذا عليه قبل فوات الأوان، ويستبدله بفتح الجانب الآخر المعاكس له
http://farm4.static.flickr.com/3242/2458332465_26fea82eb0_o.gif
(http://farm4.static.flickr.com/3242/2458332465_26fea82eb0_o.gif)... التقنية وتحصيل الأوزار ...
(.. كيف ذلك؟ ..):
عرفت الشر لا للشر ولكن لتوقيه .. ومن لا يعرف الشر من الناس يقع فيه ..
يقول د. باسم:
ولعلَّ من أبرز الاستخدامات التي تندرج في باب السيئات الجارية ما يلي
- إنشاء المواقع والمنتديات الفاسدة والضَّارة، كالمواقع الإباحية ومواقع أهل الفسق والضلال، وهذه المواقع ثَبَتت أضرارها وآثارها الخطيرة على المجتمعات الغربية قبل المسلمة.
- الدلالة على تلك المواقع السيئة، ورفعها على بقيَّة المواقع عن طريق التصويت لها.
- نشر مقاطع الفيديو المخلة والمحرمة في المواقع المشهورة كاليوتيوب وغيره.
- تعليم الآخرين طريقة فتح المواقع المحجوبة السيئة واختراق البروكسي.
- وضع صور سيِّئة كخلفية لمنتدى، أو موقع معين، أو على هيئة توقيع عضو.
- إنشاء المجموعات البريدية من أجل نشر المواد والمقاطع السيئة.
- الإسهام في نشر الشبه والأفكار المنحرفة عن طريق المشاركة في المنتديات
فهذه بعض صور السيئات الجارية في عصرنا الحاضر، والمتأمِّل في آثارها يعرف مدى خطورتها في إضلال الناس وإفسادهم، نسأل الله السلامة والعافية.
للمزيد: http://www.islamway.com/?iw_s=Article&iw_a=view&article_id=5894
(http://www.islamway.com/?iw_s=Article&iw_a=view&article_id=5894)

http://farm4.static.flickr.com/3242/2458332465_26fea82eb0_o.gif

(http://sub3.rofof.com/img3/03yqzkj8.gif (http://sub3.rofof.com/img3/03yqzkj8.gif)

وهذا هو الطرف الآخر .. ذنوب وآثام وغضب من الله ..

http://farm4.static.flickr.com/3242/2458332465_26fea82eb0_o.gif
....(فأي الفريقين خير)؟؟؟؟ ....
منقول للفائدة: موقع الراسخون في العلم،

المفصل في شرح آية لا إكراه في الدين (٢/ ٢١٠)
الثاني : ذكر أمره ونهيه وأحكامه وله قسمان أيضا :
أ ـ الإخبار بأنه أمر بكذا ونهىٰ عن كذا وبأنه أحب كذا أو كره كذا
ب ـ ذكر الله عند أمره فيبادر إليه وعند نهيه فيهرب منه [ابن القيم : ١٤٠٦ ، ١٧٨ـ ١٨١]
فيشمل ذكر الله ترديد كل ما ثبت من الأدعية والأذكار ويشمل حضور مجالس الذكر في المساجد والبيوت وغيرها من الأماكن ، ويشمل أيضا بيان حكم الله عز وجل فيما يواجه الناس من أقضية وأحكام ، هذا بالإضافة إلىٰ المبادرة إلىٰ تنفيذ ما أمر الله به واجتناب ما نهىٰ عنه خاصة عند تذكر قدرة الله وعظمته وما أعده للأبرار من نعيم وللفجار من جحيم ، وذكر الله مما ينبغي أن يتحلىٰ به المسلم ويتشبث به سواء كان لوحده أو مع غيره ، قال تعالىٰ { إن في خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولي الألباب ، الذين يذكرون الله قياما وقعودا وعلىٰ جنوبهم ويتفكرون في خلق السموات والأرض ربنا ما خلقت هذا باطلا سبحانك فقنا عذاب النار } [آل عمران : ١٩٠، ١٩١]
وعن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ أن رسول الله صلىٰ الله عليه وسلم قال : يقول اله تعالىٰ : أنا عند حسن ظن عبدي بي وأنا معه حين يذكرني إن ذكرني في نفسه ذكرته في نفسي وإن ذكرني في ملإ ذكرته في ملإ هم خير منهم ، وإن تقرب مني شبرا تقربت إليه ذراعا وإن تقرب إلي ذراعا تقربت منه باعا وإن أتاني يمشي أتيته هرولة [مسلم : ٤/ ٢٠٦١]
إن لذكر اله أثر عظيم في تربية الذات وتحريك الضمير لأن دوام ذكره تعالىٰ يربي في النفس مقام مراقبة الله في السلوك والتصرفات ، قال تعالىٰ { إنما المؤمنون الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم وإذا تليت عليهم آياته زادتهم إيمانا وعلىٰ ربهم يتوكلون } [الأنفال : ٢] وإنه ما من شك في أن اتخاذ ذكر الله بجميع أنواعه أسلوبا في حياة الفرد يعد من أنجح الأساليب في التربية الذاتية ، بالإضافة إلىٰ أهمية هذا الأسلوب في تربية الأمة ، ومن لا يتخذ هذا الأسلوب فسيدع مجالا لشياطين الإنس والجن وأعوانهما كي تذكر وتنشر ، ومن ثم سيصير ـ والعياذ بالله ـ من الذين ذمهم الله تعالىٰ فقال فيه : { وإذا ذكر الله وحده اشمأزت قلوب الذين لا يؤمنون بالآخرة وإذا ذكر الذين من دونه إذا هم يستبشرون } [الزمر : ٤٥]، وقال تعالىٰ : { ومن يغش عن ذكر الرحمن نقيض له شيطانا فهو له قرين } [الزخرف : ٣٦]
وقد حث المصطفىٰ صلىٰ الله عليه وسلم علىٰ مداومة الذكر في أحاديث كثيرة ، عن معاذ ـ رضي الله عنه ـ قال : قال رسول الله صلىٰ الله عليه وسلم : ألا أخبركم بخير أعمالكم وأزكاها عند مليككم وأرفعها في

درجاتكم وخير لكم من إنفاق الذهب والورق وخير لكم من أن تلقوا عدوكم فتضربوا أعناقهم ويضربوا أعناقكم ؟ قالوا : بلىٰ ، قال : ذكر الله تعالىٰ [الترمذي : ٥/ ٤٢٨]

وعن معاذ أيضا قال : قال رسول الله صلىٰ الله عليه وسلم : ما عمل آدمي عملا قط أنجىٰ له من عذاب الله من ذكر الله [أحمد : ٥/ ٢٣٩ وصححه الألباني في صحيح الجامع رقم ٥٥٢٠]

وبين العلامة الجهبذ ابن القيم أن للذكر نحوا من مائة فائدة ، وينصح الباحث كل مهتم بتربية نفسه أن يراجع تلك الفوائد فإن فيها نفائس جمة ودررا عظيمة لا تكاد توجد عند غيره ، ومن ذلك أنه أورد روايات وأقوالا عدة عن سلف هذه الأمة في بيان أثر هذا الذكر علىٰ نفوسهم وأرواحهم ، قال رحمه الله : وحضرت شيخ الإسلام ابن تيمية مرة صلىٰ الفجر ثم جلس يذكر الله تعالىٰ إلىٰ قريب من انتصاف النهار ثم التفت إلي وقال : هذه غدوتي ولو لم اتغذ هذا الغذاء سقطت قوتي ... ، وقال لي مرة : لا أترك الذكر إلا بنية إجمام نفسي وإراحتها لأستعد بتلك الراحة لذكر آخر ، ... ، وسمعت شيخ الإسلام يقول : إن في الدنيا جنة من لم يدخلها لا يدخل جنة الآخرة ، ...وقال أيضا : ما يصنع أعدائي بي ؟ أنا جنتي وبستاني في صدري إن رحت فهي معي لا تفارقني إن حبسي خلوة وقتلي شهادة وإخراجي من بلدي سياحة(١)

ومن الأقوال العظيمة في هذا الباب قول أحدهم : لو علم الملوك وأبناء الملوك ما نحن فيه لجالدونا عليه بالسيوف ، وقال آخر : مساكين أهل الدنيا خرجوا منها وما ذاقوا أطيب ما فيها ، محبة الله تعالىٰ ومعرفته وذكره(٢)

وشكا رجل للحسن البصري قسوة قلبه فقال أدبه بالذكر(٣)

ونختم بما قاله ابن القيم عن أثر الذكر في التربية الذاتية ، قال رحمه الله : ولا ريب أن القلب يصدأ كما يصدأ النحاس والفضة وغيرهما وجلاؤه بالذكر فإنه يجلوه حتىٰ يدعه كالمرآة البيضاء فإذا ترك الذكر صدئ فإذا ذكره جلاه ، وصدأ القلب بأمرين : بالغفلة والذنب وجلاؤه بشيئين : بالاستغفار والذكر(٤)

وفي ذكر الله بجميع أنواعه تكثير للحسنات ورفع للدرجات ، وهذا ما يسعىٰ إليه العبد من تربية ذاته

يُقَادُ لِلسِّجْنِ مَنْ سَبَّ الزَّعِيمَ ومَنْ *** سَبَّ الإِلَهَ فإِنَّ النَّاس أحْرارُ !
موسوعة الدفاع عن رسول الله صلىٰ الله عليه وسلم (١٠/ ١٩٤)
ولا تعرج علىٰ كسرىٰ ودولته ***** وكل أصْيد أو ذي هالةٍ وكمي
وانسخ مدائح أرباب المديح كما ***** كانت شريعته نسخا لدينهم
رصّع بها هامة التأريخ رائعة ***** كالتاج في مفرق بالمجد مرتسم
فالهجر والوصل والدنيا وما حملت **** وحب مجنون ليلىٰ ضلة لعمي
دع المغاني وأطلال الحبيب ولا***** تلمح بعينك برقا لاح في أضم
وأنس الخمائل والأفنان مائلة ***** وخيمة وشويهات بذي سلم
هنا ضياء هنا ري هنا أمل ***** هنا رواء هنا الرضوان فاستلم
لو زينت لامرء القيس انزوىٰ خجلا ***** ولو رآها لبيد الشعر لم يقم
ميمية لو فتىٰ بوصير أبصرها ***** لعوذوه برب الحل والحرم
سل شعر شوقي أيروي مثل قافيتي *** أو أحمد بن حسين في بني حكم
ما زار سوق عكاظ مثل طلعتها***** هامت قلوب بها من روعة النغم
أُثْنِي عَلَىٰ مَنْ ؟ أَتَدْرِي مَن أُبَجِّلُهُ ؟ *** أمَا عَلِمْتَ بِمَنْ أهْدَيْتُهُ كَلِمِي
في أشجع الناس قلبا غير منتقم ***** وأصدق الخلق طرّا غير متهم
أبهىٰ من البدر في ليل التمام وقل * أسخىٰ من البحر بل أرسىٰ من العلم
أصفىٰ من الشمس في نطق وموعظة ** *أمضىٰ من السيف في حكم وفي حكم
أغر تشرق من عينيه ملحمة ***** من الضياء لتجلو الظلم والظلم
في همة عصفت كالدهر واتقدت *** كم مزقت من أبي جهل ومن صنم
أتىٰ اليتيم أبو الأيتام في قدر ***** أنهىٰ لأمته ما كان من يتم
محرر العقل باني المجد باعثنا ***** من رقدة في دثار الشرك واللمم
بنور هديك كحلنا محاجرنا ***** لما كتبنا حروفا صغتها بدم
من نحن قبلك إلا نقطة غرقت **** في اليم بل دمعة خرساء في القدم
أكاد أقتلع الآهات من حُرَقي ***** إذا ذكرتُك أو أرتاعُ من ندمي
لما مدحتك خلت النجم يحملني ***** وخاطري بالسنا كالجيش محتدم
أقسمتُ بالله أن يشدو بقافية ***** من القريض كوجه الصبح مبتسم

صه شكسبير من التهريج أسعدنا **** عن كل إلياذة ما جاء في الحكم

الفرس والروم واليونان إن ذكروا ***** فعند ذكراه أسمال علىٰ قزم

هم نمقوا لوحة للرق هائمة ***** وأنت لوحك محفوظ من التهم

أهديتنا منبر الدنيا وغار حرا ***** وليلة القدر والإسراء للقمم

والحوض والكوثر الرقراق جئت به**** أنت المزمل في ثوب الهدىٰ فقم

الكون يسأل والأفلاك ذاهلة ***** والجن والإنس بين اللاء والنعم

والدهر محتفلٌ والجو مبتهج ***** والبدر ينشق والأيام في حلم

سرب الشياطين لما جئتنا احترقت **** ونار فارس تخبو منك في ندم

وصُفّدَ الظلم والأوثان قد سقطت ***** وماء ساوة لما جئت كالحمم

قحطان عدنان حازوا منك عزتهم ***** بك التشرف للتأريخ لا بهم

عقود نصرك في بدر وفي أحد ***** وعدلا فيك لا في هيئة الأمم

شادوا بعلمك حمراء وقرطبة ***** لنهرك العذب هب الجيل وهو ظمي

ومن عمامتك البيضاء قد لبست ***** دمشق تاج سناها غير منثلم

رداء بغداد من برديك تنسجه ***** أيدي رشيد ومأمون ومعتصم

وسدرة المنتهىٰ أولتك بهجتها ***** علىٰ بساط من التبجيل محترم

دارست جبريل آيات الكتاب فلم***** ينس المعلم أو يسهو ولم يهم

اقرأ ودفترك الأيام خُط به ***** وثيقة العهد يا من بر في القسم

قربت للعالم العلوي أنفسنا ***** مسكتنا متن حبل غير منصرم

نصرت بالرعب شهرا قبل موقعة *** كأن خصمك قبل الحرب في صمم

إذا رأوا طفلا في الجو أذهلهم ***** ظنوك بين بنود الجيش والحشم

بك استفقنا علىٰ صبح يؤرقه ***** بلال بالنغمة الحرّىٰ علىٰ الأطم

إن كان أحببت بعد الله مثلك في **** بدو وحضر ومن عرب ومن عجم

فلا اشتفىٰ ناظري من منظر حسن *****ولا تفوه بالقول السديد فمي

ولا تعرج علىٰ كسرىٰ ودولته ***** وكل أصْيد أو ذي هالةٍ وكمي

وانسخ مدائح أرباب المديح كما ***** كانت شريعته نسخا لدينهم

رصّع بها هامة التأريخ رائعة ***** كالتاج في مفرق بالمجد مرتسم

فالهجر والوصل والدنيا وما حملت **** وحب مجنون ليلىٰ ضلة لعمي

دع المغاني وأطلال الحبيب ولا***** تلمح بعينك برقا لاح في أضم

وأنس الخمائل والأفنان مائلة ***** وخيمة وشويهات بذي سلم

هنا ضياء هنا ري هنا أمل ***** هنا رواء هنا الرضوان فاستلم

لو زينت لامرء القيس انزوىٰ خجلا ***** ولو رآها لبيد الشعر لم يقم

ميمية لو فتىٰ بوصير أبصرها ***** لعوذوه برب الحل والحرم

سل شعر شوقي أيروي مثل قافيتي *** أو أحمد بن حسين في بني حكم

ما زار سوق عكاظ مثل طلعتها***** هامت قلوب بها من روعة النغم

إنَّ الأرضَ أضاءَتْ وأشْرَقَتْ يَومَ بَعَثَ اللَّهُ – تَعالَىٰ – مُحمَّداً – صلَّىٰ اللَّهُ علَيْهِ وسلَّم – لِحُسْنِ أخلاقِهِ وخِصَالِهِ الكريمةِ وأوصافِهِ العَظِيمَةِ وفَضائِلِهِ الكثيرةِ وشَمائِلِهِ الجَميلَةِ .

وقَبْلَ مَبْعَثِهِ – صَلَّىٰ اللَّهُ علَيْهِ وسلَّم – كانَ النَّاسُ جِيفةً في أحضانِ صَنَمٍ ، وجُثَّةً تَحْتَ أقْدامِ وَثَنٍ : جِباهٌ قدْ انْحَنَتْ للَّاتِ والعُزَّىٰ ، ووجُوهٌ قَدْ خَضَعَتْ لِمَناةَ الثَّالِثةِ الأُخْرَىٰ !

قُلُوبٌ قَدْ تَعَلَّقَتْ بِغَيْرِ خَالِقِها ، ونُفُوسٌ قَدْ ذَلَّتْ لِغَيْرِ مَالِكَها !

فأرْسَلَ اللَّهُ – عَزَّ وجلَّ – مُحَمَّداً – صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وسَلَّم – لِيُقِيمَ بِهِ المِلَّةَ العَوْجَاءَ ويَدْعُوَ إلَىٰ ربِّهِ ، ويَرُدَّ كُلَّ شيءٍ إلَىٰ نِصَابِهِ ، ويُعِيدَ كُلَّ شيءٍ إلَىٰ حَقِيقَتِهِ وأصْلِهِ ، فجَعَلَ في العُقُولِ حِكْمةً ، وفي النُّفُوسِ رَحْمةً ، وفي القُلُوبِ إيماناً وفي الأرواحِ يَقِيناً ، وتَرَكَ في وَحْياً وعِلْماً ، وأقامَ في الكَوْنِ إنْصافاً وعَدْلاً {وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ} [الأنبياء/١٠٧]

مُحَمَّدٌ أتْقىٰ النَّاسِ وأبَرُّهُم قَلْباً ، وأزْكَاهُم نَفْساً ، وأشْرَحُهُم صَدْراً ، وأكْمَلُهُم عَقْلاً ، وأسَدُّهُم رأيَاً ، وأقواهُم بَصِيرةً ، وأقْوَمُهُم هَدْيَاً ، وأوسَطُهم مَذهَباً ، وأحْسَنُهُم طَريقةً ، وأفْصَحُهم لِساناً وأوضَحُهم بَياناً ، وأثْبَتُهم حُجَّةً وأَصْدَقُهُم لَهْجةً ، وأنْصَحُهُم قِيلاً وأهْداهُم سَبيلاً ، وأكْرَمُكُهم خُلُقاً وأوْسَعُهم حِلْماً ، وأعْظَمُهُم رحمةً ، وأجْوَدُهُم يَداً ، وأرضاهُم سَجِيَّةً ، وأسْلَمُهُم جَانِباً ، وأجَلُّهُم قَدْراً وأعَزُّهُم فَخْراً – صلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وسلَّم –

أُثْنِي عَلَى مَنْ ؟ أتَدْرِي مَنْ أُبَجِّلُهُ ؟ *** أمَا عَلِمْتَ بِمَنْ أهْدَيْتُهُ كَلِمِي
مُحَمَّدٌ أشْجَعُ النَّاسِ قَلْباً غَيْرُ مُنْتَقِمٍ *** مُحَمَّدٌ أصْدَقُ الخَلْقِ طُرّاً غَيْرُ مُتَّهَمِ
مُحَمَّدٌ أبهَى مِنَ البَدْرِ في لَيْلِ التَّمامِ وقُلْ *** مُحَمَّدٌ أسْخَى من البحرِ بل أرسَى من العَلَمِ
مُحَمَّدٌ أصْفَى مِنَ الشَّمْسِ في نُطْقٍ ومَوْعِظَةٍ *** مُحَمَّدٌ أمْضَى مِنَ السَّيْفِ في حُكْمٍ وفي حِكَمِ
مُحَمَّدٌ أغَرُّ تُشْرِقُ مِن عَيْنَيْهِ مَلْحَمَةٌ *** مِنَ الضِّيَاءِ لِتَجْلُوَ الظُّلُمَ والظُّلَمِ
مُحَمَّدٌ مُحَرِّرُ العَقْلِ بَانِي المَجْدِ بَاعِثُنَا *** مِنْ رَقْدةٍ في دِثَارِ الشِّرْكِ واللَّمَمِ
بِنورِ هَدْيِكَ كَحَّلْنا مَحَاجِرَنَا *** لَمَّا كَتَبْنَا حُروفاً صُغْتَها بِدَمِ
في هِمَّةٍ عَصَفَتْ كالدَّهْرِ واتَّقَدَتْ *** كَمْ مَزَّقَتْ مِن أبي جَهْلٍ ومِنْ صَنَمِ
مَنْ نَحْنُ قَبْلَكَ إلا نُقْطَةٌ غَرِقَتْ *** في الجَهْلِ بل دَمْعَةٌ خَرْسَاءُ في القِدَمِ
أهْدَيْتَنا مِنْبَرَ الدُّنْيَا وغَارَ حِرا *** ولَيْلَةَ القَدْرِ والإسْراءَ لِلْقِمَمِ
والحَوْضَ والكَوْثَرَ الصَّافي جِئْتَ بِهِ *** أنتَ المُزَمِّلُ في ثَوْبِ الهُدَى فَقُمِ
إنْ كُنْتُ أحْبَبْتُ بَعْدَ اللَّهِ مِثْلَكَ في *** بَدْوٍ وحَضَرٍ ومِنْ عَرَبٍ ومِنْ عَجَمِ

فلا اشْتَفَتْ عَيْنَيَّ مِن مَنْظَـــــــــرٍ حَسَنٍ *** ولا تَفَوَّهَ بالقَـــــــــــــولِ السَّدِيدِ فَمِي

أتىٰ اليتيم أبو الأيتام في قدر ***** أنهىٰ لأمته ما كان من يتم

أكاد أقتلع الآهات من حُرَقي ***** إذا ذكرتُك أو أرتاعُ من ندمي

لما مدحتك خلت النجم يحملني ***** وخاطري بالسنا كالجيش محتدم

أقسمتُ بالله أن يشدو بقافية ***** من القريض كوجه الصبح مبتسم

صه شكسبير من التهريج أسعدنا **** عن كل إلياذة ما جاء في الحكم

الفرس والروم واليونان إن ذكروا ***** فعند ذكراه أسمال علىٰ قزم

هم نمقوا لوحة للرق هائمة ***** وأنت لوحك محفوظ من التهم

الكون يسأل والأفلاك ذاهلة ***** والجن والإنس بين اللاء والنعم

والدهر محتفلٌ والجو مبتهج ***** والبدر ينشق والأيام في حلم

سرب الشياطين لما جئتنا احترقت **** ونار فارس تخبو منك في ندم

وصُفِّدَ الظلم والأوثان قد سقطت ***** وماء ساوة لما جئت كالحمم

قحطان عدنان حازوا منك عزتهم ***** بك التشرف للتأريخ لا بهم

عقود نصرك في بدر وفي أحد ***** وعدلا فيك لا في هيئة الأمم

شادوا بعلمك حمراء وقرطبة ***** لنهرك العذب هب الجيل وهو ظمي

ومن عمامتك البيضاء قد لبست ***** دمشق تاج سناها غير منثلم

رداء بغداد من برديك تنسجه ***** أيدي رشيد ومأمون ومعتصم

وسدرة المنتهىٰ أولتك بهجتها ***** علىٰ بساط من التبجيل محترم

دارست جبريل آيات الكتاب فلم***** ينس المعلم أو يسهو ولم يهم

اقرأ ودفترك الأيام خُط به ***** وثيقة العهد يا من بر في القسم

قربت للعالم العلوي أنفسنا ***** مسكتنا متن حبل غير منصرم

نصرت بالرعب شهرا قبل موقعة *** كأن خصمك قبل الحرب في صمم

إذا رأوا طفلا في الجو أذهلهم ***** ظنوك بين بنود الجيش والحشم

بك استفقنا علىٰ صبح يؤرقه ***** بلال بالنغمة الحرّىٰ علىٰ الأطم

{قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلاَّ تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ قَالَ أَنَاْ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ }الأعراف١٢

{ وَقَاسَمَهُمَا إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ النَّاصِحِينَ }الأعراف٢١

قَالَ تَعَالَى: ﴿ وَلَقَدْ عَهِدْنَآ إِلَىٰٓ ءَادَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُۥ عَزْمًا ﴿١١٥﴾ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَـٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِأَدَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ ﴿١١٦﴾ فَقُلْنَا يَـٰٓـَٔادَمُ إِنَّ هَـٰذَا عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ ٱلْجَنَّةِ فَتَشْقَىٰٓ ﴿١١٧﴾ إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَىٰ ﴿١١٨﴾ وَأَنَّكَ لَا تَظْمَؤُا۟ فِيهَا وَلَا تَضْحَىٰ ﴿١١٩﴾ فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ ٱلشَّيْطَـٰنُ قَالَ يَـٰٓـَٔادَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ ٱلْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَىٰ ﴿١٢٠﴾ فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْءَٰتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ ٱلْجَنَّةِ ۚ وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ ﴿١٢١﴾ ثُمَّ ٱجْتَبَـٰهُ رَبُّهُۥ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ ﴿١٢٢﴾ ﴾ طه: ١١٥ - ١٢٢